تدبر القرآن

أدوات وتطبيقات

تأليف

السيد غسان السامرائي

مركز الدليل العقائدي

الدليل العقائدي
مركز بحثي متخصص في الرد على شبهات المخالفين
١٤٤٦ هـ / ٢٠٢٤ م

هوية الكتاب

عنوان الكتاب: تدبر القرآن ـ أدوات وتطبيقات
التأليف: السيد غسان السامرائي
الإخراج الفني: صفاء أحمد الشمري
الناشر: مركز الدليل العقائدي
سنة الطبع: ١٤٤٦ هـ / ٢٠٢٤ م
عدد النسخ: ١٠٠٠ نسخة

حقوق الطبع والنشر محفوظة
لمركز الدليل العقائدي

بسم الله الرحمن الرحيم

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

مقدمة المركز

الحمدُ لله ربِّ العالمين، والصَّلاةُ والسلام على من نَزَلَ القرآن على صدره، فبلَّغه إلى أمته، وعلى آله المعصومين الذين بينوا ما أَمر اللهُ به ومن حذا حذْوهم إلى يوم الدين، واللعن الدائم المؤبَّد على أعدائهم أجمعين، وبعدُ:

فإن محمدًا صلى الله عليه وآله وسلم هو خاتم النبيين، قال سبحانه: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾[١]، وإن القرآن الذي جاء به هو دستور إلهيٌّ للحياة الإنسانية وتبيان واضح لكل شيء من العلوم والمعارف الدينية والإنسانية، مما يحتاج إليه الناس في حياتهم؛ لأنه متكفِّل لجميع ما يحتاجون إليه في معاشهم ومعادهم، ومرشد لهم إلى طريق الصواب، قال تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾[٢]، وقوله: ﴿وَلاَ رَطْبٍ وَلاَ يَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾[٣]، وقوله: ﴿لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ﴾[٤].

إن هذا القرآن هو كتاب الحياة الذي صحّح أوضاع المسلمين، وصحح

(١) الأحزاب: ٤٠.
(٢) النحل: ٨٩.
(٣) الأنعام: ٥٩.
(٤) الروم: ٥٦.

عقائدهم، وأبطل عقائد المشركين، ونبّه المسلمين إلى مكر الأعداء وتدبيرهم، قال سبحانه: ﴿أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾(١).

وإن هذا القرآن هو مأدبة الله المعروضة أمام المسلمين، مفتوح للقارئين، دليل للحيارى وهدى للضّالّين، وهداية للمسترشدين، ورحمة لمن صدّق به، قال سبحانه: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾(٢).

هذا القرآن هو نور الله المبين الذي ينير للإنسان الظلمات، والركن الثابت الذي يُعتمد عليه في بناء الحياة، والصراط المستقيم الذي يهدي إلى رضا الله تعالى. من تركه من جبار قصمه الله، ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله، قال عزّ من قائل: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾(٣)، فلا حياة في غير القرآن، كيف؟ وهو الروح، فهل هناك حياة بغير روح؟ قال الله سبحانه: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾(٤)، ولقد وصف القرآن الذين عاشوا الحياة على غير هدايته بالموتى، مع أنهم يأكلون، ويشربون، ويروحون، ويغدون، فقال سبحانه: ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ

(١) الأنعام:١٢٢.
(٢) الإسراء:٩.
(٣) الإسراء:٩.
(٤) الشورى:٥٢.

الْمَوْتَى وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ۞ وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُمْيِ عَنْ ضَلَالَتِهِمْ إِنْ تُسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ﴾(١).

ووصف الله سبحانه المعرضين عن القرآن بالعمى، فقال سبحانه: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى﴾(٢).

وكيف لا يكون القرآن حياة وفيه كل ما يطلبه العباد للوصول إلى السعادة الدنيوية والأخروية؟ فيه نظام الأسرة، ونظام المجتمع، ونظام الحكم ونظام القضاء، فيه شفاء الأمراض، وهو -وليس سواه- الذي يعزز العقيدة، ويصقل الفكر، ويهذب السلوك.

وفيه توجيهات بحقوق الآباء على أبنائهم وحقوق الأبناء على آبائهم، وبالإضافة إلى ذلك، يُبيِّن القرآن حقوق الفرد على المجتمع وحقوق المجتمع على الفرد، وحقوق الزوجين على بعضهما، وحقوق الإخوة والأقرباء والجيران على بعضهم البعض، وعلى قمة هذه الحقوق يُظهر القرآن حقوق الله سبحانه وتعالى على عباده، وبناءً على ذلك، فإن الحياة على وفق القرآن الكريم تتضمن هذه الأسس والقوانين التي تضمن العدالة والأمانة والتعاون في المجتمع، وهي تؤدي إلى تحقيق الخير في الدنيا والسعادة في الآخرة.

فما أنزل الله سبحانه كتابه على نبيه صلى الله عليه وآله وسلم إلا لأجل هدف، هو إصلاح

---

(١) النمل: ٨٠-٨١.
(٢) طه: ١٢٤-١٢٦.

الدنيا وتحقيق سعادة الآخرة، وذلك الهدف قد حواه القرآن في ثناياه، وهو كفيل بتحقيق هذا الهدف بالأحكام والشرائع والعظات والعبر، قال الله سبحانه: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا ۞ قَيِّمًا لِيُنْذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِنْ لَدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا﴾(١).

ودعا القرآن الكريم في كثير من آياته إلى التفكر في خلق الله للسماوات والأرض، وللتدبر في الكون ومخلوقاته، وذلك لفهم العظمة والحكمة الإلهية، قال سبحانه: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾(٢).

ودعا إلى التفكّر في خلق الإنسان نفسه والأسرار المودعة فيه، فقال سبحانه: ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ ۞ خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ ۞ يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ﴾(٣)، وقال سبحانه: ﴿فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا﴾(٤).

---

(١) الكهف:١-٢.
(٢) البقرة:١٦٤.
(٣) الطارق:٥-٧.
(٤) الحج:٥.

ودعا إلى السير في أقطار الأرض والتفكّر في آثار الماضين والفحص في أحوال الشعوب والجوامع البشريّة وما كان لهم من القصص والتواريخ والعبَر، فقال سبحانه: ﴿قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾[(١)].

ودعا إلى تعلّم العلوم الطبيعيّة والرياضيّة والفلسفيّة والأدبيّة وسائر العلوم الّتي يمكن أن يصل إليها الفكر الإنسانيّ، فهو يحثّ على تعلّمها لنفع الإنسانيّة وإسعاد البشريّة.

إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة الّتي تؤسس للبشرية نظامًا تحيا به حياة كريمة في دنياها، وسعادة أبدية في أخراها.

وانطلاقًا مما تقدم، ومن قول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «فضل القرآن على سائر الكلام كفضل الله على خلقه»[(٢)]. وقوله صلى الله عليه وآله وسلم: «ألا من تعلم القرآن، وعلّمه، وعمل بما فيه، فأنا له سائق إلى الجنة، ودليل إلى الجنة»[(٣)]. وقوله صلى الله عليه وآله وسلم: «إن أردتم عيش السعداء وموت الشهداء، والنجاة يوم الحسرة، والظل يوم الحرور، والهدى يوم الضلالة، فادرسوا القرآن، فإنه كلام الرحمن، وحرز من الشيطان ورجحان في الميزان»[(٤)].

ومن قول أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام: «اللهَ اللهَ في القرآن، لا

---

(١) آل عمران: ١٣٧.
(٢) بحار الأنوار، ج٨٩، ص١٩.
(٣) ميزان الحكمة، ج٨، ص٧٥.
(٤) ميزان الحكمة، ج٨، ص٧٤.

يسبقكم بالعمل به غيركم»[١].

ومن قول الإمام الصادق عليه السلام: «ينبغي للمؤمن أن لا يموت حتى يتعلم القرآن، أو أن يكون في تعلُّمه»[٢].

ولما مضى أخذ مركز "الدليل العقائدي" على عاتقه توسيع مجال البحث والدراسة والتأليف حول القرآن الكريم، متعاملًا بعمق مع تفاصيله ومعانيه المتعددة، وعلى ضوء ذلك قام المركز بإصدار كتابٍ بعنوان "تدبر القرآن - أدوات وتطبيقات"، لمؤلفه "السيد غسان السامرائي".

ونسأل الله العليّ القدير أن يجعله ذخرًا لمؤلفه يوم الحشر، وأن يحشره مع محمّد وآله المنتجبين، إنه سميع مجيب.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، وصلى الله على خير خلقه أجمعين، محمد وآله الطيبين الطاهرين.

السيد مهدي الموسوي الجابري

مدير ومؤسس مركز الدليل العقائدي

النجف الأشرف

١ محرم ١٤٤٦ هـ

٨/ ٧/ ٢٠٢٤م

(١) نهج البلاغة، كتاب ٤٧.
(٢) موسوعة الفقه، ج٩٨، ص١٨٦.

المقدمة

الكلام في القرآن شديد، فإنه الفريد في معناه ومبناه؛ وذلك لأنه تنزيل الحكيم العليم الذي أراده دستورًا سرمديًا للبشرية حتى يوم الدين؛ ولأنه أراده معجزة خالدة لسيد المرسلين محمد ﷺ إثباتًا لرسالته أبد الدهر...

ولأنه وضع التحدي الفريد للناس جميعًا، وإلى يوم الدين، أن يأتوا بمثله، بل بعشر سور من مثله، بل بسورة واحدة فقط من مثله؛ ولا يكتفي بهذا، بل يعلن أنهم سيفشلون قطعًا مهما طال الزمن، وهذا تحدٍّ يجعل الإنسان يفكر في عظمة هذا الكتاب الفريد، وهو يريد أن ينظر فيه بنظرة فاحصة ولو بالحد الأدنى...

هذا الكتاب الذي وصفه أحد عتاة الكافرين به يومها أن «أعلاه لمثمر، وإن أسفله لمغدق، وإنه ليعلو، ولا يعلى عليه»!

وبالتالي فإن الذي يريد أن ينظر في القرآن بشيء من التدقيق، وهذا من متطلبات التدبر الحقيقي، فإنه يتهيب من ذلك، إذ إنه يتوقع أن كل كلمة يطالعها ربما لها من المعاني، بمستوياتها المختلفة، ما يمكن أن يفشل فهمه في إدراكها.

مع هذا كله، فتح المولى عز وجل الباب للقيام بالنظر في كتابه العزيز، بل حث عليه بكل قوة، في القرآن ذاته، وربما أمر به ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾[١]، بل وقرّع الذين لا يتدبرونه ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾[٢]، فصارت هذه العملية تشجعنا على القيام به على الرغم من هذه الهيبة الهائلة والمنزلة العليا لهذا الكتاب الفريد.

إن تفسير المفسرين يتضمن بالضرورة عملية تدبر تعتبر المقدمة للتفسير الذي أتى به كل منهم. وبما أن المفسرين اختلفوا في الكثير من الآيات، فإننا لا بد وأن ندرك أن عملية التدبر تأتي بثمار جديدة كل حين، وهو ليس غريبًا إذا ما التفتنا إلى أمرين:

الأول: أن القرآن العظيم هو الكتاب الخاتم، أو العهد الخاتم (مقابلة للعهد القديم والعهد الجديد عند أهل الكتاب)، وبالتالي لا يمكن إلا أن يظل يعطي دون تخلف عن تطور الحياة.

الثاني: توكيد ذلك من الحديث الشريف ومنه ما ورد عن أئمة الهدى عليهم السلام أن القرآن يجري مجرى الشمس والقمر ومجرى الليل والنهار، ليوضحوا أن ذلك لأنه لم يأت لقوم معينين دون غيرهم ولكن لجميع الناس عبر العصور وإلى يوم الدين.

إذًا، نتائج التدبر ستكون مفيدة جميلة، للمتدبر نفسه كما لمن

---

(١) ص:٢٩.
(٢) محمد:٢٤.

يستفيد منه... ولكن شريطة أن لا يكون ذلك خارج نطاق الطريقة العلمية والإطار التقوائي.

بعبارة أخرى، يجب على المتدبر أن يكون عنده الحد الأدنى من أدوات التدبر الضرورية، كما أن يلتحف بإطار التقوى الذي يمنعه من أن يجنح بعيدًا في نظره بحيث يأتي من القرآن بما ليس فيه، سواء مما يصادم الواضحات منه، أو ما يجعل القرآن يبدو وكأن فيه الأخطاء، وهو مستحيل عليه لأنه ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ﴾[1]، أو يجعله كغيره بما يمكن أن يحويه من المتناقضات ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾[2]، الأمر الذي نجده في بعض الأفراد ممن صاروا يقولون في القرآن بأفهام غريبة وبأمزجة الهوى بعيدين عن هدي المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم الذي أنزل عليه، بل ومخالفات واضحة متعكزين على فكرة تغير الزمان، وكأن الزمان يغير حتى من اللغة العربية أو من السنن الكونية في البشر، بينما الواقع هو أن البعض سقطوا نتيجة ضغوط الآخرين على الدين وكتابه العظيم ونبيه الكريم صلى الله عليه وآله وسلم فصاروا يحاولون ليّ الآيات القرآنية لتتوافق مع ما يأمر به الآخرون، ولا شك في أن هذا يلاقي هوى في نفوس البعض من هؤلاء الذين هم -في واقع الأمر- يعتدون على الكتاب العزيز.

كتابي هذا هو مجموعة من الأبحاث التدبرية، أوضحت فيها

---

(١) فصلت:٤٢.

(٢) النساء:٨٢.

طريقتي من خلال أمثلة متنوعة، ثم قدمت «أدوات التدبر»، ثم تطبيقات متنوعة، في مواضيعها تنوع كبير...

وجعلته في تسعة أبواب:

الباب الأول من فصلين: فيه تعريفات عن التفسير والتدبر والتنبيه إلى عدم الجنوح في تصور أن ما تنتج عنه عملية التدبر هو بالضرورة التفسير الصحيح أو الدقيق أو الذي يمنع باقي الوجوه الممكنة؛ كما أن فيه أمثلة متعددة توضح طريقة التدبر التي اعتمدناها.

الباب الثاني من فصل واحد: يبين أدوات التدبر التي ينبغي اعتمادها من أجل التوصل إلى فهم منطقي محتمل احتمالًا جيدًا أو ما يمكن أن يصل إلى حد التوكيد في هذه الحالة أو تلك؛ والأدوات يجب أن تكون في ذهن المتدبر أصلًا كي لا يبحر في كتاب اللّه بطريقة عشوائية.

الباب الثالث من أحد عشر فصلًا: تطبيقات في معارف ومواضيع مختلفة مستخلصة من تقسيم لمواضيع القرآن الكريم المحددة لجهاتها (مثلًا النبي ﷺ)، أو تلك المتعلقة بعناوين عامة (مثلًا سنة الابتلاء)، أو تلك التي تستخدم مفردة معينة تضيفها إلى الآية موضع النظر لغاية معينة (مثلًا مفردة "قُل").

الباب الرابع من خمسة فصول: تطبيقات التدبر في مفردات التنزيل، أي ما جاء في وصف القرآن نفسه (مثلًا الفرقان أو النور)، أو في وصف القرآن وغيره (مفردة الكتاب ومعانيها المختلفة)؛ فهذا

الباب يهتم بما وصف القرآن به نفسه.

الباب الخامس من فصلين: تطبيقات عن تفرّد التعبير القرآني، أحدهما عن القرآن في دقته، وثانيهما عن القرآن في حجته المختصرة الحاسمة.

الباب السادس من فصلين: تطبيقات الأمة المسلمة (عترة النبي صلى الله عليه وآله وسلم) في حدّيها: دعاء إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام أولًا ويوم الغدير آخرًا.

الباب السابع من ثلاثة فصول: تطبيقات عن المهدي المنتظر عليه السلام، في فكرته العامة، كما في الإشكالات التي تطرح على عقيدة أهل البيت عليهم السلام في تشخيصه عليه السلام.

الباب الثامن من اثني عشر فصلًا صغيرًا (عدا الفصل الأخير): تطبيقات تناقش آيات القرآن في الثناء على صحابة النبي صلى الله عليه وآله وسلم كما يفهمها معظم المسلمين بطريقة أجدها بعيدة عن الفهم الصحيح، وهو الفهم غير المتكلّف لغاية رفض الفهم السائد، بل هو الفهم الذي ينتج عن التدبر الصحيح، الدقيق أحيانًا، والمباشر بشكل واضح أحيانًا أخرى.

الباب التاسع من فصلين: تطبيقات عن بعض نعم الله تعالى، أحدهما لنعم كبرى تتعلق بالعلاقة بين العبد وربه، وثانيهما يتعلق بنعمة مادية فيها ما يمس الإعجاز العلمي في القرآن الكريم.

فهـذه فصـول أربعـون متنوعـة بشـكل كبيـر، أرجـو أن أكـون قـد وفقـت معهـا فـي الأمريـن: التدبـر المنطقـي لآياتهـا، والعـرض الواضـح لهـذا التدبـر.

أسـال الله تعـالى أن يتقبلهـا بأحسـن القبـول، وإن كانـت جهـدًا متواضعًـا إذا مـا لاحظنـا نعـم الله الظاهـرة والباطنـة التـي نتقلـب فيهـا كل لحظـة مـن وجودنـا، ولاحظنـا مادتهـا وهـي آيـات الكتـاب العزيـز المجيـد العظيـم والـذي هـو بحـق مـن أعظـم نعـم المـولى عـز وجـل علينـا.

والحمـد للـه رب العالميـن والصـلاة والسـلام علـى نبينـا محمـد وآلـه الأطهار.

البَابُ الأَوَّلُ

كيف نتدبر القرآن؟

الفَصْلُ الأوَّلُ

كيف نتدبر القرآن؟

تقديم وأمثلة

تقديم وأمثلة

قال تعالى: ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾[1].

◆ معنى «التدبر»

التدبر في الآية الكريمة وغيرها مطلق، فهو يشمل جميع جوانبها: معناها العام، ومعاني كلماتها، والسياق، واللغة في بلاغتها وسبكها، وفيما إذا كانت من المتشابه الذي يجب رده إلى المحكم، وفيما إذا كان ينبغي الرجوع إلى الأحاديث التفسيرية، كما في العقل القطعي من البديهيات...

◆ تحذير وتنبيه: الفارق بين «التدبر» و«التفسير»

نعم، قال البعض: إن ما ذكرته أولًا هو التفسير، ولكن الحقيقة هي أنه لو كان هذا هو التفسير لما جاء الحث على التدبر عامًّا للجميع، في حين جاء التفسير ليقول ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ﴾[2] والقرآن هو الذكر، أو ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾[3].

---

(١) سورة ص: ٢٩.
(٢) النحل: ٤٣.
(٣) آل عمران: ٧.

فما الذي يمنعني من أن أتدبر في المعاني، أو البلاغة، أو أسباب استخدام هذه الكلمة أو تلك؟

ولكن لأني لست متخصصًا فإن الامتداد إلى مساحة إعلان التفسير الفلاني، ومنه التوصل إلى الحكم الشرعي في مسألة عقدية أو فقهية، لا يجوز إلا لمن امتلك الأدوات اللازمة لذلك...

فالتحذير من ذلك ورد في الرواية «من قال في القرآن برأيه فأصاب فقد أخطأ»[١].

وغيرها مما يحذر من العذاب الأخروي.

◆ «التدبر» هو في الممكن حسب القابليات

فبالجمع بين «التدبر» العام و«اختلاف القابليات والظروف المحيطة بالشخص» يعني «التدبر هو فيما يمكن القيام به» لأن النتيجة تكون: «الاستفادة مما يقرأه الإنسان».

ولا شك في أن لـ «المزاج» دوره في ذلك، المزاج الأدبي، أو العلمي، أو اللغوي، أو التاريخي.

وسأقدم بعض لقطات للإشارة إلى أمرين:

الأول: أن التدبر أمر حث عليه القرآن حثًّا شديدًا، حتى قرّع الذين

(١) صحيح الترمذي ج٥ ص١٩٩ رواية ٢٩٥٢، وسنن أبي داود ج٣ ص٣٢٠ رواية ٣٦٢٥؛ عن بحار الأنوار ج٣٠ ص٥١٢.

لا يقومون بذلك ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾[١].

الثاني: الإعجاز الفريد للقرآن، بمعنى أن هناك أكثر من جانب إعجازي في وقت واحد، إعجاز لغوي، علمي، تشريعي، تاريخي، نفسي إلخ، وهذا عسير جدًّا على غيره...

ولتكن اللقطات من موضوع واحد، فليكن أصول الدين:

أولًا: الأصول الثلاثة: التوحيد والنبوة والمعاد.

ثم ثانيًا: الأصلان المتفرعان: العدل من التوحيد والإمامة من النبوة.

***

◆ **في التوحيد**: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾[٢].

دونك هذه الكلمة القصيرة، وحاول أن تأتي بمعناها بشكل آخر، فأما ستأتي بكلمات أكثر أو أقل، وذلك من البلاغة والغاية في تأسيس العقيدة يكون بما يغايرها قليلًا أو كثيرًا...

فلو قلنا أن: «الآلهة الأخرى ليست آلهة، والإله الوحيد هو الله»... أو: «الآلهة الأخرى مزيفة والإله هو الله وحده»...

العدد الأقل من الكلمات مثل: «الله هو الإله وحده»، فهي أربع

(١) محمد:٢٤.
(٢) سورة محمد:١٩.

كلمات أيضًا؛ ولكنك ستفقد شيئين:

الأول: ذلك الجرس الذي في كلمة «لا إله إلا الله».

والثاني -وهو الأهم-: أنك، أثبت الألوهية لله وحده، ولكنك قبل أن تزيح من قلبك جميع الآلهة المزيفة، وهو ما قامت به الكلمتان «لا إله» إذ نفت، بـ «لا» النافية للجنس، جنس الآلهة، أي قضت على جميع الآلهة، ثم جاءت «إلا الله» لتستثني -بأداة الاستثناء «إلا»- الله الواحد الأحد...

فإن الله لا يدخل في قلب مشغول بعبادة غيره... أو كما كان عمي العارف بالله المرحوم عبد القادر ماهر يقول: «إذا كان ماعونك غير نظيف كيف يضعون لك الطعام فيه؟!»

من هذا، تفهم سر قول النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «ما قُلتُ ولا قالَ القائلونَ قبلي مثل: لا إلهَ إلا الله»(١).

تصور كم عدد الكلمات التي نطق بها النبي صلى الله عليه وآله وسلم والذين من قبله، فهذا الكلم الطيب وما فيه من حكمة وموعظة وبشارة ونذارة وعقيدة وشريعة، قد تسامت على هذا كله كلمة «لا إله إلا الله»...

***

(١) التوحيد للصدوق ص١٨.

◆ في النبوة: ﴿وَأَذَانٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ﴾(١).

وقد قرئت بالنصب «رسولَه» أي «أن الله ورسوله بريئان»... وبالضم «رسولُه» أي «ورسولُهُ بريء أيضًا»، والمعنى واحد وهو البراءة من الله والرسول ﷺ.

فهناك إما «تأخير لكلمة ورسوله»، أو هي «جملة جديدة تعلن براءة الرسول متأخرةً عن براءة الله»... فلماذا لم يقل: «إن الله ورسولَهُ بريئان من المشركين»؟

لنقرأهما ونشعر بالفرق في الانسيابية القرآنية....

فهذا أول فارق - وهو مهم جدًّا حيث كانت هذه الانسيابية تلامس الأوزان الشعرية التي كانوا يطربون لها، كانت تهزهم هزًّا... حتى أنهم كانوا يأتون في الليل إلى بيت النبي ﷺ سرًا...

(نجد الذين يتفاعلون مع القرآن هكذا، كقول المرحوم مصطفى جمال الدين:

تتساءلُ الكلماتُ وهي تقلّه من أين هذا الفارسُ المتفرّدُ؟)

ثم إن تأخير البراءة من الرسول ﷺ ربما تنبههم إلى أن موقف الرسول ﷺ ليس من عنده، ولكنه من عند الله، فهو ﷺ لا يسعه إلا أن يتابعه...

---

(١) براءة: ٣.

(أما إنهاء العهد مع المشركين أول الآية فمن الله ورسوله ﷺ لأنه لا بد أن يكون من المعاهد وهو الرسول ﷺ، ونحن نعرف أنه أرسل بها عليًا عليه السلام).

كما أن الآية لو جاءت بالرسول بعد الله مباشرة لكانت «بريئان»، وهذا يضيف ألفًا ونونًا، واليوم يجد المهتمون الأعاجيب من الإعجاز العددي في القرآن وبضمنه عدد الحروف في الآيات، فلربما حصل فارق يؤثر على الإعجاز الدقيق اللطيف.

***

◆ **في المعاد:** ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ ۞ إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾[١].

أول ملاحظة هي أن النظر يخالف العقل القطعي، الحد، الجهة، الإحاطة باللامحدود...

والتدبر في القرآن ككل يقطع باستحالة الرؤية كما في الآيتين: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾[٢]، و﴿لَنْ تَرَانِي﴾[٣]، وغيرهما، وهما من المحكمات لوضوحهما التام، فيجب البحث عن المعاني الأخرى...

هذه نجدها في القرآن ذاته ﴿وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ

---

(١) القيامة: ٢٢ - ٢٣.

(٢) الأنعام: ١٠٣.

(٣) الأعراف: ١٤٣.

﴿يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ﴾[١]، أو ﴿وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ﴾[٢].

عندها ربما نجد أن ما يعضد هذا الفهم أو ذاك الرجوع إلى أهل الذكر عليهم السلام.

وقد ورد عن مولانا الرضا عليه السلام رده لمن قال برؤية النبي صلى الله عليه وآله وسلم ربه ليلة المعراج: «كيف يجيء رجل إلى الخلق جميعًا، فيخبرهم أنه جاء من عند الله وأنه يدعوهم إلى الله بأمر الله، فيقول: «لا تدركه الأبصار، ولا يحيطون به علمًا، وليس كمثله شيء» ثم يقول: أنا رأيته بعيني، وأحطت به علمًا، وهو على صورة البشر؟! أما تستحون؟! ما قدرت الزنادقة أن ترميه بهذا...»[٣].

إذًا، التدبر منع السقوط في خطأ الاعتقاد بإمكان الرؤية... ثم الذهاب إلى الروايات التفسيرية بعد ذلك أكد الفهم الصحيح الذي يوافق القرآن.

والحال نفسه في الآخرة؛ لأن محدودية الإنسان تبقى، ولا محدودية لله تعالى تبقى كذلك.

وفي حديث الرضا عليه السلام تتمة تشير إلى آية المعراج ﴿لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى﴾[٤]، موضحًا «فآيات الله غير الله»[٥]... كما

---

(١) النمل: ٣٥.

(٢) البقرة: ٢٨٠.

(٣) الكافي للكليني، ج١، ص٩٦.

(٤) النجم: ١٨.

(٥) المصدر السابق.

أوضح أن النبي ﷺ رأى بقلبه ﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى﴾[١].

إذًا، إلى ماذا هي «ناظرة» أي «منتظرة»؟

التدبر يجعلنا ننظر في استخدام «ربها» وليس «إلهها» أو «الله» مثلًا، فإن النظر إلى «الرب» يشير إلى الربوبية التي فيها التدبير والرحمة والعطاء والرزق، فهذا ما يعضد أن المعنى هو «انتظار كرامة أو عطاء الله»، في حين أنه لو استخدم غيرها من لفظ الجلالة أو صفة الألوهية فربما كانت بمعزل عن العلاقة مع البشر. وهذا جاء في الروايات التفسيرية أيضًا.

***

ثم نأتي إلى الأصلين الآخرين:

في العدل الإلهي:... فبدون العدل لا يعود هناك ثقة برحمة الله في الدنيا، ولا بوعده في الآخرة. وأيضًا، العدل يدخل في كل صفة من صفات الله تعالى، فهو العادل في رحمانيته، كما في رازقيته، كما في لطفه، كما في غيرها...

ولكن الشبهة جاءت من الآيات المتشابهة - التي ربما تصدم قارئ القرآن دون تدبر... كقوله ﴿وَإِنْ تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾[٢] أو: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾[٣]، أو حتى الإيمان والكفر ﴿فَيُضِلُّ اللَّهُ

(١) النجم: ١١.
(٢) النساء: ٧٨.
(٣) الصافات: ٩٦.

مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾[١]... فإنها تعني حتى ما يفعله الإنسان، وما يصيبه من خير أو شر، والهدى والضلال، كله من عند الله بشكل مستقل عن إرادة الإنسان.

ولكن رد هذه إلى القرآن يكشف الأمر.... إما بالمعاني الأخرى للمفردة: ﴿وَإِنْ تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ... وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ... قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾: فإن الحسنة تأتي بمعانٍ أخرى مثل: النعم والرخاء والرحمة والخير والشيء الحسن... وهكذا السيئة من معانيها: القحط والكوارث.

أو بسياق الآيات: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾[٢] التي وردت في سياق آيات سورة الصافات في احتجاج إبراهيم عليه السلام على قومه... والله خلقكم وخلق المادة التي نحتّم منها أصنامكم.

أو من الإعلان المختلف: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾[٣]، و﴿أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ﴾[٤]...

بل في الإيمان ذاته يقطع القرآن بحرية الاختيار: ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾[٥]، ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ

---

(١) إبراهيم: ٤.
(٢) الصافات: ٩٦.
(٣) الشورى: ٣٠.
(٤) آل عمران: ٦٥
(٥) البلد: ٨.

﴿فَلْيَكْفُرْ﴾[١]...

ولكن هذا لا يعني أن الإنسان يستطيع الفعل رغمًا على إرادة الله، فإنه تعالى ربما منعه من الفعل لمصلحته أو مصلحة غيره أو غيرها من أسباب، وهذا ما يشرك الله تعالى بالفعل.

كما أن آلات الفعل عند الإنسان هي من خلق الله، وهذا أيضًا يشركه سبحانه في الفعل...

وهذا قول الإمام الصادق عليه السلام: «لا جبر ولا تفويض، ولكن أمر بين أمرين»[٢].

ولكنه لا يجبرك على الخطأ ثم يحاسبك عليه فهو ظلم بيّن ينفيه المزيد من التدبر بالالتفات إلى آيات كثيرة تنفي الظلم **﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا﴾**[٣].

***

في الإمامة: هناك آيات كثيرة في الإمامة كمفهوم، وفي الإمامة كتخصيص في الأئمة من آل محمد صلى الله عليه وآله وسلم، نأخذ منها من الثاني... قوله تعالى: **﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾**[٤] فعند تدبر هذه الآية المباركة نلاحظ:

---

(١) الكهف:٢٩.
(٢) الكافي للكليني ج١ ص١٥٩.
(٣) يونس:٤٤.
(٤) الرعد:٧.

- اختصارها الشديد رغم أنها تتحدث عن النذارة والهداية، وهل أصل السفارة بين الله وخلقه، أي أعلى من تفاصيل المعارف الدينية والشرعية، لأنها الخطوة الأولى؟

- أداة الحصر «إنما» - وهذه لها استخداماتها الرائعة في القرآن (كآيات...)... فالآية كأنما تقول: إن النبي ﷺ هو منذر فقط، ثم أن لكل قوم هاديًا...

هنا تأتي أسئلة، منها:

السؤال الأول: ما معنى حصر مهمة النبي ﷺ بالنذارة دون الهداية، مع أن أطفال المسلمين يعلمون - ومن القرآن - أن الهداية من مهماته ﷺ؟

السؤال الثاني: إذا كان لكل قوم هادٍ، فهل هذا للجماعة أو للمنطقة أو المدة الزمنية؟

السؤال الثالث: كيف نعرف الهادي إذا كانت الآية ساكتة عنه؟ وإذا كانوا مجموعة فمن هم؟

فليس هناك أفضل من أن نرجع إلى النبي ﷺ لنتبين الأمر..

بمراجعة تفسير ابن كثير مثلًا يتبين أن المعني بـ «الهادي» يمكن أن يكون:

«النبي ﷺ»... ويمكن أن يكون «الله»... ويمكن أن يكون «نبي»

أي نبـي... ويمكـن أن يكـون «قائـدًا»... ويمكـن أن يكـون «داعيًـا»... ويمكـن أن يكـون «علـي بـن أبـي طالـب»...

وقد أورد رواية صحيحة تقول: «لما نزلت "إنما أنت منذر ولكل قـوم هـاد" وضـع صلـى اللـه عليـه وسـلم يـده علـى صـدره، فقـال: «أنـا المنـذر ولـكل قـوم هـاد»، وأومـأ بيـده إلـى منكـب علـي، فقـال: «أنـت الهـادي يـا علـي، بـك يهتـدي المهتـدون بعـدي»[١].

ثـم يقـول: «فـلا قـول أولـى فـي ذلـك بالصـواب مـن أن يقـال كمـا قـال جـل ثنـاؤه: إن محمـدًا هـو المنـذر مـن أرسـل إليـه بالإنـذار، وإن لـكل قـوم هاديًـا يهديهـم، فيتبعونـه، ويأتمـون بـه».

هذا صحيح؛ لأن الوجهين الآخرين لا يصحّان...

فـإن تفسـيرها بالنبـي صلى الله عليه وآله وسلم لا يسـتقيم مـع شـطر الآيـة الـذي يحصـر مهمتـه بالإنـذار؟ فمـا فائـدة الحصـر إذًا؟

أمـا أن الهـادي هـو اللـه تعالـى فـي التعبيـر «ولـكل قـوم هـاد»، فإنـه تعبيـر ركيـك أن اللـه هـو الهـادي المنفصـل لـكل قـوم، لأنـه سـبحانه هـو الهـادي للجميـع دائمًـا؟

التعبيـر «لـكل قـوم» لا يصـح منـه إلا «نبـي» أو «قائـد» أو «داعيـة» أو «علـي بـن أبـي طالـب»...

(١) تفسـير ابـن كثير، وابـن حجـر في لسـان الميزان ج٣ ص٣٤، والذهبـي في ميزان الاعتـدال ج١ ص٤٨٤.

ولكن، لماذا هذا التغافل الواضح عن تفسيرها بـ «علي عليه السلام»: هل يعقل أن مفسرًا يقرأ هذا الحديث الشريف، ويورده دون تضعيف، ولا يلتفت إليه كتفسير مميز؛ لأنه يذكر الشخص الهادي باسمه، بحيث لا يذكره عندما يعدد الوجوه عند الخلاصة (كما فعل ابن كثير، ولا عجب من تلميذ ابن تيمية)؟!

لا سيما أن الحديث هو الذي يضع الآية في نصابها الصحيح: فهو يحدد الهادي في الآية أنه علي عليه السلام، وفي نفس الوقت يرفع شبهة حصر مهمة النبي صلى الله عليه وآله وسلم بالإنذار؛ لأنه صلى الله عليه وآله وسلم هو الهادي أيضًا ولكن في حياته لأن عليًا عليه السلام هو الهادي بعده.

أما لماذا لم تصرح الآية كما صرح الحديث؟ فهذا يتعلق بطريقة القرآن في تأكيد دور الأئمة عليهم السلام بشكل يلاحظ ما ستؤول إليه الأمور بعد وفاة النبي صلى الله عليه وآله وسلم مما هو في علم الله قطعًا...

المهم: أن حصر مهمة النبي صلى الله عليه وآله وسلم بالنذارة مع أنها ليست محصورة بها في الواقع يريد من المتدبر أن يتنبه إلى خطورة ما عليه شطر الآية التالي، وهي إمامة علي عليه السلام، وإلا لماذا الحصر؟

أما ما بعد علي عليه السلام: فإذا كان «لكل قوم هاد» فلا بد من أئمة أو قادة أو دعاة آخرين -حسب روايات ابن كثير-، فيأتي البحث فيما إذا كانوا أئمة أهل البيت عليهم السلام أو غيرهم.

وعليه: التدبر جعل القرآن بيدنا، والحديث بيدنا، والعقل والمنطق بيدنا، ولله الحمد.

أخيرًا، عودة إلى الآية الكريمة لتفعيل المنهج:

﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾

«إليك»: من البديهي أن القرآن أنزل إلى النبي ﷺ، إضافة إلى أن الإنزال يشملنا نحن لأن القرآن أنزل إلى الناس جميعًا، فهل هو لتركيز مرجعية النبي ﷺ والتي يقوم القرآن بتركيزها في مختلف السور؟ (التنزيل على النبي ﷺ حصرًا هو «نزلنا عليك الكتاب» وهو الوحي...).

لام التعليل أم لام الأمر في قوله «ليدبروا» و«ليتذكر»/ لام الأمر تجعل التدبر فرضًا واجبًا، في حين أن لام التعليل تجعله أحد أسباب التنزيل.

«ليتذكر»: ثمرة النظر في هذا الكتاب المبارك - عدم الغفلة عن الحقيقة في جميع تفاصيلها...

«أولو الألباب»: ويقوم بذلك أهل العقول، أي الذين يحترمون عقولهم، وإلا فإن الناس جميعًا عندهم عقول...

إذًا: «كتاب عطاؤه مبارك فيه، أنزل إلى السفير بين الله وخلقه، من أجل أن ننظر فيه بتمعن، فننطلق في آفاقه الواسعة، ومن أجل أن لا نسقط في الغفلة، إذا كنا نحترم عقولنا»...

الفَصْلُ الثَّانِي

كيف نتدبر القرآن؟

تفصيل وأمثلة أخرى

الفارق بين التدبر والتفسير والتأويل والبيان

التفسير: هو أن يكون في الكلام لبس وخفاء، فيؤتى بما يزيله. فالتفسير هو البيان والكشف.

القرآن لم يأت بلفظ «تفسير»، إلا في موضع واحد فقط: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾[١].

أما التأويل: فهو الرجوع إلى الأصل (الأول)، وهو رد الشيء إلى الغاية الواردة منه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَطِيعُواْ اللّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾[٢].......... هنا «العلم من الله والرسول هو أحسن تأويلًا».

﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾[٣]. هنا، عملية الكيل دون بخس والوزن بالعدل «أحسن تأويلًا».

وقالوا: التفسير والتأويل بمعنى واحد. والتأويل: تفسير/ توضيح

---

(١) الفرقان:٣٣.
(٢) النساء:٥٩.
(٣) الإسراء:٣٥.

ما يؤدى إليه الشيء، المهم هو أن التأويل هو الوصول إلى الهدف من التنزيل، وهذا ليس متاحًا لكل أحد:

﴿هُوَ الَّذِيَ أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ في قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاء الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاء تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُوْلُواْ الألْبَابِ﴾[1].

ثم هناك «بيان الآيات»:

«بيان الله للقرآن» كما ورد في الآيات: ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾[2].

◆ **بيان النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم**

﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾[3].

ولام «لتبين» لام التعليل، أي أن الهدف من التنزيل هو البيان.

بل كأن التنزيل ما كان إلا لغرض تبيان الأمر في الاختلاف:

﴿وَمَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُواْ فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾[4].

(١) آل عمران: ٧.
(٢) القيامة: ١٩.
(٣) النحل: ٤٤.
(٤) النحل: ٦٤.

ثم هناك آية فيها شيء من الدقة:

﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلاء وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾[1].

ربما يفهم البعض أن قوله تعالى ﴿ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ أن القرآن فيه كل شيء؛ ولكن الآية تقول ﴿نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْء﴾، إذًا فإن «الإنزال عليه ﷺ» هو تبيان لكل شيء، وهذا أقرب لجهة فهم أنه:

١- لا يمكن أن يكون معنى «كل شيء» حرفيًّا لأن القرآن محدود الحجم.

٢- لأن القرآن نفسه أرجعنا إلى النبي ﷺ كما في الآيات الفائتة.

﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾

﴿وَمَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُواْ فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

فحتى لو كان المعنى أن ﴿الكتاب فيه كل شيء﴾ فإن هذا بمعنى وجود الأطر العامة التي وضعها، ومنها:

---

(١) النحل: ٨٩.

مرجعية الله تعالى من خلال القرآن في الآية الصريحة/ وهذا هو دليل الكتاب.

ومرجعية النبي ﷺ من خلال بيانه ﷺ/ وهذا هو دليل السنة.

ومرجعية أولي الأمر/ وهذا هو دليل الكتاب والسنة معًا، لأن «أولي الأمر» استلموا الكتاب كما استلمناه نحن، لأنه محفوظ، واستلموا السنة دون خطأ.

وهنا تأتي الآيات التي تقول بذلك:

﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾[1].

﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾[2].

ومن هنا علمنا أن «أولي الأمر» الذين أمرنا بطاعتهم في الآية المتقدمة ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ هم الذين عندهم القدرة على الاستنباط ودون أي خطأ...

وإلا، فعلى قول أن «أولي الأمر هم حكام المسلمين» تصبح مهزلة، تصوروا حكام المسلمين يستنبطونه!

***

(١) النحل:٤٣.
(٢) النساء:٨٣.

◆ التدبّر

أما التدبر فهو للجميع:

قال تعالى: ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾[(١)].

لام التعليل في «ليدبروا» تعني أن الهدف من التنزيل، أو بعض أهدافه، هو التدبر.

بل إن التدبر أمر حث عليه القرآن حثًا شديدًا، حتى قرّع الذين لا يقومون بذلك ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾[(٢)].

❊❊❊

◆ فما معنى التدبر؟

التدبّر مشتق من د ب ر، ومنه الإدبار، ودبر الشيء، كما في قوله تعالى: ﴿...وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ...﴾[(٣)]، ﴿...فَلَا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ ۞ وَمَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا...﴾[(٤)].

فهذا يعني أن «التدبّر» الذي تحث عليه الآيات هو التوصل إلى ما ينتهي إليه الشيء بحيث كأنك ترى نهايته... وهذا يعني أن القرآن

---

(١) ص:٢٩.
(٢) محمد:٢٤.
(٣) يوسف:٢٥.
(٤) الأنفال:١٥.

يحثنا على أن نحاول تلمس ما تريده الآيات، حتى ولو لم نكن سنقطع بالمعنى...

***

◆ ثمرة التدبر:

هذا الحث الشديد من أجل تحقيق أهداف متعددة:

١- ربط قارئ القرآن بالله تعالى (قول الأديب والشاعر محمد إقبال لابنه «اقرأ القرآن كأنه أنزل عليك»).

٢- ربط المسلم قارئ القرآن بالمصدر الأول للدين بشكل إجمالي.

٣- ربط قارئ القرآن بجميع المعارف بشكل تفصيلي.

٤- تقوية الإيمان من خلال: الإعجاز الفريد للقرآن، بمعنى أن هناك أكثر من جانب إعجازي في وقت واحد، وهذا عسير جدًّا على غيره، حتى ما نجده في حديث النبي صلى الله عليه وآله وسلم أو نهج البلاغة أو الصحيفة أو غيرها... إعجاز لغوي، علمي، تشريعي، تاريخي، نفسي إلخ.

***

◆ كيف نتدبر القرآن؟

كيف نقرأ القرآن قراءة تدبر؟ وهل هناك جوانب مختلفة للتدبر؟

التدبر في هذه الآية الكريمة وغيرها مطلق، وعليه فهو يشمل جميع جوانب الآية، في معناها العام، ومعاني كلماتها، والعلاقة بين الاثنين، والسياق، واللغة المستخدمة في بلاغتها وسبكها، وفيما إذا كانت من المتشابه الذي يجب رده إلى المحكم، وفيما إذا كان ينبغي الرجوع إلى الأحاديث التفسيرية لها، كما في العقل القطعي من البديهيات...

***

◆ الفارق بين «التدبر» و«التفسير»

البعض قال: إن هذا هو التفسير، ولكن الحقيقة أنه لو كان هو التفسير لما جاء الحث على التدبر عامًّا للجميع، في حين جاء التفسير ليقول ﴿فاسألوا أهل الذكر﴾[1] والقرآن هو الذكر، أو ﴿ولا يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم﴾[2].

ولأن علومنا محدودة ولسنا من أهل التخصص فإن الامتداد إلى مساحة إعلان التفسير أو التأويل، ومنه التوصل إلى الحكم الشرعي في مسألة عقدية أو فقهية، لا يجوز إلا لمن امتلك الأدوات اللازمة لذلك...

(١) النحل: ٤٣.
(٢) آل عمران: ٧.

التحذير ورد «من قال في القرآن برأيه فأصاب فقد أخطأ»[١] وغيرها مما يحذر من العذاب الأخروي «فليتبوأ مقعده من النار»[٢].

***

◆ "التدبر" هو في الممكن حسب القابليات

إنه بالجمع بين «التدبر» العام و«اختلاف القابليات والظروف المحيطة بالشخص» نستطيع القول بأن «التدبر هو فيما يمكن القيام به» لأن النتيجة تكون: «الاستفادة مما يقرأه الإنسان».

ولا شك في أن لـ «المزاج» ودوره في ذلك، المزاج الأدبي، أو العلمي، أو اللغوي، أو التاريخي، سيقود القارئ المتدبر إلى النظر في هذا الجانب دون ذاك... وكل ذلك فيه الخير الكثير...

***

◆ أدوات أو جوانب التدبر

هذه الأمور المذكورة أعلاه:

المعنى العام. معاني الكلمات. العلاقة بين الاثنين. السياق. اللغة المستخدمة في بلاغتها وسبكها. المحكم والمتشابه. الأحاديث

(١) صحيح الترمذي ج٥ ص١٩٩ رواية ٢٩٥٢، وسنن أبي داود ج٣ ص٣٢٠ رواية ٣٦٢٥؛ عن بحار الأنوار ج٣٠ ص٥١٢.
(٢) سنن الترمذي، ج٣، ص٣٥٧.

التفسيرية. العقل القطعي من البديهيات... سأتناولها في فصول قادمة على شكل أمثلة توضح كيفية التدبر والفائدة التي ستتحقق...

***

ولكن لنأخذ الآن -كمثال- لغة القرآن التي نزل بها، وهي اللغة العربية:

﴿كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾[(١)].

فصلت آياته: الفصل هو إبانة أحد الشيئين من الآخر حتى يكون بينهما فرجة، ومنه قيل المفاصل.

إذًا، من يقرأ اللغة العربية قد تيسر له أول باب إلى التدبر ومثال الآيات التي نقرأها كثيرًا، وهي أصغر سورة في القرآن الكريم وهي «سورة الكوثر».

قال تعالى: بِسْمِ اللهِ الرَّحمَنِ الرَّحِيمِ ﴿إِنَّا أَعطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ۞ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ ۞ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾[(٢)].

الكوثر: أقرب كلمة هي «الكثرة»، إذًا «إنا أعطيناك الشيء الكثير».

ربك: لماذا ليس إلهك؟ لأن الألوهية بمعزل عن الخلق، بمعنى أن الله تعالى هو الإله قبل الخلق، أما الربوبية فهي الصفة التي تلحظ

---

(١) فصلت:٣.

(٢) الكوثر:١-٣.

العلاقة بالمخلوقين، فهو الرب الذي يديم الحياة والنعمة على خلقه (كما هي كلمة تربية ومربّ وأمثالهما). إذًا، العطاء من «الرب» المنعم المفضل، الذي أعطاك الشيء الكثير، وبذا فـ «صلّ لهذا الرب المنعم، وانحر».

انحر: هذا الأمر يفعله الذي يحتفل أو يشكر على النعمة، نحر الأضحية، نحر العقيقة.

شانئك: من الشنآن، فالشانئ هو المبغض.

الأبتر: أقرب كلمة «البتر»، وهو القطع.

لنلتفت إلى «هو الأبتر»، وليس «الأبتر» فقط، فلو قال «إن شانئك الأبتر» فإنها مجرد صفة، شانئك الأبتر، وربما تكون أنت أبتر أيضًا؛ ولكن لما أضاف «هو» فقال «إن شانئك هو الأبتر» فهو يقول: «إنه هو الأبتر» أي يشير إليه «هو، وليس أنت» بضميمة أن الخطاب مع النبي ﷺ وأن الأمر بالصلاة والنحر شكرًا له ﷺ.

فالمعنى هو: «أنا أعطيناك الشيء الكثير، فقم بالصلاة والنحر شكرًا على هذا العطاء، فإن الذي يرميك بأنك أبتر هو الأبتر، وليس أنت».

وهذا تؤيده الروايات المتظافرة كلها دون أن تشذ واحدة، ومنها ما عن يزيد بن رومان، قال: «كان العاص بن وائل السهمي إذا ذكر رسول الله ﷺ قال: دعوه فإنما هو رجل أبتر لا عقب له، لو هلك

انقطع ذكره، واسترحتم منه، فأنزل الله تعالى في ذلك ﴿إنا أعطيناك الكوثر﴾».

فحتى على الاحتمالات، فإن القارئ يستطيع التفكير في أن هذه الآيات المباركة تتعلق برمي النبي ﷺ بأنه لا أولاد ذكور له، وبالتالي فلا عقب له؛ لأنهم لم يكونوا يعدو أولاد البنات أولادهم (الأمر الذي لا يزال قائمًا!).

ولكن الغريب هو قول بعضهم أن «الكوثر» ذلك الشيء الكثير هو: نهر في الجنة، أو الحوض في الجنة، ثم ربطوا القولين بأن النهر يصب في الحوض....

ولكن: ما علاقة هذا بالسورة؟

الفهم الواضح هو: أن الله تعالى يقول بأن العكس هو الذي سيكون؛ لأننا سنعطيك ما سيكثرك - وهم الأولاد - بينما سينتهي عقب هؤلاء الشانئين بحيث لن يعود هناك من ينتمي نسبًا إليهم.

والدليل على ما أقول هو: أنه لو كان المقصود ليس «أبتر الولد» فإن التعويض يجب أن يكون في الدنيا، وليس في الآخرة؛ لأن لا منافسة هناك بينه ﷺ وبين شانئه. أي إذا كان هو الحوض فإن النبي ﷺ يبقى أبتر حسب تهمتهم له، وهذا يرده القرآن.

فإن التفسير المعقول هو أن: الكوثر هو الذرية عن طريق الزهراء عليها السلام؛ لأن الله تعالى سيعطيه الكثير الكثير من الذرية - ذكورًا وإناثًا -

عن طريق هذه النسمة المباركة، فاطمة عليها السلام، وهي أنثى؛ فلا يضرها كونها أنثى أن يخرج منها الكثير الكثير من الذرية. هذا، في الوقت الذي ستنقطع ذرية الشانئين، فلا يعود هناك من ينمى إليهم. وقد تحقق هذا وذاك.

فلماذا ذهابهم إلى أن الكوثر هو الحوض أو النهر؟

أرى التالي: بما أن هناك حوض النبي صلى الله عليه وآله وسلم الذي ورد في أحاديث عديدة أخبر هو صلى الله عليه وآله وسلم فيها أن رجالًا من أصحابه سيُذادون عنه، فيمنعون من الشرب ثم يقذف بهم إلى النار، فإن المدافعين عن الصحابة بقضهم وقضيضهم وجدوا أن الربط بين الحوض وبين اسم الكوثر طريقة جيدة، بل ممتازة، لضرب عصفورين بحجر واحد: إبعاد الشبهة عن بعض الصحابة، وإبعاد الفضل عن فاطمة عليها السلام.

البَابُ الثَّانِي / الفَصْلُ الأَوَّلُ

أدوات تدبّر القرآن

أدوات تدبّر القرآن

هذا الباب ينظر في «أدوات التدبر» التي اعتمدها، وهي:

أداة اللغة.

أداة مرجعية القرآن الكريم ذاته.

أداة مرجعية رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

أداة مرجعية خلفاء الرسول صلى الله عليه وآله وسلم.

أداة مرجعية العلماء.

أداة مرجعية العقل.

أهمية النظر في «أدوات تدبر القرآن» من جانبين:

الأول/ من أجل توضيح طريقتي في عملية التدبر.

الثاني/ من أجل رد الشبهات التي تطلق باتجاهها.

فحول «أداة اللغة» تطلق شبهة أن «لغة القرآن لا تطابق اللغة العربية»؛ وحول «أداة مرجعية القرآن» من القدم أطلق الإخباريون شبهة أن «القرآن علمه عند النبي صلى الله عليه وآله وسلم والأئمة» وعليه فإن الحديث

هـو المعـول عليـه.

وحـول «أداة مرجعيـة رسـول اللـه ﷺ» فـإن مـن يسـمون أنفسـهم «القرآنيـون» يطلقـون شـبهة أن «الرسـول ﷺ إنمـا هـو ناقـل مبلـغ ليس إلا» أي ليـس مبينًـا.

وحـول «أداة مرجعيـة خلفـاء الرسـول ﷺ» فـإن المسـلمين مـن أهـل السـنة لا يجعلـون لهـم عليهم السلام دورًا متميـزًا واجـب الاتبـاع.

وحـول «أداة مرجعيـة العلمـاء» فـإن السـهام تطلـق عليهـم مـن كل حـدب وصـوب بحيـث يحتـرق الأخضـر بسـعر اليابـس ويتـم حـذف جهودهـم الهائلـة عبـر القـرون إلـى درجـة تكفيرهـم.

وحـول «أداة مرجعيـة العقـل» فـإن الكثيريـن يقولـون: إن عقولنـا قاصـرة عـن إدراك القضايـا الكليـة والتفصيليـة، لذلك نعطي العقـل إجازة، ونتبـع مـا نسـمعه، ونتصـور أنـه صحيـح، فصـاروا «أتبـاع كل ناعـق».

***

أدوات التدبر

١ـ اللغة

◆ القرآن يصرح بأنه عربي

بسم الله الرحمن الرحيم ﴿الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ۞ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾[١].

وعربيته/ عروبته هي في: المفردات وفي قواعد اللغة وفي طرق البلاغة.

◆ معنى المفردات

﴿أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾[٢].

المعنى الصحيح والخطأ الشائع: واضح أن «قد يعلم» تتعلق بـ «لله» قبلها، أي أن الله هو الذي يعلم. ومن الأخطاء الشائعة استخدام

---

(١) يوسف: ١-٢.

(٢) النور: ٦٤.

كلمة «قد» بمعنى «ربما»، بل لعل هذا هو الاستخدام الأكثر شيوعًا مع الفعل المضارع. أما مع الفعل الماضي فإن الاستخدام صحيح، ولكنه في الفصحى، أما العامية فيندر جدًّا أن يقول أحد «قد علمت» أو «قد سافرت» لأن المعتاد هو حذف «قد».

المشكلة ليست عند استخدام «قد» مع المضارع عندما يكون الاحتمال واردًا، مثلًا «قد يعلم فلان الأمر»، فالمعنى ممكن ولو كان الاستخدام خطأ. ولكن المشكلة أنها تستخدم عندما يكون الاحتمال منعدمًا، ومنها هذه الآية؛ لأن الله تعالى لا يصدق عليه احتمال العلم أو عدمه، بل هو يعلم قطعًا.

هناك تصبح معرفة معنى المفردة ضروريّة للمعنى، وذلك بمعرفة أن «قد» هي «أداة تحقيق» أي «تحقق الأمر فعلًا»، وعليه فإن «قد يعلم» تعني «الله يعلم قطعًا». والأمثلة القرآنية متعددة، منها ﴿قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ﴾[١].

قواعد اللغة

﴿وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ﴾[٢].

(١) البقرة:١٤٤.
(٢) البقرة:٥٨.

◆ لماذا نصبت «سجدًّا»؟

دون معرفة أن هناك شيئًا اسمه «حال»، يبين ما عليه الفاعل أو المفعول به، فربما لا يستطيع متدبر القرآن تبين التعبير «وادخلوا الباب سجدًّا»، ولكنه إذا عرف ذلك فإنه سيعلم أن الأمر الإلهي هو الدخول بهيأة «السجود» (على تفصيل في هذا، إذ كيف يدخل الإنسان ساجدًّا؟ أكثر الأقوال أنه «الركوع» لأن السجود نوع من الركوع، ولكنه الأشد. ولكن لماذا لم يقل «ركعًا»؟ ربما الأكثر منطقية القول: إنهم «عندما يصلون الباب، فإنهم يسجدون، ثم يقومون للدخول» فيتحقق الأمران: السجود والدخول).

ولماذا رفعت «حطةٌ»؟

«حطة» مشتقة من «ح ط ط» وهي كلمة مستخدمة قليلًا في الكتابة بالفصحى كما في «حطّت الطائرة»، فكأنما يعتقد أنها كلمة عامية، ولكنها قديمة الاستخدام كما في قول امرئ القيس:

مكرٍّ مفرٍّ مقبلٍ مدبرٍ معًا   كجلمودِ صخرٍ حَطَّهُ السيلُ من عَلِ

في الآية الكريمة يطلبون «حطّ خطاياهم/ ذنوبهم» وذلك لارتباطها بالمغفرة «نغفر لكم خطاياكم»، ولكن إذا كانت اسمًا يقولونه بدلًا من الفعل مثلًا «اللهم احطط خطايانا» فالمتبادر إلى الذهن أنها مفعول به منصوب. ولكن إذا علم أن هناك التقدير في القواعد، فيكون التقدير الممكن «هذه حطة»، فتكون خبرًا لمبتدأ محذوف تقديره «هذه»، ويصبح المفعول به جملة اسمية «هذه حطة».

◆ ولماذا جزم الفعل «نغفرْ»؟

لا توجد أداة جزم -لم، لا، لام الأمر-، ولا أداة شرط، فلماذا الجزم؟ هو جواب شرط لشرط مقدر على ما قبله. المعنى هنا: «إن قلتم حطة نغفرْ لكم»، فالشرط مقدر من كلمة «قولوا حطة»، لأنه أمر إن فعلوه - أي تحقق الشرط - يأتي الجواب «نغفرْ». وهذا كثير في القرآن، ﴿اقتلوا يوسفَ أو اطرحوه أرضًا يَخْلُ لكم وجه أبيكم﴾[(١)]، أي «إن قتلتم يوسف يخلُ لكم»، فيكون الشرط «إن قتلتم» من «اقتلوا» فإن فعلتم يكون الجواب «يخلُ» بحذف واو يخلو.

البلاغة

وهي كثيرة مما وضع تحت قسمي: البيان والبديع، وقد استخدم القرآن الكثير منها، خصوصًا التشبيه والمجاز والكناية. ومن أمثلة الكناية:

﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا﴾[(٢)].

فمن غير المعقول أن الله تعالى يأمرنا بأن لا نرفع أيدينا إلى أعناقنا، فهذا من المباحات الواضحة؛ ومثله أن نبسطها تمامًا؛ وعليه فإن الأمر ليس بلفظه، ولكنه «كناية» عن أمور أخرى، نتلمسها ما

(١) يوسف:٩.
(٢) الإسراء:٢٩.

بين قوله «فتقعد ملومًا محسورًا» والروايات التفسيرية التي أخبرتنا أن الموضوع هو في الإنفاق ما بين البخل والتبذير. فكأن البخيل يقبض يديه عن العطاء، ويقربها إلى جسمه كي لا تذهب إلى غيره، وكلما اشتد ذلك كلما كان أقرب حتى وصلت إلى عنقه (لعل ذلك لأنه مكان خروج الروح، فكأنه يشعر أنه عندما يعطي فكأن روحه تذهب معه!)؛ وأما الذي يعطي إلى درجة غير محسوبة تمامًا تصفها كلمة «كل» في «ولا تبسطها كل البسط» لأنها مفعول مطلق يبين نوع الفعل (المفعول المطلق ثلاثة أنواع: الأول من جنس الفعل، فتقول: «بسطًا»، الثاني نوعه، فتقول: «كل البسط» أو «بعض البسط»، الثالث عدده، فتقول: «مرتين» مثلًا، وهناك ما ينوب عنه، فتقول: «ولا تبسطها كثيرًا» مثلًا). الحالة الأولى -حالة البخل الشديد عن العطاء- تجعلك «ملومًا» عند الناس، وربما كنتيجة «محسورًا» أي خاليًا من صداقتهم وودهم؛ والحالة الثانية -حالة العطاء دون حسابات- يجعلك «ملومًا» عند نفسك، وربما عند الناس أيضًا بعد انهيار أوضاعك المعيشية، و«محسورًا» من المال الذي يقيم حياتك.

***

٢ـ مرجعية القرآن الكريم نفسه

◆ الآيات المحكمات

﴿بسم الله الرحمن الرحيم سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾[(١)].

إذًا، هناك آيات «بينات» أي مبينة واضحة نستطيع استجلاء المعنى المطلوب منها، وهذا قسم كبير من القرآن.

◆ القرآن مع القرآن

ولكن هناك آيات تحتاج معرفة مراميها إلى استخدام آليات مختلفة:

◆ الآيات والمفردات

﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ۞إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾[(٢)].

﴿لاَّ تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾[(٣)].

﴿وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ﴾[(٤)].

---

(١) النور: ١.
(٢) القيامة: ٢٢-٢٣.
(٣) الأنعام:١٠٣.
(٤) النمل:٣٥.

إن مفردة «ناظرة» الواردة في القرآن الكريم بمعنيين هي التي رفعت المشكلة في التناقض الظاهري بين آية القيامة وآية الأنعام: كيف يمكن «النظر» إلى المولى عز وجل في حين هو «لا تدركه الأبصار»؟ فآية النمل تجعل المعنى «منتظرة». ولكن «تنتظر» ماذا؟

هنا يأتي دور مرجعية العلماء الوارثين من آل محمد صلى الله عليه وآله وسلم، فيعلمنا الإمام الرضا عليه السلام أنها «منتظرة عطاء الله ورحمة الله وكرامة الله» جزاء لها على فعلها في الدنيا.

وهذا يناسبه تمامًا استخدام «ربها» وليس «إلهها» مثلًا؛ لأن العطاء مرتبط بالربوبية (في حين أن الألوهية سابقة للخلق والربوبية).

◆ السياق أو المناسبة أو الموضوع لعدة آيات

﴿غُلِبَتِ الرُّومُ۝فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُم مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ۝فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِن بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ﴾[١].

هنا السياق واضح في مدخليته في الفهم؛ لأن الآيات مترابطة فيما بينها بوضوح. وبالإضافة إلى ذلك، فإن الكتاب العزيز يستمر في عطائه حتى مع فصل الآيات متحدة السياق - «غلبت الروم» معلومة تاريخية يمكن الاستفادة منها وحدها؛ «في أدنى الأرض» فينظر في المكان الذي وصفه بـ «أدنى الأرض»، وكيف أن «أدنى» لا يمكن أن

---

(١) الروم: ٢-٤.

تعني «الأقرب» لأن السؤال عندها يبرز: أقرب لمن؟ وعليه، فالمعنى الأفضل لـ «أدنى» هو «الأوطأ»، وهذا من الإعجاز القرآني الذي أخبر أن تلك المنطقة، منطقة البحر الميت هي أوطأ ما في الأرض اليابسة نسبة إلى سطح البحر؛ ثم معلومة أخرى فيها نبوءة ﴿وَهُم مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ﴾ يمكن أخذها وحدها كاملة؛ ثم تأتي الإضافة إلى تلك المعلومة «في بضع سنين» لننظر هل حقًا أن ذلك تحقق في مدة ما بين الثلاث والتسع سنين التي تحددها «بضع»؛ هذا إضافة إلى الإشارة إلى الإطار الأعظم في قضايا المشيئة الإلهية «لله الأمر من قبل ومن بعد».

◆ عدم مناسبة موضوع بعض الآية الواحدة

﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالْدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُواْ بِالأَزْلاَمِ ذَلِكُمْ فِسْقٌ الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن دِينِكُمْ فَلاَ تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِينًا فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ فَإِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾(١).

فإنه من غير المعقول أن «يأس الكافرين من الدين»، أي انقطاع أملهم بالقضاء على الإسلام قد تحقق؛ لأنه قد حرمت الميتة ولحم الخنزير وغيرهما مما ذكره صدر الآية؟

---

(١) المائدة:٣.

ولا أن ذلك مدعاة لعدم الخشية منهم؟

ولا أن هذا فيه «إكمال الدين وإتمام النعمة»؛ أولًا لأن هذه المحرمات نزل تحريمها في آيات أخرى سابقة على الآية المباركة التي روي أنها نزلت في حجة الوداع على قول أهل السنة، أو يوم غدير خم على قول الشيعة، أي على القولين فهي قبل ثلاثة أشهر أو أقل من وفاة النبي صلى الله عليه وآله وسلم - أرواحنا فداه -؛ ثانيًا لأن إكمال الدين وإتمام النعمة لا يكون في أمور فرعية يمكن أن لا يقع فيها ابتلاء أصلًا، فإن هذه المحرمات يمكن أن لا تكون في سوق المسلمين مما يؤكل مدة عمر الإنسان؛ ثالثًا أن إكمال الدين وإتمام النعمة، أكثر منه «رضا الله تعالى بالإسلام دينًا» لا بد أن يكون متعلقًا بالـ«إسلام» بالمعنى العام من التسليم لله تعالى في كل شيء، وهذا لا بد أن يتعلق بالتسليم للأمر والنهي كله، الأمر الذي نجده صادقًا عند ربطه مع ولاية أهل البيت عليهم السلام التي نزلت في غدير خم، وليس في مسائل فرعية تمامًا.

أما لماذا جاء هذا الشطر من الآية في وسطها فهو موضوع آخر طويل يتناول جمع القرآن ونزوله، وفيما إذا كان هذا هو بالضبط كما أمر النبي صلى الله عليه وآله وسلم في حياته أن يكتب أم هو مما لم يأمر به، فإن هناك اختلافًا في ذلك.

***

٣ـ مرجعية رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم

◆ بصفته الرسولية

﴿وَأَطِيعُواْ اللّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَاحْذَرُواْ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُواْ أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلاَغُ الْمُبِينُ﴾[١].

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَى مَا أَنزَلَ اللّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا﴾[٢].

﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُواْ شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا إِلاَّ لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلاَّ عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللّهُ وَمَا كَانَ اللّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللّهَ بِالنَّاسِ لَرَؤُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[٣].

هذه الطاعة الثانية المستقلة عن الطاعة الأولى لله تعالى تعني إعطاءه صلى الله عليه وآله وسلم استقلالية أكبر في هذا، وبالتالي هي أكبر من طاعته في تبليغ النص القرآني ﴿أطيعوا الله ورسوله﴾[٤]، وأكبر من تلك التي تعطيه استقلالية قليلة ﴿أطيعوا الله والرسول﴾[٥] التي كأنما هي طاعته صلى الله عليه وآله وسلم في تبيان النص القرآني، فربما تكون هذه «وأطيعوا

---

(١) المائدة: ٩٢.

(٢) النساء: ٦١.

(٣) البقرة: ١٤٣.

(٤) الأنفال: ٤٦.

(٥) آل عمران: ٣٢.

الرسول» طاعته فيما أوحي إليه من غير النص القرآني. والآية تحذر من رفض هذه الطاعة، وترفع عنه ﷺ التقصير بقولها أن مسؤوليته هي: البلاغ لما أوحي إليه من قرآن أو من خارجه من الحكمة أو التعليم المتنوع أو الرؤيا وغيرها إضافة إلى أنه المبين الواضح الذي يجعله مفهومًا لكم لتؤمنوا به دون عناد.

وممّا يدعم هذا الآية الثانية، فإنها تدعوهم إلى: «ما أنزل الله» وهو نص القرآن، وتدعوهم «إلى الرسول» فبالتأكيد هو غير النص. ثم تصف من يصد عن ذلك بالنفاق، والعياذ بالله. أي أن من يرفض مرجعية الرسول ﷺ فيما عدا نص القرآن يسقط في قسم النفاق.

ويستمر الدعم القرآني لهذه المرجعية القاطعة لرسول الله ﷺ عندما يصرح أن السبب في تغيير اتجاه القبلة من الكعبة المشرفة إلى بيت المقدس إنما كان لاختبارهم. فإن الأمر كان شديدًا عليهم؛ أولًا لأنهم يعظمون البيت الحرام أساسًا، ثانيًا كانوا يصلون إليه بعد الأمر بالصلاة، ثالثًا لأن اليهود صاروا يستهزئون بهم، ويقولون لهم: إن هذا يثبت أن الأصل إنما هو الدين اليهودي؛ لهذا كان الأمر شديدًا على رسول الله ﷺ، فكان يقلب وجهه الكريم في السماء. وهذه الآية الثالثة في أعلاه تثبت أن الأمر إنما كان ليخرج الله تعالى (لأنه «لنعلم» ليس عن جهل منه سبحانه، ولكن ليخرج لهم، فيقيم عليهم الحجة) بما في دواخلهم من حقيقة البخوع للأمر الإلهي باتباع الرسول ﷺ مطلقًا كائنًا ما كان الأمر، مسميًا من يخالف بأنه «ينقلب على عقبيه» نفس الوصف لما حصل لهم يوم أحد ونفس

الوصف الذي حذرهم منه بعد موته ﷺ وبما أشارت إليه الزهراء عليها السلام في خطبتها لتصف ما فعلوه من ضرب الأمر الرسولي عرض الحائط. وتقول الآية: إن الذين لم يحتملوا تغيير القبلة كانت كبيرة عليهم، ولكنها ليست كذلك على «الذين هدى الله».

◆ بصفته النبوية

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾(١).

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَابِيبِهِنَّ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾(٢).

والصفة النبوية تتعلق بالأمور الإدارية والإجرائية منه ﷺ كرئيس للدولة ومنظم لشؤون المجتمع الوليد. وحتى في هذه، يجعل القرآن له ﷺ مقامًا مختلفًا عن الناس جميعًا، فيأمر بعدم رفع الصوت فوق صوته ﷺ ولا غير ذلك؛ لأن هذا من شأنه ليس فقط إزعاجه ﷺ أو عدم احترامه، ولكنه ينتج «تحبط أعمالكم» والعياذ بالله في الوقت الذي أنتم لا تعدون ما تفعلونه شيئًا مهمًا.

كما نجده في إصدار الأمر الإلهي في هذه الشؤون من خلال النبي

---

(١) الحجرات:٢.
(٢) الأحزاب:٥٩.

ﷺ، وليس مباشرة، كما في الآية الثانية التي لم تقل «يا نساء النبي وبناته إلخ ادنين عليكن إلخ» ولكن جعلته أمرًا يصدر منه ﷺ. واللافت أن هذه الجزئية في اللباس الشرعي للنساء جاء بشكل أمر نصيحة واجبة من خلال النبي ﷺ في حين أن الأمر في الجزئية الأخرى -وهي تغطية الصدر والرقبة بلف الخمار عليهما- جاء من الله مباشرة «وليضربن بخمرهن على جيوبهن»، والذي يمكن أن نستفيد منه أن الأول إنما يتعلق ببعد واحد، وهو حماية النساء من الأغراب، في حين أن الثاني يتعلق بهذا البعد كما يتعلق بالبعد الآخر، وهو حماية الرجال والنساء معًا من الفتنة.

◆ بصفته البشرية

﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَآئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلاَلَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُواْ بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُواْ النُّورَ الَّذِيَ أُنزِلَ مَعَهُ أُوْلَـئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾(١).

﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا﴾(٢).

---

(١) الأعراف: ١٥٧.
(٢) الأحزاب: ٣٧.

حتى في صفته البشرية ﷺ فإن له مقامًا خاصًا يندرج في مرجعية عامة من الاتباع والتأسي والنظرة العامة إليه ﷺ. ففي الآية الأولى تذكر «الرسول» ثم «النبي» ثم تذكر «الأمي» أي الصفة البشرية، أي الرجل من أهل مكة (أو العرب عمومًا) وهو وصف الأميين كما في آيات أخرى. وإذا ما كانت الصفتان الأوليتان يأتي معهما صفات «آمنوا به» و«نصروه» و«اتبعوا النور الذي أنزل معه» فإن الصفة الثالثة، البشرية، يأتي معها «وعزروه» أي احترموه، والاحترام ممتد في جميع الحياة في حين أن النصرة تكون في مقاطع منها فقط، والاتباع يكون في مقاطع منها فقط مهما امتدت في الحياة اليومية.

وهكذا قضية تطليق زيد بن حارثة (رض) من زينب (رض) (التي كانت ممتعضة من الزواج منه أصلًا كونه كان عبدًا مملوكًا تبناه النبي ﷺ في الأصل حتى كان يسمى زيد بن محمد، وهي ابنة عمة النبي ﷺ) فإن هذه العلاقة البشرية ما كان يمكن كسر القيود عليها من المجتمع إلا بأن يتعرض إليها النبي ﷺ على الحرج الشديد الذي فيها بحيث كان يطالب زيدًا أن يصبر. ومن ذلك نستطيع أن نفهم أن لمحمد بن عبد الله ﷺ مرجعية بصفته البشرية؛ لأنه صار واجبًا على الجميع أن لا يسيروا مع ذلك العرف بأن لا يتزوجوا أزواج أبنائهم بالتبني، الأمر الذي يمتد ليشمل أي أمر آخر يحب الإنسان المسلم أن يهتدي به بهدي النبي ﷺ فيما صغر أو كبر من مثل هذه الأمور.

***

٤ـ مرجعية خلفاء الرسول صلى الله عليه وآله وسلم

◆ من خلال مرجعية القرآن

﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾[(١)].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَطِيعُواْ اللّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً﴾[(٢)].

روايات تفسير ابن كثير وحده ١٠ روايات في أن الآية نزلت في علي بن أبي طالب عليه السلام عندما دخل رجل مسجد النبي صلى الله عليه وآله وسلم يطلب المساعدة، وكان علي عليه السلام يصلي في حالة الركوع، فأشار إلى الرجل بيده ليأخذ الخاتم الذي كان يلبسه، ففعل الرجل، ونزعه من يده؛ علمًا أن ابن كثير هذا تلميذ ابن تيمية، وهو أشد الناس انحرافًا عن علي عليه السلام وولده عليهم السلام وشيعته (لهذا تجدون تفسير ابن كثير هو الأوسع انتشارًا منذ عقود، حاله حال الكتب التي تروجها الوهابية بعد أن شاء الله تعالى أن يسلطها على المسلمين ليعلم من يتبع الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ممن ينقلب على عقبيه، والحمد لله على الهداية). ولهذا تجدون ابن كثير يروي الروايات، ولكنْ لا يستطيع ترك بعضها

---

(١) المائدة:٥٥.

(٢) النساء:٥٩.

دون تعليق، فيقول في واحدة منها «وهذا إسناد لا يُفرح به»! أي أيها الشيعة لا تفرحوا بهذه الرواية التي تثبت أن الآية نزلت في صاحبكم عليه السلام!

المهم، الآية واضحة وضوح الشمس في حصر الولاية، بأداة الحصر «إنما»، في الله تعالى أولًا، ثم الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ثانيًا، ثم علي عليه السلام ثالثًا (لأنه إذا كانت الآية عامة، فإن أي إنسان يستطيع أن يتصدق أثناء الركوع، فيصبح وليًا للمسلمين، وعندها تصبح المسألة مشاعًا لكل من هب ودب، فتزيد على الحالة المزرية التي نحن عليها أصلًا في جعل الأمر مشاعًا لكل من استطاع التسلط، بالسيف أو الرمح أو الدبابة والطائرة فيما بعد).

وبما أنها «ولاية» أولًا وموصلة بولاية الله ورسوله صلى الله عليه وآله وسلم ثانيًا، فإنها تستبطن مرجعية اتباع شرعية، وعلى رأس جوانبها في تفسير كتاب الله تعالى.

وهذا هو الذي تجمعه الآية الثانية أعلاه: الولاية مع الأمر، وتأمر بالطاعة المطلقة. وإلا، فإنه على تفسير «ولاة الأمر» بالحكام يصبح الأمر الإلهي بطاعة المنافقين والفاسقين والمجرمين والظالمين والمنحرفين، وهذا محال على الله تعالى أن يأمر به.

◆ من خلال مرجعية الرسول صلى الله عليه وآله وسلم

حديث الغدير: «مَنْ كُنْتُ مَولاهُ فَهذا عَلِيٌّ مَوْلاهُ؛ اللهُمَّ والِ مَنْ والاهُ وَعادِ مَنْ عاداهُ»[١].

مثلما انطلقت المرجعية الرسولية النبوية من القرآن فإن مرجعية ولاة الأمر الشرعيين انطلقت من القرآن في الأصل -كما في الآيتين أعلاه- ثم انطلقت من المرجعية الرسولية التي قلنا: إنها واجبة الطاعة بنص القرآن الكريم. هذه المرجعية بينت لنا مراد الكتاب العزيز من «أولي الأمر» أو «الأولياء» من آية إعطاء الزكاة أثناء الركوع (ناهيك عن غيرها من آيات) في أحاديث كثيرة، منها الحديث أعلاه الذي جمع عناصر متعددة:

- حدث عام شارك فيه أكبر عدد من التجمع المسلم في حياة النبي صلى الله عليه وآله وسلم بعد أن خرجوا من مكة بعد حجة الوداع.

- خطبة نبوية رسولية تربط الحديث أعلاه بأصول الدين وبتقدم ولاية الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وعلينا على ولايتنا نحن على أنفسنا.

---

(١) مصادر الحديث كثيرة، رواها أصحاب كتب الحديث الشريف وتفسير القرآن والتاريخ؛ من المحدثين الإمام أحمد بن حنبل في مسنده ج٤ ص٢٨١، والبيهقي في سننه في ج١٠ ص١٤، والبخاري في تاريخه ج١ ص٣٧٤ رواية ١١٩١ وج٤ ص١٩٣ رواية ٢٤٥٨ وج٦ ص٢٤٠ رواية ٢٢٧٧، ومن المفسرين الطبري في تفسيره ج٣ ص٤٢٨، والثعلبي في تفسيره، والفخر الرازي في تفسيره ج٣ ص٦٣٦، ومن المؤرخين ابن عساكر في تاريخ دمشق من في الأجزاء ١٣ و١٨ و٢٥ و٤٢، وفي سير أعلام النبلاء من طرق عديدة منها ج٨ ص٣٣٤ وج١٣ ص٣٤٠ وج١٩ ص٣٢٨.

- تطلب بعد هذا إعلان الطاعة بالبيعة لعلي عليه السلام.

- على أساس أن الولاية التي كانت للرسول صلى الله عليه وآله وسلم علينا امتدت الآن لعلي عليه السلام.

- كما حصل مع الآيات القرآنية التي تحذر من عصيان طاعة المرجعية الرسولية فإن صاحب المرجعية الرسولية يدعو الله تعالى أن يوالي من يوالي الولي المشخص علي عليه السلام، ويعادي من يعاديه.

◆ من خلال الجمع بين المرجعيتين القرآنية والرسولية

حديث المنزلة: «أنتَ مِنِّي بِمَنزِلَةِ هارُونَ مِنْ مُوسى، إلا أَنَّهُ لا نَبِيَّ بَعدِي»[١].

آية: ﴿وَاجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ۞ هَارُونَ أَخِي ۞ أُشْدُدْ بِهِ أَزْرِي ۞ وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي﴾[٢].

يخبرنا النبي صلى الله عليه وآله وسلم أن منزلة علي عليه السلام منه كما كانت منزلة هارون عليه السلام من موسى عليه السلام، ولا يستثني منها إلا النبوة، ولكنه لا يقول لنا: إنها تستبطن ما يلي كذا وكذا؛ لذا نذهب إلى القرآن الذي قص علينا

---

(١) فتح الباري ج٧ ص٦٠، وطبقات ابن سعد ج٣ ص٢٤، وتاريخ دمشق لابن عساكر ج٤٢ ص١٨٦، وأنساب الأشراف للبلاذري ص٩٦، مسند أحمد الحديث ٥٩٧٢، أيضًا ابن عساكر في تاريخه ج١٣ ص١٥٠ وج١٨ ص١٣٨، وصحيح مسلم ج٧ ص١٢٠، وسنن ابن ماجة ج١ ص٤٥ رواية ١٢١، وسنن الترمذي ج٥ ص٣٠٣ رواية ٣٨١٣ و٣٨١٤، وفضائل الصحابة للنسائي ص١٣ وغيرهم.

(٢) طه:٢٩-٣٢.

خبر هارون وموسى عليه السلام، لنجد أن هارون عليه السلام كان: وزيرًا والعضد والشريك في الأمر (يمكن أن نضم «الأخوة» على اعتبار أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم آخى بينه وبين علي عليه السلام في مكة، ثم نفس الشيء في المدينة كاستثناء فرد؛ لأن مؤاخاة المدينة كانت بين كل مهاجر وأنصاري؛ ولكن للمعترض الحق أن يقول: إن هارون عليه السلام كان أخًا لموسى عليه السلام من أب وأم ولم يكن علي عليه السلام كذلك).

الوزير مستشار ومساعد ونائب ومؤد على النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وكان علي عليه السلام كذلك.

العضد «اشدد به أزري» لا نعلم أحدًا شد أزر أحد كما فعل علي عليه السلام مع النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وهذا من الواضحات التي لا تحتاج إلى بيان.

ولكن «أشركه في أمري» كيف يكون، وكان هارون عليه السلام شريكًا في تبليغ الخطة الإلهية مع موسى عليه السلام إلى فرعون، وعلي عليه السلام ليس نبيًا؟ إذًا لا بد أن تكون الشراكة في التبليغ عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم من بعده، الأمر الذي أوضحه النبي صلى الله عليه وآله وسلم في الكثير مما روي عنه كما في نص الغدير الذي يشكل الإعلان الأخير، وليس الوحيد.

***

٥ ـ مرجعية العلماء

◆ من خلال مرجعية القرآن

﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً فَلَوْلاَ نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُواْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾[١].

العلماء يتعرضون اليوم إلى حملة من جهات متعددة، بعض تفاصيل الحملة صحيح فيما يخص تحجر بعض العلماء، أو عدم قيامهم بما ينبغي من العطاء الفكري المطلوب أو العطاء العملي المنتظر منهم، أو في مواقفهم السلبية تجاه الظالمين أو تجاه المظاهر السلبية في المجتمع، أو حتى في شؤون أخرى لا تنتظر منهم. ولكن الحملة ظالمة في حق الكثيرين منهم، كما هي ظالمة في حق الإطار العلمائي؛ لأنه من غير المعقول أن نتقبل قول هذا وذاك ممن لا نعرف قدراتهم الذهنية ولا دواخل نفوسهم ونواياهم ولا مستوى معارفهم في الوقت الذي نرفض قول العلماء العاملين المجاهدين الذين وقفوا حياتهم فعلًا في خدمة الدين.

وبغض النظر عن هذا، القرآن الكريم ينص على أن القضية العملية الواقعية هي في وجود جماعة قليلة تأخذ على عاتقها – بعد التعلم والتخصص في الأمور الدينية – تعليم الناس وتوجيههم وحل مشاكلهم من خلال الشريعة.

(١) التوبة: ١٢٢.

◆ **من خلال مرجعية الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وخلفائه عليهم السلام**

روي قول الرسول صلى الله عليه وآله وسلم: «الفقهاء أُمناء الرسل ما لم يدخلوا في الدنيا، قيل: يا رسول اللّه ما دخولهم فيها؟ قال: اتباع السلطان، فإذا فعلوا ذلك فاحذروهم على دينكم»(١).

روي قول الرسول صلى الله عليه وآله وسلم رواية عن الكاظم عليه السلام: «سائلوا العلماء، وخالطوا الحكماء، وجالسوا الفقراء»(٢).

هذه نصوص تجعل للعلماء المكانة العليا السامية في ائتمانهم على ما بلغه المرسلون عليهم السلام، وهذا من خلال تعلمهم ذلك البلاغ الرسولي من أجل تبليغه إلى الناس؛ لأن المسألة عملية، وليست فكرية بحتة، فالعلم يجب أن يتبعه بذله ونشره. ولكن بما أن العلماء غير معصومين فلا يؤمن منهم الخطأ والخطيئة وجب التحذير، فكان المعيار «ما لم يدخلوا في الدنيا»، وهذا الدخول تعرفه هذه الرواية أنه «اتباع السلطان»، ثم تأمر بالحذر على الدين منهم؛ لأن مثل هؤلاء من شأنهم تخريب الدين، وهو حاصل من بعضهم كما نشهد كل يوم.

الرواية الثانية تأمر بسؤال العلماء «سائلوا العلماء». صحيح أن هذا تحصيل حاصل؛ لأن الجاهل لا بد أن يرجع إلى العالم وإلا سيخبط في دينه خبط عشواء، وهو محاسب في هذا أمام

---

(١) بحار الأنوار للمجلسي ج٢ ص٣٦ رواية ٣٨.
(٢) بحار الأنوار للمجلسي ج٧١ ص١٨٨ رواية ١٤.

الله تعالى، ولكن واجب الأئمة عليهم السلام التأكيد على هذا لكيلا يقول أحد: إني أقول، وأعلم، وأفتي، وهو خلو من الملكات أو الإمكانيات أو المعارف اللازمة.

***

٦ـ مرجعية العقل

◆ من خلال مرجعية القرآن

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِّأُوْلِي الألْبَابِ ۞ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىَ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾(١).

﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ الأَلْبَابِ﴾(٢).

كم وردت الإشارات والتنبيهات إلى دور العقل في القرآن الكريم، وبأساليب متعددة، منها الآية الأولى ومثيلاتها التي تصف حال البعض في توجههم السليم لمعرفة الحق والخلق، فيذكرون الله، ويتفكرون في خلقه ليصلوا إلى نتيجة أن هذا لم يكن باطلًا عبثًا، فيؤمنون بالمعاد

---

(١) آل عمران: ١٩٠-١٩١.
(٢) الرعد: ١٩.

بعد أن آمنوا بالله تعالى؛ ثم تقول: إن هؤلاء هم «أولو الألباب» - أي العقول؛ لأن المقام مقام ربط مع «يذكرون» الذي فيه الجانبان النفسي والعقلي و«يتفكرون» الذي فيه الجانب العقلي.

كما تمدح الذي «يعلم أنما أنزل» إلى النبي ﷺ من ربه هو «الحق» المطلق، مقارنة مع من تصفه بالعمى «كمن هو أعمى» والذي لا شك في أنه عمى البصيرة لا عمى البصر؛ لأن الآية تضعه قبالة العلم: «أفمن يعلم» «كمن هو أعمى». ثم تجعل «التذكر» محصورًا بـ «أولي الألباب»، فكأن «الغافلين» - الذين «لا يتذكرون» - لا يملكون عقولًا يستحقون معها وصفهم بها.

فهذا التشديد على العقل في القرآن يجعل له مرجعية حاسمة، بل هي المرجعية المندسة في غيرها؛ لأن المرء إنما ينظر فيما نزل في الكتاب الآمر بمرجعية القرآن، ومرجعية الرسول ﷺ، ومرجعية أولي الأمر عليهم السلام، ومرجعية العلماء، من خلال التفكير والفهم والتحليل واستخلاص النتائج.

◆ من خلال مرجعية الرسول ﷺ وخلفائه عليهم السلام

روي حديث رسول الله ﷺ: «لمّا خلق الله العقل، قال له أقبل فأقبل، ثم قال له أدبر فأدبر... بعزّتي وجلالي ما خلقت خلقًا أعزّ عليّ منك... إيّاك آمر وإيّاك أنهى، وبك أثيب، وبك أعاقب»(١).

(١) بحار الأنوار ج١ ص٩٧ رواية ٥.

وعنه ﷺ: «لا فقر أشدُّ من الجهل، ولا مال أعود من العقل»[١].

وعن علي عليه السلام: «إن الشقيّ من حرم نفسه ما أُوتي من العقل والتجربة»[٢].

يخبرنا رسول الله ﷺ بقضية حصلت قبل خلقنا، وهي خلق العقل، وكيف أن الله تعالى جعله «أعز الخلق»، وكيف أنه يصدر الأمر والنهي له، ويجعل الثواب والعقاب عن طريقه؛ لأن الأمر والنهي ينزل إلى العقلاء المميزين، فلا أمر ونهي للمجانين أو الأطفال غير المميزين أو الفاقدين لقواهم العقلية لمرض أو حالة مؤقتة كالنوم، وعليه فالأمر والنهي ينزل إلى العقل.

كما أن الثواب والعقاب يأتي نتيجة لما قرره الإنسان في تعامله مع الأمر والنهي، استمع إليه، نظر فيه، قبله أو رفضه، خضع له أو عصاه.

إذًا، المبدأ من العقل والمنتهى إليه، في تحديد الموقف.

الحديث الثاني يجعل العقل هو الغنى الأعظم، فعادته أكبر من غيره «لا مال أعود من العقل»؛ هذا مقابل الجهل الذي هو الفقر الأعظم؛ لأنه لا يوجد فقر أشد لصوقًا بصفة الفقر من الجهل.

أما حديث علي عليه السلام فينبهنا إلى قضية «التجربة» التي يجعلها مما «يؤتاه الإنسان» لأنه ما من إنسان منذ الطفولة الأولى إلا وهو

(١) الكافي ج١ ص٢٥.
(٢) نهج البلاغة الكتاب ٧٨.

يتعلـم كل يـوم مـن التجـارب الكثيـرة جـدًّا، وهـذا يضيـف إلـى رصيـده في التمييز بين الأشياء، فـإذا أضفـت إليهـا العقـل صـار عنـده آلـة التمييز الصحيح، فـإذا مـا فشـل فـي اسـتثمارهما - العقـل والتجربـة - فإنـه ينـال صفـة «الشـقي». وهـذا مـا نجـده عنـد مـن تبسـط أمامـه الأمـور بوضـوح ولكنـه يفشـل فـي الاسـتفادة منهـا.

وهكـذا، فـإن مرجعيـة العقـل تنطلـق مـن هـذه الصفـات الهائلـة التـي يفتـرض أن نعلمهـا بداهـة.

***

٧ـ إطار المنهج الصحيح

النظر وجمع المعلومات

◆ في الأطر العامة

﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾[١].

السنن العامة، في الإنسان، والمجتمع، والخلق كله.

(١) آل عمران: ١٣٧.

◆ **وفي التفاصيل**

﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[١].

المعالم العامة للخلق والعلاقات بين المخلوقات بما يشير إلى وجود الخالق، ثم إلى صفاته كعالم مقتدر مهيمن رازق رحمن رحيم والصفات الربوبية الأخرى، ممّا يستفاد منه الإشارة إلى إثبات القدرة على إيجاد العالم الآخر فالحساب فالعدل فالثواب والعقاب.

◆ **وفي تفاصيل التفاصيل**

﴿وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾[٢].

من أمثال هذه الآية الكريمة ما يوجه النظر إلى الدقة في الخلق، والحكمة من ورائه، وعظيم رحمة الله وديمومة المخلوقات منه حصرًا.

---

(١) العنكبوت: ٢٠.
(٢) الرعد: ٤.

سؤال العلماء

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾[(١)].

قول الرسول صلى الله عليه وآله وسلم عن الكاظم عليه السلام الوارد آنفًا: «سائلوا العلماء، وخالطوا الحكماء، وجالسوا الفقراء».

وهو على بداهته مطلوب كذكر للناس، لأن البعض ربما يطغى ويظن أنه مستغن عن السؤال والتثبت مما يعلم أو اكتشف أو جرب؛ كما هو يستبطن النظر في تشخيص العلماء الذين ينبغي التوجه إليهم.

◆ التفكر والبحث

﴿قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾[(٢)].

عن الإمام الصادق عليه السلام: «تفكّر ساعة خير من عبادة سنة»[(٣)].

هذه الآية العظيمة (التي ستأتي في فصل قادم عن «قل» و«ربما») تعظ الناس بالقيام لله، أي بنية تحصيل العلم من أجل تقوية العلاقة بالله، وفي إطار الفرد إذا كان يملك الإمكانيات الذهنية لذلك، أو في

(١) النحل: ٤٣.
(٢) سبأ: ٤٦.
(٣) تفسير العياشي ج٢ ص٢٠٨.

المباحثة مع شخص آخر يثق في نيته وإمكانياته.

هذا التفكر في ساعة واحدة أفضل من عبادة سنة كاملة، لأن التفكر يقود إلى العبادة في حين أن العبادة التي صارت عادة ربما لا تنشئ فكرًا أو علمًا أو حتى قربًا من الله تعالى.

◆ لا عناد!

﴿وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَى فَبَشِّرْ عِبَادِ ۝ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾[(١)].

﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾[(٢)].

وعن الإمام الهادي عليه السلام: «العُجْب صارف عن طلب العلم، داعٍ إلى الغَمْط والجهل»[(٣)].

وعلاجه عن الباقر عليه السلام: «سُدّ سبيل العُجْب بمعرفة النفس»[(٤)].

﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا. الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾[(٥)].

---

(١) الزمر: ١٧-١٨.
(٢) النمل: ١٤.
(٣) ميزان الحكمة ج٦ ص٤٦.
(٤) تحف العقول ص٢٨٥.
(٥) الكهف: ١٠٣-١٠٤.

إن الاحتراز من عبادة طاغوت النفس أو طاغوت الآخرين، بل الرجوع إلى الله دائمًا، والاستماع إلى ما يطرق السمع من علم أو قول، ثم النظر فيه من أجل اتباع الأفضل منه، فهذا يعني الاهتداء كما يعني أن صاحبه يحترم عقله، لأن الناس كلهم لهم ألباب، ولكن الآية تطلق الصفة لمن يحترم عقله بأن يتجنب فخاخ النفس وفخاخ الطواغيت، ثم يفعّل الاستماع والنظر والاتباع.

وإلا، فإن النفس المتضخمة، الظالمة لنفسها وغيرها، تتعالى على البخوع للحق، حتى وصلت إلى مرحلة اليقين «واستيقنتها أنفسهم»، وهذا من الداء العضال المخيف حقًا، وهو السبب وراء الكثير جدًّا من أمراض المجتمع، من الخلافات الشخصية وحتى الخلافات بين القيادات الدينية والاجتماعية والسياسية على كافة المستويات.

أما إذا ظن الإنسان أنه وصل إلى مرحلة من العلم والقدرة بحيث تطرق الإعجاب بالنفس إليها، عندها يبدأ هذا العلم بالتفلّت منه ليحل محله الجهل، وأيضًا غمط نفسه هو من المزيد من العلم.

ولكن من يلتفت دومًا إلى ضعف نفسه، لا سيما بالمقارنة مع قوة المولى عز وجل، فهذا يقطع الطريق أمام العُجب والكبر، وعندها يمنع نفسه من السقوط في الغمط والجهل.

أما من ذهب بعيدًا في طريق تحت راية ضلالة، سواء من النفس في عجبها وتكبرها، أو باتباع طاغوت من الطواغيت، أو بالتكاسل عن البحث والنظر، وغيرها من آفات، ما محصله الانخداع بما عنده

أنه هو الحق، وأسوأ منه إذا أخذ على نفسه «هداية» غيره إلى هذا «الضلال»، عندها يقع في هذه الحالة الخطيرة المخيفة «يحسبون أنهم يحسنون صنعًا»، أي لا يضمرون في أنفسهم معرفة أنهم على باطل ولكن يظهرون ما يظهرونه لكسب الدنيا، ولكن حقًا يعتقدون أنهم على الحق، هؤلاء يصفهم القرآن بـ «الأخسرين أعمالًا». لذا يتوجب الحذر كل الحذر من هذه الحالة، وأهم ما فيهما اتباع المنهج الصحيح، وبالذات الحذر من السير وراء المضلين.

***

٨ـ إطار التقوى

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَاكْتُبُوهُ... وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾[(١)].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إَن تَتَّقُواْ اللّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾[(٢)].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ وَكُونُواْ مَعَ الصَّادِقِينَ﴾[(٣)].

أخيرًا، إذا كانت التقوى تشكل إطارًا قويًا يتحرك المرء من خلاله، فعندها لا يخشى عليه من السقوط في الكبر والعجب والجهل

(١) البقرة: ٢٨٢.
(٢) الأنفال: ٢٩.
(٣) التوبة: ١١٩.

والضلالة، بل أكثر من ذلك، تصبح التقوى طريقًا إلى المزيد من العلم «واتقوا الله ويعلمكم الله».

هذه التقوى، إن حصلت كشرط من الله تعالى «إن تتقوا الله»، فجوابه «يجعل لكم فرقانًا» تفرقون به بين الحق والباطل والهدى والضلال والعلم والجهل. هذا ناهيك عن الجائزة الكبيرة الأخرى «يكفر عنكم سيئاتكم» وأختها «يغفر لكم».

ولعل من أهم مصاديق التقوى أن يكون المرء «مع الصادقين» لأنه عندها يعلن أنه لا يستبدل بالذي هو أدنى الذي هو خير... ولعل التدبر في هذه الآية الكريمة «اتقوا الله وكونوا مع الصادقين» يجعلنا نحتمل أن يكون هؤلاء «الصادقين» قومًا مشخصين، خصوصًا وأنه مربوط «بتقوى الله»، فكأنما هناك احتمال من عزوف البعض عن الكون مع هؤلاء الصادقين. بغض النظر عن هذا، فالآية تشجع على تحري الصادقين للاصطفاف معهم، وأفضل مصداق للصادقين هم «عترة النبي صلى الله عليه وآله وسلم» حيث يصفهم علي عليه السلام بصفة «ألسنة الصدق» في قوله «فأين تذهبون» والآيات واضحة والأعلام قائمة والمنار منصوبة؛ فأين يتاه بكم؟ وكيف تعمهون وفيكم عترة نبيكم؟ وهم أعلام الدين وأزمة الحق وألسنة الصدق، فأنزلوهم بأحسن منازل القرآن، وردوهم ورود الهيم العطاش» إلى آخر قوله عليه السلام [(١)].

فاتقوا الله وكونوا مع الصادقين.

(١) نهج البلاغة الخطبة ٨٧.

البَابُ الثَّالِثُ

تطبيقات في معارف ومواضيع مختلفة

تقديم

يهدف هذا الباب إلى إعطاء فكرة أفضل لما ندعو إليه من التشجيع على تدبر كتاب الله - من الأقسام المختلفة من المعارف والمواضيع- من جانب، وإلى استخدام أدوات التدبر من جانب آخر.

أما الأقسام المختلفة فهي:

- البلاغة
- الله تعالى
- القرآن
- النبي صلى الله عليه وآله وسلم
- أهل البيت عليهم السلام
- أقسام الناس
- الخلافيات
- الابتلاء

- **مفاهيم مهملة**

- **قُل**

- **إنَّما.**

سنحاول تدبر مثال واحد (أكثر من مثال في بعضها) من كل قسم من الأقسام أعلاه (وستلاحظون أنه من الصعب حصر موضوع الآية -أية آية- في قسم واحد؛ لأن التشعب في المعارف القرآنية والارتباط بين الآيات يجعل من ذلك أمرًا عسيرًا).

الفَصْلُ الأَوَّلُ

البلاغة وخطاب الله تعالى

البلاغة وخطاب الله تعالى

قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾[١].

أولًا: نلحظ التعبير بالضمير «إياك»، فيقدم المفعول به على الفاعل، فلا يقول بتعبير الجملة الفعلية «نعبدك» ولا بتعبير الجملة الاسمية «نحن نعبدك»، ولكن يقدمه تعالى.

وذلك من أجل:

(١) أن الإنسان ربما يعبد الله وربما يعبد الأصنام أو النجوم أو غيرها، كما يمكن أن يعبد أشخاصًا على نحو العبادة الحقيقية، أي الشرك الجلي، أو نحو العبادة في الواقع، أي الشرك الخفي. لهذا، إذا قدم «نعبد» فإن هناك -ولو لحظة واحدة- يكون التعبير شاملًا للمعبود الواجب العبادة والآلهة المزيفة، فإذا سمعت القائل يقول: «نعبد» ثم انقطع الصوت أو البث، فلا تدري من وما يعبد. ولكن حينما يقول «إياك» بعد أن يكون قد وجه الخطاب لله في الآيات التي قبلها، فإنك تعلم أنه يقصده سبحانه.

(٢) هو يفرغ القلب، قلب القائل، من الأغيار أولًا، ثم يعلن

---

(١) الفاتحة: ٥.

أنه يعبده. أي نظير قول «لا إله إلا الله» الذي يفرغ القلب من جنس الآلهة، ثم يدخل الله تعالى وحده بالاستثناء.

◆ فائدة لغوية ضمائر النصب المنفصلة:

الضمائر تأتي في محل رفع أو نصب أو جر وبعضها في أكثر من حالة.

«إياك» هي من الضمائر المنفصلة التي تأتي في محل نصب، مفعول به أو معطوف على منصوب مثلًا اسم أن. وهذه تنفع في تركيز الكلام على المنصوب بتقديمه، كما تنفع في القول البليغ.

فتقول: «إياكَ أُخاطِب» لتلفت انتباه المخاطب أنك تخاطبه هو؛ بدلًا من «أخاطبكَ» فيكون فعل المخاطبة هو الأهم، أو «إني أخاطبك» ليكون المخاطِب -وهو أنت- الأهم.

إياي، إياي، إياكَ، إياكِ، إياكما، إياكم، إياكن، إياه، وإياها، إياهما، إياهم، إياهن.

﴿إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ﴾(١) بدلاً من «فاعبدوني».

﴿لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِيَّايَ﴾(٢) بدلاً من «أهلكتهم من قبل وأهلكتني».

---

(١) العنكبوت:٥٦.
(٢) الأعراف:١٥٥.

﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾(١) بدلاً من «ألا تعبدوا غيره».

﴿وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾(٢) بدلاً من «وإنا أو أنتم لعلى هدى».

﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ﴾(٣) بدلاً من «نحن نرزقهم ونرزقكم».

﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾(٤) بدلاً من «نحن نرزقكم ونرزقهم».

ثانيًا: المعنى العام

كما قال المفسرون: «نعبدك ونستعين بك» وبعضهم أضاف «ونستعين بك على عبادتك».

ثالثًا: بتفصيل أكثر:

العبودية: هي العبودية المعروفة في الأديان، ومنها الإسلام، أي مالكية الله تعالى للإنسان، فهو المالك المعبود، والإنسان المملوك العبد...

الاستعانة: لماذا «نستعين» وليس أي فعل آخر مما ينبغي أن نقوم به مع الله، مثلًا «نشكر» «نصبر» «ندعو»؟

---

(١) الإسراء: ٢٣.
(٢) سبأ: ٢٤.
(٣) الإسراء: ٣١.
(٤) الأنعام: ١٥١.

هناك آفاق:

(١) لأنه ربما يفهم من «نعبد» أننا نقوم بذلك بشكل مستقل، فجاء بكلمة «نستعين» لكي يؤكد أنه حتى العبادة ذاتها لا تتم بشكل مستقل تمامًا عنه تعالى بل تحتاج إلى الاستعانة به، وهذا قول المفسرين «ونستعين بك على عبادتك».

(٢) لأن أي فعل آخر «نشكر، نصبر، ندعو» وغيرها يعني مجاله فقط، في حين أن «نستعين» تشمل الاستعانة على كل الأفعال، أي ليس فقط العبادة... فكأنها تقول: «نستعين بك على العبادة، والشكر بحيث لا نغفل عن الشكر وأداء الشكر كما ينبغي، والصبر بحيث لا نجزع أو نضعف أمام البلاء، والدعاء بحيث نلتفت إلى الحاجة إليه ثم القيام به بالشكل الصحيح...» وهكذا.

رابعًا: لو أردنا النظر في بدائل التعبير عن هذا المعنى، فهل يمكن أن نأتي بما هو أفضل؟

«لا نعبد غيرك ولا نستعين إلا بك» أو «نعبدك وحدك ونستعين بك وحدك» أو «نعبدك ونستعين بك» حتى أنها أقل عددًا من الكلمات..... نجد:

- غياب التأكيد على المعبود والمستعان به في أول الكلام الذي كان باستخدام «إياك».

- غياب السجع والقافية للسورة «يم» و«ين».

- انهيار الانسيابية في التعبير (الجَرَس أو النَّفَس).

وكل ذلك مما استخدمته الآية المباركة في أربع كلمات وحسب... وهذا هو الإعجاز القرآني: تحقيق المعنى المطلوب بأقل عدد من الكلمات وبأجمل الوقع على الأذن وبما يناسب القافية أو السجع في السورة كلها.

***

وهكذا، فإن الأدوات التي استخدمناها في عملية التدبر البسيطة هذه هي:

١- قواعد اللغة العربية: إياك.

٢- المعنى العام: العبودية والاستعانة.

٣- تميز إحدى الكلمات «نستعين»: بإحاطتها بغيرها من جوانب العلاقة بالله والسجع.

٤- السبك في التعبير/ التقديم والتأخير و«ما قل ودل».

٥- استخدام السجع والقافية.

٦- الانسيابية في التنزيل القرآني.

الفَصْلُ الثَّانِي

المؤمنون بالله واليوم الآخر

المؤمنون بالله واليوم الآخر

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَالَّذِينَ هَادُواْ وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[(١)].

أولًا: تعداد الفئات بملاحظة أن «الذين آمنوا» هم المسلمون؛ لأن الخطاب إلى المسلمين في القرآن هو دائمًا «الذين آمنوا» - وهو ما سننتبه إلى الفارق بينه وبين «المؤمنون» أو «الذين آمنوا منهم» التي تفصل المجموعة المؤمنة حقًا، بشكل عام، أو في قضية معينة.

ثانيًا: تحديد المعيار في القبول: الإيمان بالله والإيمان بالآخرة والعمل الصالح، أي أصلان من أصول الدين؛ لأن الثالث هو نبوة النبي محمد ﷺ وهي غير موجودة.

ثالثًا: النتيجة: الأجر والأمان

ظاهر الآية: أن جميع من يتحقق فيه المعيار من هذه الفئات يحصل على الأجر والأمان من العذاب...

فهل الكلام عن الدنيا، أم الآخرة، أم الدنيا والآخرة معًا؟

---

(١) البقرة:٦٢.

الآية توحي بأن الأجر في الدنيا ممكن بلحاظ «فلهم أجرهم عند ربهم» فهو عام..

كما توحي بأن الأجر في الآخرة أيضًا بلحاظ ﴿ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾، والذي لا أجر له في الآخرة كيف لا يخاف ولا يحزن؟ بل إن الأولى هي دار ابتلاء فيها من الخوف والحزن الشيء الكثير.

الإشكال هو:

الاعتقاد السائد عندنا أن الناجين في الآخرة هم المسلمون حصرًا، بلحاظ آيات أخرى، لا سيما:

﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخرة مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾[(١)].

﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللّه الإِسْلام﴾[(٢)].

ولكن كي نعرض الآيات على بعضها لا بد من تدبر الآيات الأخرى.

إن القرآن يستخدم كلمة «إسلام» بمعنى «إسلام الوجه لله بالعبادة»، فهو يسمي الأنبياء والمرسلين عليهم السلام مسلمين، ويسمي أتباعهم باسم الإسلام «قال الحواريون نحن أنصار الله، آمنا بالله، واشهد بأنا مسلمون» وهكذا.

والآية موضوع التدبر تضم «الذين آمنوا» بمعنى الجماعة

---

(١) آل عمران:٨٥.
(٢) آل عمران:١٩.

المسلمة المؤمنة بالرسالة المحمدية، فلا تقول «المسلمين»، وبالتالي هذا يقوي الرأي القائل: إن «الإسلام» في الآيتين أعلاه يعني الإسلام بالمعنى العام للمؤمنين بالله من مختلف الديانات.

كما أن تدبر آية «ومن يبتغ»، أي النظر في كل كلمة، تفتح الباب أمام الاحتمالات:

خذ مثلًا - «يبتغ»، فهي الأخذ بقصد وإصرار، فلم تقل «يتخذ» أو «يتبع»...

«الإسلام»، فهو ربما بالمعنى الأعم.

وعليه فإن «لن يقبل منه» و«في الآخرة من الخاسرين» على هذا النحو.

ولكن: ماذا عمن وصلته الدعوة المحمدية، وبقي على دينه؟

هنا احتمالات:

الأول: وصلته الدعوة، وهو لا يمتلك الأدوات اللازمة للتعرف الحقيقي عليها، بسبب حاجز اللغة أو القدرات الذهنية المحدودة أو التخويف من السلطات.

الثاني: وصلته الدعوة، ومعها وصلته الصورة المخالفة للدعوة التي عليها بعض المسلمين، ما يسبب عدم الوضوح، وبما أن الإنسان ينزع إلى البقاء على ما هو عليه «اللي تعرفه خير من اللي ما تعرفه»، فإنه يبقى على دينه.

الثالث: وصلته الدعوة، ونظر فيها حقًّا ولم يقتنع فعلًا، وهو يحصل إذا وصلته بشكل ضعيف الحجة.

الرابع: وصلته الدعوة ولم يكن عليه ما يمنع من النظر فيها ولكنه أهملها استخفافًا أو استكبارًا.

الخامس: وصلته الدعوة ونظر فيها واقتنع بها وبأنها جاءت من عند الله بعد جميع الشرائع ولكنه بقي على دينه.

نستطيع القول: إن الثلاثة الأوائل يندرجون تحت الآية موضوع البحث، في حين أن الاثنين الأخيرين خارجان منها.

ولكن، هناك ما يتعلق بالعلم الإلهي:

١- قوله تعالى ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾[1].

(وهي - بالمناسبة - بضمن سلسلة من الآيات تنادي بطاعة الرسول ﷺ والاستجابة إليه سواء بسواء مع طاعة الله والاستجابة إليه).

فقوله: ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾ يدخل في بحث جانب العلم الإلهي المطلق، واللازماني، وهو ما نجده في آيات إشكاليات الجبر والتفويض أو مسير أم مخير...

---

(١) الأنفال:٢٣.

لقد دخل دين الإسلام أشخاص بطرق مختلفة بعضها لا يكاد يصدق:

شابة تأكل طعامًا عند صديقتها المسلمة فيعجبها فتقرر أن أناسًا يطبخون مثل هذا الطعام اللذيذ لا بد أن يكون دينهم صحيحًا!

شابة هندوسية في أرياف الهند يهاجمها رجل مسلم ويريد الاعتداء عليها وهي تقاومه، فتجد شيئًا يتدلى من سلسلة في عنقه، فتمسك به وتفهم أن هذا مما له علاقة بدينه وتتوسل إليه بهذا الذي يعتقد به، ولكنه يبقى على إصراره، ولكن لحظات ويبدأ بالتغير إلى أن يسقط ميتًا، فعندما تنهض تلمح ثعبانًا يسرع بعيدًا عنهما؛ بعدها يعلمون أن الثعبان لدغه لدغة سامة قتلته؛ فتسأل عن الذي قطعته من عنقه وكان السبب في نجاتها فيقال لها: إنه قرآن المسلمين، فتذهب وتعتنق الدين الإسلامي.

رجل انجليزي سائق شاحنة قبل أن يعود من مهمة النقل في ألمانيا يتعرض لحادث اصطدام فتكسر ساقه وينقل إلى المستشفى هناك ليبقى فيها أسابيع، وبينما هو يشاهد التلفاز - ولم يكن يعرف اللغة الألمانية - كان يعرض تقريرًا عن الحج، حيث كانت أيام الحج في مكة المكرمة، ففهم أن الكلام عن المسلمين، فعندما نظر إلى الطائفين قال في نفسه: إن هذا هو الدين الحق، وعندما عاد إلى انجلترا بحث وذهب إلى المسجد وأسلم.... وهكذا غيرهم الكثير.

فهل إن الذين قلنا: إن الدعوة الإسلامية لم تصلهم إنما لم

تصلهم لأن الله تعالى يعلم أنه لا خير فيهم وأنه لو أسمعهم لأصروا على رفض الدعوة؟

ولكن، في هذه الحالة، ماذا نصنع مع الذين وصلتهم الدعوة فعلًا ولكنهم رفضوها - ألا يعلم الله هنا أيضًا أنهم لا خير فيهم؟

وإذا أمكن القول: إنه تعالى -رحمة بالأولين- فإنه لم يوصل إليهم الدعوة؛ لأنه يعلم أنهم سيرفضونها بعد الاقتناع وبالتالي سيتعرضون للعقاب (أي كما روي في الحديث القدسي «إن من عبادي من لا يصلح له إلا الفقر، لو أغنيته لفسد حاله»)، فلماذا لم يفعل ذلك مع الذين يعلم أنهم سيصرون على العناد ولكنه سمح للدعوة أن تصلهم؟!

إذًا، وكما ترون، فإن بحث حال أتباع الديانات الأخرى المحددة في الآية الكريمة موضوع التدبر ينطلق بنا إلى آفاق مواضيع أخرى من شأنها قطعًا أن تنقلنا إلى آيات وآيات...

أما من يسأل عن المعنى فهذا ينقلنا إلى التفسير، وهو ما نحن لسنا في وارده في هذا البحث.

ولكن هذا التدبر يفتح أسئلة وأسئلة من شأنها تحفيز المتدبر للتعمق فيما قاله المفسرون والباحثون. (مثال ذلك: موضوع «النسخ» في القرآن، على أساس أن غالبية المسلمين يعتقدون بنسخ الآيات التي تتحدث عن قبول أتباع الديانات الأخرى، ولكن هناك رأيان: الرأي القائل بالنسخ، والرأي القائل بعدم النسخ بل

هو التدرج؛ لأن الله تعالى قادر على أن ينزل الأحكام دون نسخ. هذا إضافة إلى مواضيع: الجبر والاختيار، العدل الإلهي، علاقة علم الله تعالى بالأفعال الصادرة من البشر ودرجة المحاسبة عليها، أتباع الديانات الأخرى غير المذكورة في الآية المباركة).

❊❊❊

وهكذا، فإن الأدوات التي استخدمناها في عملية التدبر البسيطة هذه هي:

١- فهم مفردة «الذين آمنوا» أنهم المسلمون المؤمنون برسالة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

٢- الانتباه إلى الفارق في المراد بين هذه المفردة ومفردة «من آمن».

٣- معرفة المقصودين بالآية.

٤- الانتباه إلى الفارق بين «الأجر» الذي يمكن أن يكون في الدارين و«نفي الخوف والحزن» الذي ليس حقيقيًا - أي النفي - إلا في الآخرة.

٥- النظر في الإشكالات الكبيرة، لا سيما التي تستند إلى آيات قرآنية أخرى، عن طريق طرح الاحتمالات جميعها.

الفَصْلُ الثَّالِثُ

القرآن الكريم

القرآن الكريم

﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُواْ شُهَدَاءكُم مِّن دُونِ اللّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ۞ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ وَلَن تَفْعَلُواْ فَاتَّقُواْ النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾[١].

هذا التحدي من الله تعالى للبشر جميعًا لإقامة الدليل القاطع على عدم بشرية القرآن، بل على ضرورة كونه من عند المطلق المحيط بالزمان بحيث يطلق التحدي ويعلن النتيجة الأبدية.

أولًا: قال: «نزّلنا» ولم يقل: «أنزلنا» كما في غيرها، وفي هذا خلاف أختصره بالقول:

- عادةً صيغة «فعّل» أشد من صيغة «أفعل»، فكأنها تستخدم عندما يكون الأمر أهم.

- قالوا أيضًا: في بعض الآيات وردت «أنزل» بمعنى الإنزال مرة واحدة ﴿إنا أنزلناه في ليلة القدر﴾[٢] أو ﴿شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن﴾[٣]، وفي بعضها «نزّل» بمعنى الإنزال التدريجي ﴿وَقَدْ نَزَّلَ

(١) البقرة:٢٣-٢٤.
(٢) القدر:١.
(٣) البقرة:١٨٥.

عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ﴾[١]... يجمع هذا الآية الآتية ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُوله وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُوله وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ﴾[٢] فالذي «نزّل على رسوله» هو القرآن الذي كان مستمرًا في النزول التدريجي، في حين أن ﴿الكتاب الذي أنزل من قبل﴾ قد اكتمل نزوله قبل قرون طبعًا. ومثلها ﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ﴾[٣].

(ولكن هناك استثناءات تفهم حسب السياق - مثلًا ﴿والذين يؤمنون بما أُنزل إليك وما أُنزل من قبلك﴾[٤] لأنها تتحدث عن الإيمان بالكتب السماوية كلها إجمالًا سواء كان التنزيل قد تم أو لا).

وعليه فإن «ما نزّلنا على عبدنا» جاءت هنا لأن القرآن كان يتلوه النبي ﷺ عليهم تدريجيًا حسب نزوله وهذا التحدي جاء والقرآن لم يكتمل.

كما يمكن أن يكون «نزّلنا» لأن الأمر أهم من غيره حيث يتعلق بأصل الدليل على الدين كله من خلال الدليل على أن القرآن لا يأتي به بشر.

ثانيًا: لم يذكر اسم المنزل عليه، بل اكتفى بقوله «عبدنا» لأن هذا في القرآن هو التشريف العظيم لسيد المرسلين محمد ﷺ، لأنه

---

(١) النساء: ١٤٠.
(٢) النساء: ١٣٦.
(٣) آل عمران: ٣.
(٤) البقرة: ٤.

وصل إلى أعلى مما وصل إليه جميع البشر في العبودية لله تعالى، فكان القرآن إذا ذكر أحد الأنبياء والمرسلين عليهم السلام بصفة العبودية فإنه يأتي باسمه أيضًا، ما عدا محمدًا صلى الله عليه وآله وسلم الذي لا يحتاج إلى الاسم لأن العبد الكامل لا تليق إلا به (كما في قوله ﴿سبحان الذي أسرى بعبده ليلًا﴾[١]، ﴿فأوحى إلى عبده ما أوحى﴾[٢] وغيرها). هذه المفردة «عبدنا» تؤكد أن المقصود بـ «ما نزلنا» هو القرآن، إذًا موضوع التحدي هو القرآن الكريم.

(ينبغي ملاحظة أن منزلة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم المتقدمة على الأنبياء عليهم السلام ليس فقط لأنه المختار لنزول القرآن عليه فحسب، ولكن أيضًا لأن القرآن قدمه على أولي العزم من الرسل عليهم السلام فكسر التسلسل الزمني في البعثات في حالته فقط مع أنه راعاه مع الآخرين فقال ﴿وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم، ومنك ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ابن مريم وأخذنا منهم ميثاقًا غليظًا﴾[٣] فقدمه على من هم الأعلى بين المرسلين).

ثالثًا: تحداهم الإتيان «بسورة» واحدة فقط، وهذا من أعظم التحدي وذلك لأنه:

١- لم يطلب منهم الإتيان بما يشابه جميع ما نزل من القرآن الذي نزل لحد ذلك الوقت.

(١) الإسراء:١.
(٢) النجم:١١.
(٣) الأحزاب:٧.

٢- كان قد نزل قرآن كثير، لأن الآيتين في سورة البقرة وهي مدنية، أي نزلت بعد سور كثيرة هي جميع ما نزل في العهد المكي إضافة إلى ما نزل في العهد المدني، وعليه فقد فتح لهم المجال واسعًا لاختيار أية سورة يريدون محاكاتها.

٣- كانت هناك سور صغيرة جدًّا على طاولة التحدي، كالكوثر والتوحيد والفلق والناس وغيرها.

رابعًا: قوله «مِنْ مِثْلِه» فيه احتمالان - أي الضمير «هاء» في «مثله»:

الأول: «من مثل القرآن»، فالهاء تعود إلى القرآن، وهو الأقرب لأن التحدي أشمل حيث يشمل جميع المعارف والقصص والأحكام وإطار البلاغة وجميع الشأن القرآني.

الثاني: «من مثل النبي»، فالهاء تعود إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم، أي «هاتوا سورة واحدة من رجل لم تعهدوه يقرأ ويكتب ولا ينظم الشعر ولا يخطب في نواديكم» أي من رجل لم يكن مبرزًا في هذا الحقل، ناهيك عن المعارف المختلفة التي لا يعملها لا هو ولا غيره منكم.

ولكن الأول أقرب لأن التحدي يكون للقول المنزل فهو الباقي الثابت، في حين أن العبد المنزل عليه صلى الله عليه وآله وسلم سيمضي إلى ربه ولن يكون ممكنًا تثبيت أي محاولة محتملة لمعارضة القرآن بشيء آخر يتحداه.

خامسًا: الآية التالية لم تكتف بموعظتهم إذا ما فشلوا في أن يأتوا بسورة من مثله – أي «فإن لم تفعلوا» – ولكنها أعلنت أنهم سيفشلون في هذا، هم ومن يأتي بعدهم إلى قيام الساعة، وذلك بالقول «ولن تفعلوا»، فـ «لن» تأبيدية؛ وهذا من أعجب ما يمكن أن يأتي التحدي به ومعه النتيجة الأبدية، الأمر الذي يستحيل أن يقوم به عاقل ما لم يكن متيقنًا اليقين التام المحيط بالزمان والمكان والوجود كله، وهذا هو الحق سبحانه وتعالى.

***

هنا أيضًا، في عملية التدبر البسيطة هذه قمت باستخدام الأدوات التالية:

١– فهم المفردات التي جاءت في آيات أخرى لنتأكد من المقصود «نزلنا وأنزلنا»/ «عبدنا».

٢– معرفة زمان النزول– مكية أم مدنية – لمعرفة كم من القرآن كان قد نزل لتعلقه بقوة التحدي.

٣– النظر الدقيق في الضمائر لمعرفة متعلقها «مثله».

٤– معرفة دلالة الأدوات اللغوية للسيطرة على معاني التدبر «لن».

الفَصْلُ الرَّابِعُ

النبي صلى الله عليه وآله وسلم

النبي صلى الله عليه وآله وسلم

قال تعالى: ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَطِيعُواْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلاَ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ ۞ وَلاَ تَكُونُواْ كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لاَ يَسْمَعُونَ. إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لاَ يَعْقِلُونَ۞وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَّهُم مُّعْرِضُونَ۞ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُم لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾[١].

أولًا: نلحظ الخطاب إلى المسلمين «يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ»، وهو وصف «الجماعة المسلمة»؛ لذا يجب أن نقول «لبيك»!

﴿أَطِيعُواْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلاَ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ﴾

١ - أحيانًا الأمر يكون ﴿أطيعوا الله والرسول﴾[٢] وأحيانًا «أطيعوا الله ورسوله»، والفرق لا بد من تعلقه باستخدام «أل التعريف» في الحالة الأولى مقابل «الضمير المتصل هـ»، فالأول يعطي الرسول صلى الله عليه وآله وسلم استقلالية - نسبية طبعًا - بينما الثاني يجعل طاعته صلى الله عليه وآله وسلم منبثقة بشكل كامل من طاعة الله تعالى، وذلك لأنه صلى الله عليه وآله وسلم منسوب في الطاعة هاهنا إلى الذات المقدسة.

(١) سورة الأنفال: ٢٠-٢٤.
(٢) آل عمران: ٣٢.

فـ «لا تولوا عنه» أي عن رسوله ﷺ لأنه ينطق بما نزل عليه.

٢- ما يؤكد هذا قوله «وأنتم تسمعون»، فهو «سماع» وهذا يشير إلى «القرآن» نصًّا، وعليه فإن طاعة الرسول ﷺ إنما هي فيما قرأه عليكم من آيات القرآن، أي ليس من السنة المبينة له.

إذًا، لا تديروا ظهوركم لما أنزله الله تعالى إليكم بعد أن تأكدتم من أنه من عند الله حيث قرأه عليكم رسوله ﷺ الصادق عندكم أصلًا - إضافة إلى دليل الإعجاز.

﴿وَلَا تَكُونُواْ كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾

١- فإذا ما لم تفعلوا ذلك فإنكم تكونون كالذين ادعوا الطاعة ولكنهم لم يقوموا بها في الواقع.

٢- ينبغي الالتفات إلى الفارق بين «سمع» و«استمع»، فإن الأول أخف ومعناه ورود الصوت المسموع - من كلام وغيره - على حاسة السمع، بينما الثاني أقوى - وزن افتعل - ويعني «تفعيل الفعل»/ نظير قولنا «استلم» من «سلم»، فإن الثاني يعني الأمن أو الخلو من الضرر فجاء وزن «افتعل» ليعطيه معنى «وضعه كما هو مطلوب عند الشخص الآخر».

أو قولنا «اعترف» من «عرف»، فإنه اشتق من «فعل المعرفة» الصيغة الثانية «ما يعلن المعرفة» وهو «الاعتراف»؛ وهكذا.

إذًا، القضية قيد الأمر الإلهي هنا هي أول درجات الطاعة وهي «سماع التنزيل»... ولكن...

٣- ربما يطرق سمعك صوت وأنت غير مهتم به - كما في الحكم الشرعي بخصوص المحرمات في الاستماع من قبيل «كلام الذين يستهزئون بكلام الله تعالى أو برسوله ﷺ مثلًا» - فلا تؤاخذ عليه في حين تؤاخذ على «الاستماع» وليس «السماع»، ما ربما يفهم معه أن الآية الكريمة تطلب فقط «السماع» حتى دون الانتباه؛ وعليه فإن المفهوم هو «الدرجة الأدنى من المطلوب وهو سماع التنزيل». وهذا ليس غريبًا، لأن الخطاب مع المسلمين كلهم ونحن نعلم أنه ليس جميع المسلمين من يأبه للقرآن أصلًا في ذات الوقت الذي يدعي الإسلام ولا يرضى فعلًا بإخراجه من الملة.

٤- وهذا يقود بالضرورة إلى إمكانية -على الأقل، إن لم نقل بالقطع- أن هناك في المسلمين على عهد النبي ﷺ من كان يدخل في الدين ولكن دون حماس حقيقي، ربما نتيجة إسلام رب الأسرة أو شيخ العشيرة... وما جرى على الأرض بعدها، على العهد النبوي وبعده، يؤيد هذا.

﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لاَ يَعْقِلُونَ﴾

هذه «الدواب» كلمة عامة جمع «دابة» وتعني كل ما «يدب على الأرض» من إنسان وحيوان؛ وبالتالي فإنها يمكن أن تكون واحدة من احتمالات:

الأول: أنها تعني الحيوانات «البكم» التي «لا تتكلم»، وحتى إذا كانت «تسمع» فإن سمعها لا ينفعها وعليه فيمكن وصفها بـ «الصم».

الثاني: أنها تعني الناس الذين لا يستفيدون من الأسماع والأبصار لأنهم لا يفعلونها فيما ينفع وبالتالي فكأنها غير موجودة عندهم.

الثالث: الاحتمالان معًا، أي يضرب المثل بالحيوانات التي هي فعلًا أو واقعًا صماء بكماء، وأيضًا الناس الذين هم على شاكلتهم في تعاطيهم مع الحياة.

إذًا، هو تحذير للمسلمين أن يكونوا على تلك الشاكلة فيما إذا أهملوا الانتباه إلى الذكر الحكيم.

﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾

١- هذه الآية تؤكد الاحتمال الثاني؛ لأنها تقول أن أولئك الذين لا يسمعون لم يفتقدوا حاسة السمع ولكن افتقدوا إمكانية التأهل للإيمان، بحيث أنهم «حتى لو أسمعهم الله تعالى بالقوة فإنهم سيتولون ويعرضون عما سمعوه». وإن كان ضرب المثل في الحيوانات الصماء البكماء أيضًا مهم لتقبيح الصورة، لأن هؤلاء إنما يهبطون بأنفسهم إلى مستوى الحيوانات لأنهم أهملوا أول خطوة من خطوات تفعيل العقل وهو إلقاء السمع من أجل التعرف على ما جاء.

٢- هذه الآية ذكرتها في الفصل ٥ وهي التي فتحت مسألة الجبر والاختيار في قضية الإيمان والكفر.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُم لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾

١- مرة أخرى الخطاب إلى المسلمين جميعًا، ونحن منهم.

٢- هنا تغيرت النصيحة-فالأمر من «الطاعة» إلى «الاستجابة إلى الدعوة لما يحيي»، أي ليس فقط «الطاعة الإجمالية للقرآن» ولكن «الطاعة المتفاعلة إيجابيًا؛ لأن هذه هي الاستجابة»...

فلأي شيء الاستجابة؟

٣- نلاحظ أولًا أنه استخدم «الرسول» وليس «رسوله»، وهذا يعني إعطاءه ﷺ الاستقلالية، ونؤكد النسبية لأن لا استقلال تامًا عن الله تعالى لأي أحد من البشر -، كما قلت أولًا «أل التعريف» تعطي استقلالية قبال «هاء ضمير الغائب» التي تربطه بالله تعالى تمامًا.

٤- ما يؤكد هذا هو استخدامه «وللرسول» وليس «والرسول»، أي يقول: «استجيبوا لله واستجيبوا للرسول» وليس «استجيبوا لله والرسول».

وبالتالي، فإن الاستجابة هنا ليس فقط إلى آيات القرآن، ولكن أيضًا إلى ما يبينه الرسول ﷺ مما خفي من معانيها أو ما أجمل من تفاصيلها، أي «استجيبوا لما أنزله الله في القرآن واستجيبوا لما يبينه الرسول من القرآن الذي نزل»...

٥- «إذا دعاكم لما يحييكم»، الفاعل في «دعاكم» هو الرسول

ﷺ، فلم يقل «دعواكم»، لأن دعوة الرسول ﷺ تنطلق من الله تعالى أصلًا، ولكنه هو ﷺ الذي يقوم بها بينكم وبينه تعالى.

والآن، هل «الدعوة إلى ما يحيينا» مختصة بأمر دون أمر أم هي شاملة لجميع ما يدعونا إليه ﷺ؟

لو كان هناك احتمال واحد أنه ﷺ يمكن أن يدعونا لأمر فيه ضرر لنا، أي ما هو عكس الحياة، فإن الآية كان يجب أن تخصص لا أن تكون مطلقة هكذا... ولكن هل يشك مسلم في أن النبي ﷺ يمكن أن يصدر منه أمر أو حث أو موعظة لا يصب في نفعه؟

ثم هل «يحييكم» تعني هذه الحياة أم الحياة الآخرة أم الاثنين معًا؟

طالما أن القرآن يدعو إلى كل فعل محمود فإنه ﷺ يدعو إلى ما هو حياة حقيقية في هذه الدنيا.

ولكن طالما أن هذه الحياة الدنيا قصيرة جدًّا لا تكاد تذكر قياسًا إلى الحياة الآخرة أولًا، وطالما أن أفضل ما فيها محفوف بالخطر والقلق والنقص ثانيًا، فإن «يحييكم» متوجهة في الواقع إلى الحياة الآخرة، وذلك:

أولًا: لأنها هي الحياة الحقيقية ﴿وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ﴾[1] آية «حقيقة الحياة».

---

(١) العنكبوت: ٦٤.

ثانيًا: لأن الفوز بالآخرة يأتي من الإيمان والعمل الصالح في الدنيا، وعليه فحتى ما يدعونا إليه الرسول ﷺ مما يتعلق بأمور الدنيا هو في حقيقته دعوة للحياة الحقيقية في الأخرى.

إذًا، الدعوة تشمل كل ما يقربنا إلى الله تعالى ورضوانه وكل ما يبعدنا عن سخطه وعقابه، حتى لو كان فيها تعب أو ألم أو ضرر ظاهر فإنه مؤقت، وفي نفس الوقت يحمل معه الحسنات ورفع الدرجات. فهي تشمل: التمسك بالعقيدة والشريعة والمنظومة الأخلاقية، وذلك من خلال الطريق المستقيم الذي رضيه الله تعالى لنا، وهو:

(١) القرآن.

(٢) ما صح من سنة النبي ﷺ المبينة للقرآن.

(٣) خلفاء النبي ﷺ الراشدين المهديين عليهم السلام الذين عندهم القرآن والسنة كما ينبغي.

والروايات ذكرت ما «يحيينا»، فذكر بعضها النتيجة وهي «الجنة» كما ذكر غيرها، وهو الطريق أو الآلية وهي «العلم» أو هي «ولاية علي بن أبي طالب عليه السلام»، أو «الإيمان» نفسه بكامله لأنه الطريق. بل يمكن اعتبار هذه جميعًا هي المقصودة لأنها كلها جزء لا يتجزأ من «ما يحيينا».

ولا تنسوا أن «دعوة الرسول» هنا إنما تنطلق مما ينطق به هو، وليس من نص القرآن بالضرورة، كما أشرت إلى الفارق بين الآية

الأولى وهذه الآية، وبالتالي، فعلى الرغم من أن استجابة المسلم إن كان مسلمًا حقًا لرسوله ﷺ مفروغ منه، ولكن ربما أن الغفلة من جانب أو أن بعض هذه الدعوة من الرسول ﷺ مما هو ثقيل على النفس عمومًا أو على نفوس البعض فجاءت الدعوة القرآنية.

نعم، هناك مساحة من الاختيار، في المستحبات والمكروهات، أما معرفة الله أولًا، ثم الحلال والحرام ثانيًا، فلا مجال فيه للاختيار، لأنه «سيكون بالضد لما يحيينا» ما يجعلنا نخسر من الآخرة درجات.

ملاحظة هامة:

إن «الحياة الدنيا» ذاتها آفاق واسعة جدًّا لعل معظم الناس مشغولون بالأدنى من آفاقها، فهم في لهاث دائم من أجل تحسين أوضاعهم المعيشية من خلال الجانب المادي ليس إلا، في الوقت الذي يهملون الجانب المعنوي، وهو مؤسف لأن تقوية الجانب المعنوي من شأنه تمكين الإنسان من التعامل بشكل أفضل مع معترك الحياة المادي، خصوصًا أن ما بيده منه هو أقل القليل، والمصائب والكوارث لا عصمة منها، فعندما يكون الجانب المعنوي مدربًا فإن المرء يكون أقوى في التفاعل معها. تنزل نعمة فيطغى ولا يشكر، وتنزل به نقمة فيجزع ولا يصبر، في حين لو كان قد تلقى رعاية معنوية لشكر هنا وصبر هناك - وما هذا إلا لضعف الإيمان الذي وصف بأن «نصفه شكر ونصفه صبر».

وعليه، فإن «ما يدعونا إليه الله والرسول ﷺ لما يحيينا» في

شقه الدنيوي يتعدى ماديات الحياة الدنيا إلى آفاقها المعنوية التي هي أوسع وأجمل.

﴿وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾، وهو جزء مهم من الآية المباركة.

فإن قررتم الذهاب في طريق عدم طاعة الله ورسوله ﷺ فيما نزل من القرآن والتولي معرضين، وفي طريق عدم الاستجابة لما يدعوكم إليه رسوله ﷺ لما يحييكم، فلا تنسوا أن الأمر ليس بعيدًا عن هيمنة المولى عز وجل، بل هو أقرب إليه إلى درجة أنه يمكن أن يقف «حائلًا» بين الإنسان وقلبه...

و «القلب» هنا هو الآلية التي يقوم الإنسان بواسطتها باتخاذ القرار فيما جهز به أصلًا عندما «هداه النجدين» - فهو «المزيج من العقل والشعور والعاطفة».

ولكن «كيف يحول الله بين المرء وقلبه»؟

هل: يحول بينه وبين فعل الخير وأوله الاستجابة لله وللرسول؟ أو يحول بينه وبين فعل الشر وأوله الإعراض عنه؟

هذا يدخلنا مرة أخرى في بحث «الجبر والاختيار»، هذه المرة ليس في قضية الإيمان والكفر «يهدي من يشاء ويضل من يشاء»، ولكن في قضية العمل الصالح أو السيئ - وهو ما لا بد أن نبحثه منفصلًا في مناسبات أخرى.

على أية حال، لله الحق الكامل في التدخل بين المرء وقلبه لأنه هو:

الخالق الصانع له والمهيمن عليه والمستمر في مدده دون انقطاع؛ فكيف للأم أو الأب مثلًا الحق في التدخل في حياة أولادهم بما يتعلق بالقلب من حب وبغض ورغبات لمجرد أنهم: كانوا آلية خروجهم إلى الحياة والمسؤولين عن إدارة معيشتهم والاستمرار في إعطائهم من وقتهم وجهدهم وحياتهم؛ وكلها جزئية جدًّا مقارنة مع تلك الربانية؟

ولكن لنذهب إلى إحدى الأدوات الهامة في تدبر القرآن، وهي ما ذكرتها قبل قليل - وهم أهل البيت عليهم السلام - الذين دعانا الله ورسوله صلى الله عليه وآله وسلم إليهم من ضمن ما يحيينا (وكما سنثبت ذلك في موارد كثيرة متنوعة في كتاب الله)، فماذا يقولون عن «يحول بين المرء وقلبه»؟

قال الإمام الباقر عليه السلام في تفسيرها: «بين المرء ومعصيته أن يقوده إلى النار، ويحول بين الكافر وطاعته أن يستكمل بها الإيمان؛ واعلموا أن الأعمال بخواتيمها»[1].

أي ربما يتعلق بقوله ﴿فسنيسره لليسرى﴾[2] و﴿فسنيسره للعسرى﴾[3] - أي بحث الجبر والاختيار.

---

(١) تفسير الصافي ص٢٩٠ رواية ٢٤ عن الكافي.
(٢) الليل: ١٠.
(٣) الليل: ١١.

أما الإمام الصادق عليه السلام فقال: «يحول بينه وبين أن يعلم أن الباطل حق»[١]- وهذا يعني أنه تعالى يقطع عليه عذره فلا يستطيع القول: إنه لم يستجب لأن الأمور اشتبهت عليه فرأى الباطل حقًا.

ومثله، وبشكل أشمل، عنه عليه السلام أيضًا قال: «لا يستيقن القلب أن الحق باطل أبدًا، ولا يستيقن أن الباطل حق أبدًا»[٢]؛ وهذا يحيط بالجهتين، فلا يستطيع المبطل أن يتعكز على أن الأمور اشتبهت فرأى الحق باطلًا والباطل حقًا، لأن الله تعالى مطلع على دقائق ما أخفاه في نفسه ﴿ويعلم السر وأخفى﴾[٣].

ولكن يجب ملاحظة:

أن حديث الباقر عليه السلام يتكلم عن «المرء المؤمن والكافر» في حين أن حديثي الصادق عليه السلام فهما يتكلمان عن «الباطل والحق» وعليه فهما ألصق بالآية الكريمة التي تتوجه بخطابها إلى المسلمين «الذين آمنوا» وليس الكفار... فلا يعود هناك تعلق لبحث «الجبر والاختيار» في هذه الحالة.

أخيرًا في هذا الجانب:

كون الله تعالى «يحول بين المرء وقلبه» تجعله سبحانه متفردًا في هذه العلاقة مع الإنسان، لأن جميع الآخرين من غيره تعالى مهما

(١) تفسير الصافي ص ٢٩٠ رواية ٢٤ عن العياشي.
(٢) المصدر نفسه.
(٣) طه:٧.

بلغت سطوتهم وقدرتهم فإنها تبقى محدودة في الخارج، فلا يمكن أن تجعل من يحبهم يكرههم وبالعكس، أو تجعل البخيل كريمًا وبالعكس، وهكذا. فحري بالإنسان الالتفات إلى هذه الحقيقة التي من شأنها جعله ينطلق في آفاق العلاقة مع الله إلى مديات عالية.

﴿وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾

النتيجة النهائية التي يجب أن لا تغفلوا عنها: حتى لو أهملتهم طاعة الله ورسوله ﷺ في هذه الدنيا، وحتى لو لم تستجيبوا لما يحييكم، لأن عندكم الحرية في الاختيار وعندكم المجال في أن تهملوا وتتولوا معرضين، فلا تغفلوا عن أن هذا مؤقت، وأنكم ستجدون أنفسكم في يوم يحشركم جميعًا إلى الله، وعندها فلا تضيعوا فرصة الحياة الحقيقية إذا أهملتهم الاستجابة إلى الله ورسوله ﷺ.

ملاحظة أخرى بخصوص «النبي» و«الرسول»:

(يطرح البعض مسألة التفريق بين محمد ﷺ النبي ومحمد ﷺ الرسول، غالبًا للتخفف من الأوامر النبوية وعلى أساس أن القرآن لم يأمر بطاعته ﷺ كنبي. إن هذا فهم خطأ تمامًا، لأن طاعته ﷺ كنبي مثلها كطاعته ﷺ كرسول، حيث أن الخطاب القرآني بـ «يا أيها النبي» مثل «يا أيها النبي إذا طلقتم النساء...» «يا أيها النبي قل لمن في أيديكم من الأسرى» «يا أيها النبي حرض المؤمنين على القتال» أمر من الله للنبي ﷺ فهو في معرض الطاعة أيضًا، وإلا هل إن الأمر باللوازم الشرعية للطلاق ليست خاضعة للطاعة؟! في هذه النقطة، تكفي آية

تحويل القبلة ﴿وما جعلنا القبلة التي كنت عليها إلا لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه، وإن كانت لكبيرة إلا الذين هدى الله﴾[١]، فإن الأمر صدر منه ﷺ قبل أن تنزل أية آية بهذا الشأن، وبعد تحويل القبلة نزلت هذه الآية المباركة تذكر الأمر وتذكر حال الذين لا يطيعونه أنهم منقلبون على الأعقاب، أي ارتدوا عنه وعن الدين).

***

كما رأيتم، فإن الأدوات التي استخدمناها في عملية التدبر البسيطة هذه هي:

١- الالتفات إلى أشكال التعبير «الرسول» و«رسوله»؛ «وللرسول» بدلًا من «والرسول».

٢- التدقيق في مغزى استخدام الفعل «سمع».

٣- النظر في احتمالات إلفات نظر المخاطبين إلى حالة «الدواب الصم البكم».

٤- عدم الغفلة عن عمومية «الدعوة لما يحييكم» لتشمل الدين كله، كما تشمل الدارين، بل تشمل أبعد من الجانب المادي في الدار الأولى.

٥- التدقيق في قضية دخول الله تعالى بين الإنسان وقلبه وعلاقتها بالآيات قبلها.

---

(١) البقرة:١٤٣.

الفَصْلُ الخَامِسُ

أهل البيت عليهم السلام

أهل البيت عليهم السلام

إشارة إلى آيات أهل البيت عليهم السلام في القرآن الكريم.

قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا ۞ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَنْ يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا ۞ أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِنَ الْمُلْكِ فَإِذًا لَا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا ۞ أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا ۞ فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ صَدَّ عَنْهُ وَكَفَى بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا﴾[١].

ملاحظة أولية:

موضع التدبر هو الآية ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَآ آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُم مُّلْكًا عَظِيمًا﴾ ولكن كونها متعلقة بما قبلها إذ تسرد تعامل إحدى الفئات المقصودة بالآية -وهم الحاسدون- حتى تصل إلى آية «أم يحسدون»

(١) النساء: ٥١-٥٥.

فإني سأشير إليها سريعًا.

فأولًا، الآيات ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا ۞ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَنْ يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا ۞ أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِنَ الْمُلْكِ فَإِذًا لَا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا﴾.

قالوا: إن «اليهود» الذين أوتوا نصيبًا من الكتاب، وهذا يعرّض بهم لأنهم أوتوا الكتاب الذي نزل على موسى عليه السلام، ولكنهم حرفوا وبدلوا وأهملوا، فلا يعتبر أن عندهم إلا نصيب من الكتاب.

هؤلاء بدلًا من أن يؤمنوا بالله تجدهم يؤمنون باثنين: «الجبت» و«الطاغوت».

قيل في معنى «الجبت»: خِساس الناس/ كل ما عُبد من دون الله/ الساحر/ الكاهن/ الصنم/ الضعيف في عقله ورأيه/ من أولاد الريبة.

وأما «الطاغوت» المشتق من «طغى»، أي زاد عن الحد ﴿إنا لما طغى الماء حملناكم في الجارية﴾[١]؛ وعليه فهو «الطاغية» كما نقول إلى اليوم/ ولكن أيضًا قالوا: إنه – مثل الجبت – جنس من كان يُعبد من دون الله، سواء كان صنمًا أو شيطانًا أو إنسانًا.

وقد روي عن ابن عباس أن: الطاغُوت كَعْبُ بن الأَشْرف،

(١) الحاقة: ١١.

والجِبْتُ حُيَيُّ بن أَخْطَب.

فاليهود يقولون «للذين كفروا»: إن «كعب بن الأشرف وحيي بن أخطب» هم أهدى من «الذين آمنوا سبيلًا» أي «أهدى من المسلمين» لأن لفظة «الذين آمنوا» هي وصف القرآن للجماعة المسلمة.

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَنْ يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا﴾: لعنهم الله، أي طردهم من رحمته.

الآية بعدها «أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ الْمُلْكِ فَإِذًا لَّا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا»، لو كان عندهم شيء من الملك، وهو الحكم أو المال أو التصرف في المجتمع عمومًا، فإنهم كانوا سيبخلون بأقل القليل، أي كان الناس لا يحصلون منهم على ما يوسع عليهم في حرياتهم أو العدل منهم أو شؤونهم المختلفة.

وثانيًا، الآية موضع التدبر هي الآية ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا﴾.

(١) الآية لا تصرح باسم «الحاسدين» ولا «المحسودين»، فإن كلمة «واو الجماعة في «يحسدون» هو فاعل الحسد، وكلمة «الناس» هم المفعول به المحسودون. وكلمة «الناس» كلمة يمكن أن تعني شخصًا واحدًا أو مجموعة من الأشخاص أو الناس جميعًا؛ وبما أنه لا يمكن أن تعني الأخير لأن الحاسدين من ضمن الناس جميعًا، يبقى معنى الشخص الواحد أو المجموعة.

(٢) سبب الحسد هو «ما آتاهم الله من فضله»، وهذا «الفضل» لا تصرح به الآية في أولها أيضًا.

وعليه، عندنا ثلاثة مجاهيل: (أ) الحاسدون (ب) المحسودون (ت) سبب الحسد أو الفضل من الله.

(٣) ولكن، رفض موقفهم الحاسد هذا الذي جاء في النصف الآخر من الآية يفصح عن المحسودين وعن الفضل...

فإنه يقول: لماذا تحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله وأنتم تعلمون أن الله تعالى آتى «آل إبراهيم»... ماذا آتاهم؟

الكتاب والحكمة والملك العظيم...

يقول البعض: إن «المحسودين» هو النبي صلى الله عليه وآله وسلم حصرًا، والبعض الآخر: إنهم المسلمون عمومًا.

فهل تجدونه مناسبًا أن الله يريد إقامة الحجة فيأتي بفعل قام به لمجموعة من البشر لا تقابل هؤلاء؟

- لو كان الناس المحسودون هو النبي صلى الله عليه وآله وسلم حصرًا فإن المناسب أن يقول لهم «فقد آتينا إبراهيم» وليس «آل إبراهيم».

- ولو كان الناس المحسودون هم المسلمين، أو صحابة النبي صلى الله عليه وآله وسلم وقت الآيات، فإن المناسب أن يقول لهم: «فقد آتينا أتباع إبراهيم».

- ثم كيف يكون المحسودون هم صحابة النبي ﷺ أو أتباعه والحجة في الآية هي إيتاء «الكتاب والحكمة والملك العظيم»؟ إذا كان ممكنًا قبول إيتائهم «الكتاب» على أساس أن القرآن أنزل إلينا جميعًا، فهل إن أتباع النبي ﷺ كلهم آتاهم الله «الحكمة»؟ أو «الملك العظيم»؟

- وعودًا على أن المحسودين هو النبي ﷺ حصرًا، لماذا تتحاشى الآية ذكره صراحة فتقول مثلًا «أم تحسدون النبي على ما آتاه الله من فضله»؟ ما الذي يمنع ذلك وهو ﷺ طبعًا مذكور في القرآن الكريم من أوله إلى آخره؟

(٤) إذًا، الصحيح هو المناسب في المقام، والمناسب في المقام هو من يقابل «آل إبراهيم» في الإسلام وهم «آل محمد» عليهم السلام، وذلك بملاحظة:

(أولًا) عدم مناسبة التفسيرات البديلة أعلاه.

(ثانيًا) أنهم عليهم السلام من آل إبراهيم عليهم السلام لأنهم مشمولون بما في الآيتين ٣٣ و٣٤ من سورة آل عمران «إن الله اصطفى آدم ونوحًا وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين. ذرية بعضها من بعض»

(ثالثًا) لا يمكن أن يكونوا «جميع آل إبراهيم أي من ولديه إسماعيل وإسحق» لأنه:

(أ) إذا كان الحاسدون هم اليهود فكيف يحسدون آل إسحق عليهم السلام؟

(ب) إذا كانوا غير اليهود فهؤلاء لا شأن لهم بآل إسحق عليهما السلام إذ لا منافسة بينهم.

(رابعًا) كما لا يمكن أن يكونوا «المسلمين» لأنه «ليس جميع المسلمين من آل إبراهيم عليهما السلام».

(٥) أما «سبب الحسد» أي المجهول الثالث، فإنه يتجلى في النظر في ما آتاه الله لآل إبراهيم عليهما السلام وهو: الكتاب والحكمة والملك العظيم. وفيه:

(أ) ما قلته من أنه ليس جميع المسلمين أوتوا الحكمة والملك العظيم.

(ب) أن الآية جمعت «الكتاب والحكمة» ثم فرقت «الملك العظيم» بفعل «آتينا» ثان، ولعل في هذا إشارة إلى قضية واقعية هي أن «الكتاب والحكمة» تأتي من عند الله تعالى مستقلًا استقلالًا كاملًا، فلا دخل لأحد فيها، في حين أن «الملك العظيم» يؤتيه الله تعالى كفرض وتأهيل ولكن هناك دخل للناس في قبوله أو لا، لأنه لا يفرض عليهم إلا بإعلانهم القبول، أو قل «البيعة». وهذا ما عمله النبي صلى الله عليه وآله وسلم من أخذ البيعة يوم الحديبية، لأن بيعة الأنصار في العقبة تضمنت حمايته في المدينة، لذا كان عندما يريد القتال في بدر وأحد فإنه صلى الله عليه وآله وسلم كان يطلب منهم إعلان رغبتهم في ذلك لأن الله تعالى قال له ﴿فقاتل في سبيل الله لا تُكلَّف إلا نفسك وحرّض المؤمنين﴾[1].

---

(١) النساء: ٨٤.

(ت) وفعلًا، لم يستطع الحسد منع آل محمد ﷺ مما آتاهم الله من «الكتاب والحكمة»، ولكنه استطاع منعهم من «الملك العظيم». هذا، إلا إذا كان «الملك العظيم» يشمل النبوة والولاية كما فسره البعض، وعندها فهي أيضًا تتعلق بالتفاعل مع الناس في الهداية والوعظ والتوجيه، أي أن هناك عامل قبول الناس ورفضهم أيضًا.

◆ جمع الآيات مع بعضها:

ولو أردنا إطلاق الآية في ما يمكن من معناها، في زمانها وبعد زمانها، وذلك بملاحظة ما قدمته من معاني «الجبت والطاغوت»، وأيضًا من حصول «الحسد على آل محمد ﷺ» قطعًا، أفلا يمكن القول: إن الآية تشير أيضًا إلى كل من عنده شيء من الكتاب، سواء من الأديان السابقة أم الإسلام، لأن من عنده شيء من القرآن بمعنى يقبل بعضه ويرفض البعض الآخر أيضًا تنطبق عليه هذه الصفة «أوتوا نصيبًا من الكتاب»، من يؤمن بالأنداد من دون الله، من البشر بالخصوص لأن الأصنام لم يعد لها وجود في عالم الذين أسلموا، ويعلنون أن هذه الأنداد أهدى سبيلًا من سبيل الإسلام الذي هو سبيل «الذين آمنوا»؟

ألم يقل الله تعالى ﴿اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابًا من دون الله﴾[1]؟

(١) التوبة: ٣١.

فما هو هذا غير أنهم أطاعوهم فيما أحلوا لهم من حرام وحرموا من حلال كما بين لنا الأئمة عليهم السلام ؟

فمثل هؤلاء لا يستغرب منهم أن يحسدوا آل محمد صلى الله عليه وآله وسلم «على ما آتاهم الله من فضله»، لا سيما وهم يرونهم قد ورثوا - (١) الكتاب (٢) الحكمة (٣) الملك العظيم في الدنيا والآخرة.

ولو راجعنا الروايات الحديثية لوجدنا هذا ففي تفسير البرهان عن الباقر عليه السلام قال: «نحن الناس»[(١)] وفي الكافي عنه عليه السلام: «نحن الناس المحسودون»[(٢)] والروايات التي تقول هذا كثيرة.

حتى مصادر أهل السنة - كما في تفسير الدر المنثور للسيوطي - أخرجت الروايات التي تقول: إن المحسودين هم آل محمد صلى الله عليه وآله وسلم . فقد أخرج بعضهم رواية الباقر عليه السلام الفائتة. وبعضها أخرج روايات عن ابن عباس (رض) بقوله: «نحن الناس دون الناس»[(٣)].

بل أخرج ابن حجر الهيتمي في «الصواعق المحرقة على أهل البدع والزندقة» أي الشيعة (!) حديث الباقر عليه السلام في الآية السادسة من فضائل أهل البيت عليهم السلام وهي هذه الآية.

كما رووا تفسير ابن عباس أنها نزلت في رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وعلي عليه السلام.

أما عن فقرات الحسد، فقد رويت الروايات فيها.

---

(١) تفسير البرهان ج ٤ ص ٣٨٣.
(٢) الكافي للكليني نقلاً عن تفسير الميزان ج ٤ ص ٣٨٤ نقلاً.
(٣) تفسير الدر المنثور للسيوطي وجامع الطبراني نقلاً عن تفسير الميزان ج ٤ ص ٣٨٤.

منها عن أبي جعفر عليه السلام قوله: «فنحن الناس، ونحن المحسودون على ما آتانا الله من الإمامة دون خلق الله جميعًا «فقد آتينا آل إبراهيم الكتاب والحكمة وآتيناهم ملكًا عظيمًا» - جعلنا منهم الرسل والأنبياء والأئمة عليهم السلام؛ فكيف يقرون بها في آل إبراهيم، ويكذبون بها في آل محمد عليهم السلام؟!»[١].

أي: بغض النظر عن كوننا جزءًا من آل إبراهيم عليهم السلام وبالتالي يجري علينا ما يجري على المصطفين من آل إبراهيم عليهم السلام، فإن الآية تثبت لنا هذه المنازل.

وأخرج أهل السنة روايات، منها نقاش بين ابن عباس ومعاوية الذي قال له: «يا بني هاشم، إنكم تريدون أن تستحقُّوا الخلافةَ كما استحقيتم النبوة ولا يجتمعان لأحد، وتزعمون أنَّ لكم ملكًا»، فقال ابن عباس: «أما قولك: إنَّا نستحق الخلافة بالنبوة، فإن لم نستحقها بالنبوة فبِمَ نستحقها؟! وأما قولك: إنَّ النبوة والخلافة لا يجتمعان لأحد، فأين قول الله ﴿فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا﴾ فالكتاب: النبوة، والحكمة: السُّنة، والملك: الخلافة، نحن آل إبراهيم، أَمْرُ الله فينا وفيهم واحدٌ، والسُّنةُ لنا ولهم جارية».

«الكتاب» جاء من «النبوة»، و«الحكمة» من «السنة»، فما هو «الملك العظيم» غير الخلافة؟

---

(١) بحار الأنوار ج٢٣ ص٢٩٨ رواية ٤٤.

والخلاصة في هذه الآية:

أني لا أجد «حسد اليهود للنبي ﷺ» كما قيل في بعض التفسير أكثر انطباقًا على الآية الكريمة من «حسد بعض المسلمين لآل النبي ﷺ»، لأن اليهودي لا شأن له بما عند النبي ﷺ فهو لم يدخل ملته، ولكن المسلم الذي انطوت نفسه على مشكلة مع النبي ﷺ أو آله عليهم السلام لا يستغرب منه «حسدهم عليهم السلام» لأن المنافسة في نفس الجماعة أشد كما لا يخفى، فكيف إذا كانت المنافسة تتضمن «الملك الحكم» وهو الذي يقتل عليه الابن أباه والأب ابنه؟

وهنا أتذكر التفاتة رائعة للشهيد السيد محمد باقر الصدر رحمه الله تعالى، ما خلاصته: أن عليًّا عليه السلام كان يشكل مشكلة لأقرانه من الصحابة، ليس الصحابة المنافقين والذين في قلوبهم مرض، ولكن الصحابة المخلصين الذين كانوا يريدون خدمة الإسلام، فإنهم مهما فعلوا في أي حقل من حقول خدمة الدين فإن عليًّا عليه السلام كان يبزهم بمراحل، وهذا يخلق شيئًا من الضيق في نفوسهم كأمر طبيعي بين البشر.

فإذا كان هذا من المخلصين، فما بالك بغيرهم؟

وقد أشارت الروايات إلى ما أذهب إليه.

من ذلك ما أخرجه الكليني في الكافي عن الباقر عليه السلام سؤال بريد العجلي عن قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنْكُمْ﴾[1]، والذي نعتقد - نحن شيعة أهل البيت

(١) النساء: ٥٩.

عليهما السلام – أنه في ولاة الأمر من آل محمد صلى الله عليه وآله وسلم وبالتالي فالرابط بينهم وبين الآية موضع التدبر اليوم يحسم الأمر.

وكان جواب الباقر عليه السلام: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا. يقولون لأئمة الضلالة والدعاة إلى النار: هؤلاء أهدى من آل محمد سبيلًا. أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللهُ وَمَنْ يَلْعَنِ اللهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا. أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِنَ الْمُلْكِ، يعني الإمامة والخلافة، فَإِذًا لَا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا. نحن الناس الذين عنى الله. والنقير النقطة التي في وسط النواة...﴾ ثم أتم بآية الحسد وقوله الذي ذكرته قبل قليل.

أخيرًا، الآية بعدها ﴿فَمِنْهُم مَّنْ آمَنَ بِهِ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ وَكَفَى بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا﴾

انقسم الناس إلى قسمين:

القسم الأول «آمن بالدين وبالكتاب دستور الدين وبالسفير بين الله وخلقه بهذا الكتاب وبالمؤدين عنه من آله الأطهار المقابلين من هذه الأمة لآل إبراهيم عليهم السلام المذكورين في الآية».

القسم الثاني «صد عنه» كليًا أو جزئيًا أو قل: البعض استجاب للرسول صلى الله عليه وآله وسلم عندما دعاه لما يحييه في ولاية أهل الكتاب والحكمة والملك العظيم، والبعض الآخر ردها.

ملاحظة بخصوص تعريف آل إبراهيم:

البعض -واضح أنه من أجل صرف المراد عن آل محمد ﷺ- يأتي بتعريف مغاير وهو أن «آل إبراهيم هم أمة إبراهيم» أي بشكل مشابه لما قاله بعض المفسرين من أن المحسودين هم النبي ﷺ والمسلمون جميعًا من الصحابة وقت نزول الآيات موضوع التدبر. والجواب عليه هو أن القرآن يقول ﴿إن الله اصطفى آدم ونوحًا وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين﴾[1] فهل يعقل أن «الاصطفاء» شمل جميع أتباع إبراهيم عليه السلام؟ وهو ما سيكون أكثر لا معقولية إذا ما قلنا أن أتباع إبراهيم عليه السلام هم اليهود والمسيحيون والمسلمون والأحناف فيما بين البعثات؛ أضف إلى ذلك أننا لا نعرف شيئًا اسمه «أمة عمران» لكي يكون معنى «آل عمران» أنهم أتباعه وأمته، فآل عمران إن هم إلا بيت من المؤمنين المخلصين اصطفاهم الله تعالى على العالمين. أيضًا، لماذا لم تقل الآية الكريمة «آل نوح» لأن نوحًا عليه السلام كان له أتباع قطعًا؟ إذًا، الاصطفاء محدد في المذكورين لأن الله تعالى هو الذي يصطفي.

وألفت النظر إلى أن الأتباع يحصلون على «الرضوان» فحسب لأنه لا يأتي إلا بعد العمل على أرض الواقع، أما «الاصطفاء» فهذا يحصل قبل العمل والابتلاء، أي يحصل من الله تعالى قبل خلق المصطفى من البشر، لذلك فرق بين هؤلاء وهؤلاء وقال ﴿وسلام

(١) آل عمران: ٣٣.

على عباده الذين اصطفى﴾[١].

وألفت النظر إلى أن هذه الأسرة الكريمة أسرة غير عادية، فهذه قريش تتجنب مجاورة البيت الحرام فيأتي قصي جد النبي ﷺ فيبني بيتًا عند البيت فتنزل قريش خلفه، وهاشم هو الذي يؤسس الوضع الاقتصادي المتطور لمكة بتأسيسه رحلتي الشتاء والصيف، وعبد المطلب هو الذي يوحي الله تعالى إليه بالرؤيا أن يحفر زمزم، بل ويسمي حفيده «محمدًا» فيسأل عن هذا الاسم الغريب فيوضح أنه «يجمع الصفات المحمودة»، بل كيف له معرفة أن العذاب سينزل على جيش أبرهة في مكة بحيث يأمر أهل مكة بالخروج منها إلى الضواحي حتى لا يصيبهم العذاب؟ هؤلاء أفراد على اتصال بالسماء، وهذا لا يحصل إلا بعد اصطفاء من الله تعالى.

***

(١) النمل: ٥٩.

هكذا، فإن الأدوات التي استخدمناها في عملية التدبر هي:

١- جو الآيات وسياقها.

٢- معاني الكلمات قليلة الاستعمال «جبت» «طاغوت».

٣- تفكيك آية «الحسد» لمعرفة فاعل الحسد وهدف الحسد وأسباب الحسد.

٤- فهم المصطلحات القرآنية بواقعيتها، «آل إبراهيم» بالذات.

٥- التدقيق في أي تكرار أو تفريق، «آتينا... الكتاب والحكمة» «وآتيناهم ملكًا عظيمًا».

٦- النظر في الروايات الحديثية للتأكد من نتائج التدبر في الآيات وحدها أولًا.

٧- النظر في الروايات الحديثية عند الفريقين عندما وجدنا الأمر يتعلق بالخلافيات.

الفَصْلُ السَّادِسُ

أقسام الناس

ما المقصود بأقسام الناس؟

(١) الأمم ما قبل الرسالة المحمدية.

(٢) الناس على العهد النبوي - المسلمون وغيرهم.

(٣) المسلمون على العهد النبوي - المؤمنون؛ المنافقون؛ الذين في قلوبهم مرض؛ غيرهم؟

(٤) الناس ما بعد العهد النبوي وحتى اليوم - المسلمون وغير المسلمين وعلى أنواعهم.

◆ حال الناس عمومًا

﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللّهِ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾[(١)].

يخرص: يكذب/ وقيل: يتكلم بالحدس والظن (ومنها قولنا: هذا تخرُّص).

والآية واضحة في: أن «غالبية الناس» في طريق ضلال بحيث أن طاعتهم ستؤدي إلى الإضلال عن الطريق المستقيم.

---

(١) الأنعام:١١٦.

◆ ولكن لماذا؟

لأنهم لا يسيرون وفق منهج يتحرى الحق واليقين، ولكنه منهج «الظن» و«ربما» و«لعله» وهي مقبولة في مرحلة النظر والتفكر والتدبر والتحليل والمقارنات، أما للوصول إلى مرحلة الحسم فإن «الظن» لا يمكن أن يعول عليه، فهو كما قال في سورة النجم «إن الظن لا يغني من الحق شيئًا» - لأن المرء يبقى في حالة اهتزاز القناعات، بل ربما عدم الوصول ولا حتى إلى شبه القناعة..

وبما أن «الظن» عبارة عن «ظنون» فإن الناس سيختلفون فيها اختلافًا شديدًا، فحتى إذا ما أصاب أحدهم أو بعضهم الحق عن طريق «الصدفة» فإن الأكثرين سيذهبون في طريق الباطل لا محالة.

هذا الطريق سيجعلهم «يتحدثون ويعلنون ما يعتقدون به بما يوصف بأنه «كذب» أو «حدس»»، فهم يكذبون إذا ما كان هناك وعي منهم أنهم إنما يسيرون في طريق الظنون الخادعة، أو هم يتكلمون «رجمًا بالغيب»...

◆ حتى الذين يؤمنون بالله

﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾[(١)].

هناك «إيمان بالله» وهناك «إيمان بغير الله»، ولكن إذا كان هناك «إيمان بالله وإيمان بغيره» وهذا يساوي الشرك، أي إشراك غيره تعالى معه.

(١) يوسف:١٠٦.

◆ **وهناك شركان:**

الشرك الجلي -أي الواضح- وهو عبادة الله وعبادة غيره كما في عبادة الأصنام

الشرك الخفي -أي غير الواضح- وهو عبادة الله والتعلق بغيره تعالى بشكل فيه غفلة عنه، إما في الرازقية أو الرحمانية أو غيرها مما يمكن التعلق بغيره، ولكن هذا «الغير» لا يعتقد به إلهًا.

والشرك الخفي هو معنى الآية، لأنها تتحدث عن «المؤمنين» «وما يؤمن أكثرهم بالله».

وبما أنها قالت «أكثرهم»، إذًا هذه الحالة الهابطة من الإيمان لا تمتد إلى جميع البشر؛ كيف وهناك المعصومون والعباد المخلصون الذين لم يشركوا بالله شيئًا مطلقًا لأنهم لم يغفلوا عنه ووجوده في حياتهم طرفة عين.

وأكيد أن «الشرك الخفي» درجات في الناس. وأكيد أن الشخص الواحد يرتفع عنده هذا الشرك الخفي وينخفض في حالاته المختلفة.

ولكن الذين لا خوف عليهم ﴿كَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلاَ تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[١].

﴿الَّذِينَ آمَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُواْ إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَـئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم

(١) الأنعام:٨١.

﴿مُّهْتَدُونَ﴾[(١)].

يقول لهم إبراهيم عليه السلام: أنتم تشركون بالله الأصنام التي لا تستمد شرعيتها من الله تعالى، فأنتم اتخذتموها آلهة بقرار منكم، في حين أنني لا أشرك بالله شيئًا، وعليه فانظروا أيًّا منا هو الذي يستحق «الأمن» – ذلك الأمن الذي هو في سياق «لا خوف عليهم ولا هم يحزنون».

هذا «الأمن» هو «السلام الداخلي» الذي يشعر به المؤمن لأنه الصلة مع الفطرة الأصلية التي هي من روح الله تعالى؛ كما أنه «الأمن من العذاب الأخروي».

ملاحظة: بخصوص «ما لم ينزل به عليكم سلطانًا».

هذه مثل قوله في سورة النجم ﴿إن هي إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان﴾[(٢)].

فلا يوجد حالة من «الشرك الذي أنزل الله به سلطانًا» – وهو واضح كعقيدة، ولكن ربما أوهم بوجود هذه الشبهة... المعنى هو: أنكم قمتم بفعل الشرك مع أنكم أنفسكم لم تقدموا حجة –حتى لو كانت من إنشائكم، أن الله هو الذي كان وراء تنزيل الأمر بعبادة الأصنام.

ثم يقول إبراهيم عليه السلام، أو قيل: إنه من قول الله تعالى: ﴿الَّذِينَ

---

(١) الأنعام:٨٢.
(٢) النجم:٢٣.

﴿آمَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُواْ إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَـئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾[١].

هذا «الأمن» وحالة «الهدى» يحصل عليها الصنف من الناس الذين توفر فيهم:

(أولًا) إطار الدخول في الدين الصحيح «الذين آمنوا».

(ثانيًا) عدم إفساد الإيمان بما تصفه الآية بالـ «ظلم».

اللطيف هو استخدام كلمة «يلبسوا» فكأنما «لبسوا فوق إيمانهم لباسًا يغطيه أو يمنع ظهوره بشكله الناصع الواضح»؛ أو هي «الملابسة» أي «خلط الإيمان الناصع مع الظلم».

هنا تأتي كلمة «الظلم» ولا بد من معرفة المقصود منها من أجل تجنب أن نلبس الإيمان بالظلم.

مصطلح «الظلم» مهم جدًّا في القرآن الكريم، وهو ينتشر إلى ما هو أبعد من «ظلم الآخرين في أنفسهم أو أموالهم أو أعراضهم أو ما شابه». فإنه تعالى يطلق صفة «ظلم النفس» - «ومن يفعل ذلك فقد ظلم نفسه» وهو يتعدى ظلم الآخرين لأنه يكون بمعزل عنه كما يمكن أن يشمله.

وعليه، فإن «الظلم» هو ما ابتعد عن «العدل» في قليل أو كثير.

إذًا، «لم يلبسوا إيمانهم بظلم» من «الذين آمنوا» لها درجات لا نهاية لها، فإن المشمولين بالآية هم «من تجنبوا ما يشوه إيمانهم أو

---

(١) الأنعام:٨٢.

يفسده، بالكبائر أو تعمد الصغائر بحيث يسقط الإنسان أمامها، لا سيما إذا كانت الغفلة منتشرة في أوقات طويلة من الحياة».

وهذا كله لا يعلمه إلا الله تعالى؛ لأنه وحده الذي يعرف مدى ضعف الإنسان عمومًا، ونشأته والمؤثرات عليه، وظروف حياته، ومدى رغبته في الظلم أو الإقلاع عنه، وجميع العوامل المؤثرة...

أما النتيجة، أي "الأمن ومهتدون":

فهي الأخرى ربما تكون درجات، بل ربما يمكن الجزم بذلك، وذلك:

(١) بمقتضى الأحوال، لأنك ربما تشعر بالأمن الجسدي مع وجود ما ينغص الأمن النفسي.

(٢) بمقتضى عدل الله تعالى في أنه يعطي الأمن على قدر عدم تلبس الإيمان بظلم.

ولا ننسى «رحمة الله التي وسعت كل شيء» التي نتعلق بها ودون تردد في أن نكون ممن لهم الأمن وهم مهتدون.

الخلاصة: الناس تختلف ليس فقط ما بين مؤمن وكافر، ولكن لجهة منهجهم في اتباع الحق أم الظن، ثم السير مع الظن إلى الادعاءات الكاذبة والتخرص. كما يختلفون لجهة درجة الشرك الخفي وهم مؤمنون. ويختلفون لمدى تلبس إيمانهم بظلم، وعليه يختلفون بنتيجة الإيمان وهي الأمن والهدى.

الفَصْلُ السَّابِعُ

الخلافيات

الخلافيات

توضيح أولي:

المقصود بـ «الخلافيات» هي الأمور التي اختلفت عليها جماعتان من الناس، سواء كانت في الدائرة الإنسانية الواسعة، أو دائرة المؤمنين بالله - مثلًا بين المسلمين والمسيحيين، أو الدائرة الإسلامية، لأن جميع هذه الأطر تجدها في القرآن الكريم.

◆ لماذا الخلافيات؟ لماذا النبش في الماضي؟

يعترض البعض، لا سيما أثناء أيام الفتن ومنها أيامنا هذه، بأن:

- الكلام في الخلافيات يزيد النار اشتعالًا.

- الكلام في الخلافيات التي تأسست في الماضي إنما هو نبش في أحوال أمة لسنا مسؤولين عنها، ويأتون بقوله تعالى الذي جاء مرتين في سورة البقرة الآية ١٣٤ والآية ١٤١:

﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

الجواب:

(أولًا) معنى الآيتين:

(١)لم يقل: ولا تَسألوا عما كانوا يعملون؛ ولا حتى: ولا تَسألون، بمعنى وصف الحال ليكون كأنه الحال الأفضل؛ ولكن قال: «ولا تُسألون عما كانوا يعملون»، والمعنى واضح من الجانبين:

(٢)الجانب اللغوي - أنتم لستم «مسؤولين» عن أعمالهم.

(٣)جانب المعنى - إذا كان هناك عدم تداخل في العمل، ف»هم» «لها ما كسبت» و»أنتم» «لكم ما كسبتم»، فمن الطبيعي أن لا يكون هناك «مساءلة» لكم عن أعمالهم.

ولكن مع ملاحظة هامة جدًّا: إذا قمتم باستكمال ما قاموا به، أو بتقوية ما قاموا به، أو بترسيخ ما قاموا به، فإنكم مسؤولون عما تقومون به وإن ظننتم أنكم إنما تتبعونهم، لأن الله ذم الاتباع بالباطل كما هو معروف.

وعليه، فإن الآيتين الكريمتين تؤسسان لفهم، هو في حقيقته بديهي اليوم ولكنه لم يكن كذلك وقتها، مثلًا عقيدة المسيحيين إلى اليوم أن جميع اليهود مسؤولون عن قتل المسيح عليه السلام والذي استدعى الضغط المستمر على الفاتيكان حتى أعلن براءتهم منه قبل عقود.

وقد جاءتا في سياق الكلام عن أهل الكتاب وادعائهم

الإبراهيمية الخالصة لكل جماعة منهم، فهما تقولان لهما أن المهم هو العمل - عملكم أنتم، وليس الأشخاص الماضين.

فهو إذًا مما يدعونا إلى أن ننتبه إلى عدم الإفراط في الشخص لأننا سنغفل عن الفكرة والعبرة.

(ثانيًا) القرآن نفسه يدعو إلى النظر:

القرآن مليء بـ:

(١) أخبار الأمم السابقة.

(٢) أخبار الناس على العهد النبوي.

(٣) إضافة إلى القاعدة في كل هذا هي قوله: ﴿وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ﴾[١].

إذا ما تدبرنا الآية الكريمة، نجدها تتضمن جملتين:

«وكذلك نفصل الآيات» - من «ف ص ل» أي نعرضها متفرقة من أجل أن تكون واضحة.

«ولتستبين سبيل المجرمين» - لم يقل «نبين لكم» أو «تتبينوا»، ولكن «تستبين» هي بنفسها، مطلقًا، بحيث تكون قاعدة عامة يمكن من خلالها التعرف على «سبيل المجرمين»؛ وطبعًا من أجل «تجنب سبيل المجرمين» هذا.

---

(١) الأنعام: ٥٥.

ولا شك في أن الآيتين لكل منهما استقلال ما؛ وفي نفس الوقت ترتبطان ببعضهما:

«هكذا نفصل الآيات ومن أجل أن تستبين سبيل المجرمين»، أي «تفصيل الآيات هنا ليس فقط منهجًا قرآنيًّا في التفصيل ولكنه من أجل الاستفادة منه في توضيح سبيل المجرمين».

أما «سبيل المجرمين» فهو يشمل «طريقتهم الباطلة في الحياة» و«نتيجة ذلك من العذاب الإلهي».

◆ مثال على الخلافيات:

معلوم أن هناك خلافًا في أوساط المسلمين بشأن صحابة النبي ﷺ، فمنهم من يتعامل معهم كمعصومين حتى وإن لم يقل بعصمتهم، ومنهم من يجانب معظمهم إلى درجة التفريط بالمؤمنين الصادقين المجاهدين منهم. من الصحابة منافقون؛ ومن هؤلاء من كانوا من المؤمنين ثم كفروا بعد الإيمان؛ بل وارتكبوا الواضحات من المحرمات وبضمنها القتل؛ بل أكثر من ذلك، وهو ما هموا بفعله مع النبي ﷺ...

◆ الآيات من سورة التوبة

﴿يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِم قُلِ اسْتَهْزِؤُواْ إِنَّ اللّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ﴾

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِؤُونَ﴾

﴿لاَ تَعْتَذِرُواْ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُواْ مُجْرِمِينَ﴾(١).

ثم

﴿يَحْلِفُونَ بِاللّهِ مَا قَالُواْ وَلَقَدْ قَالُواْ كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُواْ بَعْدَ إِسْلاَمِهِمْ وَهَمُّواْ بِمَا لَمْ يَنَالُواْ وَمَا نَقَمُواْ إِلاَّ أَنْ أَغْنَاهُمُ اللّهُ وَرَسُولُهُ مِن فَضْلِهِ فَإِن يَتُوبُواْ يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ وَإِن يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ اللّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الأَرْضِ مِن وَلِيٍّ وَلاَ نَصِيرٍ﴾(٢).

(أما الآيات ما بينها، فهي متعلقة بها قطعًا، لأنها تقارن بين حال المنافقين والمنافقات قبال المؤمنين والمؤمنات، وجزاء كل فريق منهما، فيمكن مراجعتها).

(١) كيف يحذر المنافقون نزول سورة إذا كانوا غير مؤمنين بالقرآن أصلًا؟

الجواب: أنهم يحذرون من فعل النبي ﷺ بعد نزول السورة، حتى لو قالوا: إنها من صنعه، فهم يخشون من العقاب بغض النظر عن مصدر السورة.

---

(١) التوبة: ٦٤-٦٦.
(٢) التوبة: ٧٤.

(٢) ولكن الآية تقول ﴿تنبئهم بما في قلوبهم﴾ أي يخشون من كشف الداخل؟

الجواب: هذا يعني عدم وجود قطع في دواخلهم أن ما يقوله النبي ﷺ كذب.

(٣) ولكن حالهم الخارجي هو «الاستهزاء»؛ والله يعدهم بكشف دواخلهم.

(٤) عندما سيواجههم الرسول ﷺ بما كشفه الله له فإنهم سيتذرعون بأنهم كانوا «يخوضون ويلعبون».

(٥) وهذا عذر يضيف قبحًا آخر إلى قبح الفعل الأول، فالآية تقرعهم ﴿قُلْ أَبِاللّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِؤُونَ﴾؛ وهو ما يجب أن نلتفت فيه إلى أمرين:

الأول - أنها من آيات «قل» التي تعني أن الله يريد التشديد على أن ما سيقوله النبي ﷺ هو من أمره تعالى وليس من إنشاء النبي ﷺ ما يعطي الكلام حسمًا أكبر.

الثاني - القول المأمور به جوابًا على ما قالوا يجعل «الاستهزاء شاملًا لله والآيات والرسول»، وهذا يؤكد أن ما كانوا فيه كان يشمل الرسالة كلها.

(٦) ولكن اعتذارهم مردود ﴿لاَ تَعْتَذِرُواْ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾؛ وسبب رفض الاعتذار أنهم «كفروا» بعد «إيمانهم»، وهذه في غاية

الأهمية، لأنها تعني – وبوضوح – أنهم لم يكونوا من المنافقين الذين لم يؤمنوا من قبل، ولكنهم من الذين «آمنوا» من قبل «ثم كفروا».

والكفر بعد الإيمان يحصل قطعًا بإخبار القرآن عن وجوده في الناس ﴿إن الذين آمنوا ثم كفروا ثم آمنوا ثم كفروا ثم ازدادوا كفرًا﴾[١]. وهذا يقوي الجواب على الإشكال الأول بأنه في داخلهم ربما كان هناك باقية من احتمالية صدق النبي صلى الله عليه وآله وسلم.

(٧) ولكن لماذا ﴿إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُواْ مُجْرِمِينَ﴾ إذا كانوا جميعًا في الذنب سواء فلماذا العفو عن بعض والعذاب لبعض؟

من الممكن أن «الطائفة الأولى» لها عذرها فعلًا فلم تكن على علم تام بحقيقة الأمر.

لا سيما وأن سبب عذاب «الطائفة الأخرى» هو أنهم «كانوا مجرمين».

و«العفو» غير «المغفرة من الله»، فيمكن أن يكون «العفو من العذاب من النبي صلى الله عليه وآله وسلم».

فهذه الآيات الثلاث تتحدث عن قضية اشترك فيها مجموعة من المسلمين الذين كانوا من المؤمنين ثم كفروا، وهي من الفظاعة بحيث أنهم لن يجدوا دفعًا للتهمة فيها سوى القول: إنهم كانوا

(١) النساء: ١٣٧.

يلعبون، ومن الفظاعة بحيث أن الله تعالى يسمي القضية استهزاء بالله وآياته ورسوله ﷺ أي الإسلام كله.

(٨) والآن الآية ٧٤ ﴿يَحْلِفُونَ بِاللّهِ مَا قَالُواْ وَلَقَدْ قَالُواْ كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُواْ بَعْدَ إِسْلاَمِهِمْ وَهَمُّواْ بِمَا لَمْ يَنَالُواْ وَمَا نَقَمُواْ إِلاَّ أَنْ أَغْنَاهُمُ اللّهُ وَرَسُولُهُ مِن فَضْلِهِ فَإِن يَتُوبُواْ يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ وَإِن يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ اللّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الأَرْضِ مِن وَلِيٍّ وَلاَ نَصِيرٍ﴾

(٩) بعد تكذيبهم، أقسموا وهم يكذبون ﴿يَحْلِفُونَ بِاللّهِ مَا قَالُواْ وَلَقَدْ قَالُواْ كَلِمَةَ الْكُفْرِ﴾.

(١٠) لماذا قال ﴿وكفروا بعد إسلامهم﴾ هنا بعد أن قال ﴿كفرتم بعد إيمانكم﴾ قبلها؟

الأولى كانت من مواجهة النبي ﷺ لهم، فهو لا يستطيع اتهامهم بالخروج عن مجرد الإسلام، ولكنهم خرجوا بفعلهم عن الإيمان؛ في حين أن الثانية آية ٧٤ من قول الله العالم بسرائرهم فهو يعلن أنهم خرجوا حتى منه، بمجرد شهادة لا إله إلا الله محمد رسول الله.

(١١) تؤكد الآية أنه كان فعلًا خارجيًا فشلوا في تحقيقه «وهموا بما لم ينالوا».

(١٢) وبالتالي فإن «قولهم كلمة الكفر» يجمع مع «همهم بما لم ينالوا» ما يقطع أن القضية لم تكن مجرد «أقوال» كما في بعض

الروايات التفسيرية.

(١٣) ثم الآية تقرعهم بشكل كبير ﴿وَمَا نَقَمُوٓاْ إِلَّآ أَنْ أَغْنَاهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضْلِهِۦ﴾، فهم - أخزاهم الله - بدلًا من أن يصبحوا أكثر حبًّا ودفاعًا عن النبي ﷺ والدين الذي جاءهم بالفضل العظيم ولم يأتهم بأي شيء يضرهم، إذا بهم يفعلون الضد من ذلك.

وهنا ملاحظة: أن «الله تعالى يشرك الرسول ﷺ بالفضل مع الله تعالى» مع أن الفضل في الواقع هو من الله فقط، ولكنه يريد أن يقول لنا أن لا ننسى أن لرسول الله ﷺ فضلًا في أعناقنا لأنه ﷺ (أولًا) كان السفير من الله إلينا (ثانيًا) لأنه لم يأل جهدًا من أجل البلاغ.

(١٤) آخر الآية يفتح باب التوبة، مع ملاحظة أنها لا تعد بقبولها قطعًا وإن كان في كلمة «يكن خيرًا لهم» ما يفتح نافذة لذلك؛ في حين أنهم إذا استمروا على حالهم فإن الآية تنذر بالعذاب الأليم في الدنيا والآخرة. وهذا ربما يفتح احتمال أن «فإن يتوبوا يكن خيرًا لهم» أي إذا تابوا عن مثل هذا الفعل فإنهم يتجنبون عذاب الدنيا من النبي ﷺ ولم يقل «يتوب الله عليهم»، ولكن لأن دواخلهم فسدت بالكفر فإنهم لا يتجنبون عذاب الآخرة.

(١٥) فماذا قالت الروايات التفسيرية؟

مثل هكذا مجرمين سيجدون من يقوم بالدفاع عنهم فهذا هو الشيطان وأولياؤه الكبار. فقبل عرض إحدى روايات القصة الأصلية،

لو راجعتم الأسباب التي رووها للتغطية على الجريمة فستجدونها جميعها لا تصلح؛ لأن الآيات تتحدث عن «جماعة»، وأنهم «همّوا بأمر عظيم»، وأن «فيه استهزاء بالله وآياته ورسوله» أي الدين كله، وأنهم «قالوا كلمة الكفر»، وأنهم «يستحقون العقاب»، وأنهم «هيؤوا العذر أنهم كانوا يخوضون ويلعبون».

وعقدة الموضوع، الكلمتان:

الأولى - «ونلعب» لأنها لا تنطبق على الروايات الأخرى التي كلها تتحدث عن كلام لهم، في حين أن «اللعب» يعني «الفعل» المادي الخارجي.

الثانية - «وهمّوا بما لم ينالوا» «همّوا» بفعل شيء ولكنهم «لم ينالوا» ذلك الشيء.

والآيات تربط الأمرين، ومحصلهما لا يكون إلا الفعل الذي فشل، وهذا لا ينطبق عليه إلا المؤامرة الرهيبة التي تحدثت عن محاولتهم قتل النبي صلى الله عليه وآله وسلم بتنفير ناقته.

فحول الآيات الأولى روايات:

منها: أن المنافقين استهزؤوا ببشارة النبي صلى الله عليه وآله وسلم بفتح قصور الشام، فأطلع الله النبي صلى الله عليه وآله وسلم على كلامهم وواجههم.

ومنها: أن بعض المنافقين كانوا يضحكون بينما النبي صلى الله عليه وآله وسلم يتكلم فدعا عمارًا بن ياسر وشكا إليه استهزاءهم (لا بد أن تتضمن القصص

عمار لأنه أحد شهود القصة الأصلية!).

ومنها: أن رجلًا رمى النبي ﷺ وأصحابه بالجبن والكذب، فنزل جبريل عليه السلام وعند المواجهة مع النبي ﷺ قال: إنه كان يخوض ويلعب.

وأما آية «يحلفون بالله ما قالوا» فروايات:

منها: أن المنافقين كانوا في الخلوة يسبون النبي ﷺ ويطعنون في الدين، فنقله حذيفة فواجههم النبي ﷺ فحلفوا منكرين (هنا إشراك حذيفة الشاهد الثاني على المؤامرة!).

ومنها - وهي لطيفة -: أن جلاس بن سويد سمع النبي ﷺ في خطبة تبوك يصف المنافقين بالرجس فقال «لئن كان صادقًا فنحن شر من الحمير» فنقلها شخص إليه ﷺ فواجهه فنفى ذلك.

◆ الرواية الحقيقية الموافقة للآيات موضع التدبر

أنقلها من تفسير البغوي (وهو من القرن الخامس الهجري على المذهب الشافعي).

قال ابن كيسان «نزلت هذه الآية في اثني عشر رجلًا من المنافقين، وقفوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم على العقبة لما رجع من غزوة تبوك ليفتكوا به إذا علاها، ومعهم رجل مسلم يخفيهم شأنه، وتنكروا له في ليلة مظلمة، فأخبر جبريل رسول الله صلى

الله عليه وسلم بما قدروا، وأمره أن يرسل إليهم من يضرب وجوه رواحلهم، وعمار بن ياسر يقود برسول الله صلى الله عليه وسلم راحلته، وحذيفة يسوق به، فقال لحذيفة: «اضرب وجوه رواحلهم» فضربها حتى نحاها، فلما نزل رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لحذيفة: «من عرفت من القوم؟» قال: لم أعرف منهم أحدًا، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «فإنهم فلان وفلان حتى عدهم كلهم»، فقال حذيفة: ألا تبعث إليهم فتقتلهم؟ فقال: «أكره أن تقول العرب لما ظفر بأصحابه أقبل يقتلهم، بل يكفيناهم الله بالدبيلة»».

وفي رواية أن عمار روى قول النبي ﷺ: «إن في أمتي اثني عشر منافقًا لا يدخلون الجنة ولا يجدون ريحها حتى يلج الجمل في سم الخياط، ثمانية منهم تكفيهم الدبيلة، سراج من النار يظهر في أكتافهم، حتى ينجم من صدورهم».

انتهى من تفسير البغوي.

إذًا، بالجمع بين الروايتين:

هؤلاء الاثنا عشر هم أسوأ المنافقين على الإطلاق؛ لأن النبي ﷺ يفردهم باستحالة دخول الجنة بهذا الشكل. ولا يكون البعض الأسوأ من بين الكل إلا إذا كان داخله أسوأ من الآخرين أو يكون فعله أسوأ مما فعل الآخرون أو الاثنين معًا، ونحن لا نجد أسوأ من محاولة قتل النبي ﷺ.

◆ المؤامرة

كمنوا في الجبل أعلى من طريق سير الناقة، وعندما يصل النبي ﷺ يقومون بدفع صخور كبيرة كي تنزل وتقتله ﷺ أو تجعل الناقة تنفر بقوة فتسقطه ﷺ عنها إلى الأرض فتأتي عليه الصخور والعياذ بالله. بعدها ينطلقون إلى مواضعهم بين الجيش الذي خرج مع النبي ﷺ إلى تبوك.

ولكن بدلًا من أن يفضحهم الله تعالى منذ البداية، فإنه تركهم حتى بدئهم مباشرة الفعل. فعندما وصل النبي ﷺ إلى الموضع المعين، وكان معه عمار وحذيفة بن اليمان رضي الله عنهما أحدهما يقود الناقة والآخر يسوقها، وبدأ المجرمون بدفع الصخور نزل جبريل عليه السلام فأضاء الجبل حتى كشفهم للنبي ﷺ.

بعض الروايات تقول: إن النبي ﷺ ناداهم بأسمائهم، وغيرها، كما سمعتم، تقول: إنه سأل حذيفة عنهم فلما أجابه أنه لم ير وجوههم ولكنه عرفهم من رواحلهم أخبره النبي ﷺ بأسمائهم. وكما سمعتم أن النبي ﷺ أحجم عن قتلهم خشية أن تتحدث العرب أنه يقتل أصحابه ما يسيء إلى الإسلام ككل.

◆ روايات أهل السنة تذكر هؤلاء، كلًا أو بعضًا.

منها ما رواه مسلم في صحيحه كتاب صفات المنافقين وأحكامهم ج٨، ص١٢٣: عن أبي الطفيل قال: «كان بين رجل من

أهل العقبة وبين حذيفة بعض ما يكون بين الناس، فقال: أنشدك بالله كم كان أصحاب العقبة؟ قال: فقال له القوم: أخبره إذ سألك!» يبدو أن الرجل أحجم «قال: كنا نخبر أنهم أربعة عشر» هنا قال حذيفة: « فإن كنت منهم، فقد كان القوم خمسة عشر! وأشهد بالله أن اثني عشر منهم حرب لله ولرسوله في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد».

والسبب في التفريق بين الاثني عشر والثلاثة الباقين هو أنهم اعتذروا ويبدو أن عذرهم كان مقبولًا.

رواه أحمد في مسنده أيضًا[١].

أما «الرجل» الذي في الرواية أعلاه والذي غطوا على اسمه فهو «أبو موسى الأشعري»، فإننا نجده في مصادر أخرى.

أخرج ابن عدي في الكامل[٢] وابن عساكر في تاريخ دمشق ومنتخب كنز العمال بهامش مسند أحمد[٣] أن أبا نجاء حكيم قال: «كنت جالسًا مع عمار فجاء أبو موسى فقال: ما لي ولك؟ ألست أخاك؟ قال: ما أدري ولكن سمعت رسول الله يلعنك ليلة الجبل! قال: إنه استغفر لي، قال عمار: قد شهدت اللعن ولم أشهد الاستغفار!».

ولمن ربما يعترض على كلامنا أن هناك تغطية على أبي موسى

---

(١) مسند أحمد، ج ٥ ص ٣٩٠-٣٩١.
(٢) الكامل ج٢، ص٢٦٢.
(٣) مسند أحمد ج٥، ص٢٣٤.

والمجرمين الآخرين على أساس أنه من الصعب التغطية عليه، أذكره بأمرين:

(الأول) أن هذه المصادر كلها لم تكتب إلا بعد أكثر من مائة سنة على الأقل.

(الثاني) أن روايات أخرى نقلت ما يشبه ذلك مع التغطية على الأسماء؛ منها ما أخرجه أحمد في مسنده ج٥، ص٢٧٣ والهيثمي في مجمع الزوائد ج١، ص١١٢ (نقلًا عن الطبراني في المعجم الكبير) عن أبي مسعود قال: «خطبنا رسول الله خطبة فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: «إن فيكم منافقين فمن سمّيت فليقم!»، ثم قال: «قم يا فلان، قم يا فلان» حتى سمى ستة وثلاثين رجلًا!...»، فإذا كانت أسماء ٣٦ رجلًا قد تم التكتم عليها فكيف لا يتم التكتم على أسماء ١٥ رجلًا هموا بأعظم جريمة في التاريخ؟

علمًا أن هناك روايات سمتهم بأجمعهم، منها رواية عن «الوليد بن جميع».

◆ أخيرًا، إلفات مهم

لا تنسوا أن مؤامرة العقبة كانت بعد العودة من تبوك، وقصة تبوك بدأت بإعلان النبي صلى الله عليه وآله وسلم أن عليًّا عليه السلام هو ثاني هذه الأمة «أنت مني

بمنزلة هارون من موسى، إلا أنه لا نبي بعدي»[1].

ومن يرد فليراجع الروايات ليعلم كم هو مهم النظر في الأشخاص من «الأمة التي خلت» من أجل أن نعلم الذي «كسبت»، فنتعرف على «سبيل المجرمين» كي لا نقع فيه.

بل لكي لا نقع فريسة إضلال المضلين، فإن أبي بن كعب حذر من هؤلاء بقوله: «هلك أهل العقبة ورب الكعبة» قالها ثلاثًا ثم قال: «هلكوا وأهلكوا؛ والله ما عليهم آسى ولكن آسى على من يهلكون من بعدهم من المسلمين» كما رواه ابن إسحاق في السيرة النبوية.

والذي فيه اختلاف يسير عما رواه غيره كالإمام أحمد في مسنده «ألا هلك أهل العُقيدة (العُقدة)، والله ما آسى عليهم إنما آسى على من يضلون من الناس!»

ففي الأول هم أصحاب مؤامرة العقبة، وفي الثاني هم الذين تعاقدوا على صرف الأمر عن أهل البيت عليهم السلام ... وهُم هُم...

فهل إن المنافقين كعبد الله بن أبي مثلًا (والذي رميت عليه جميع آيات المنافقين!) هو الذي يخشى منه إضلال الناس وإهلاكهم؟!

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، وفتح الباري ج٧ ص٦٠، صحيح مسلم ج٧ ص١٢٠، وسنن ابن ماجة ج١ ص٤٥ رواية ١٢١، وسنن الترمذي ج٥ ص٣٠٣ رواية ٣٨١٣ و٣٨١٤، وفضائل الصحابة للنسائي ص١٣، ومسند أحمد الحديث ٥٩٧٢، وطبقات ابن سعد ج٣ ص٢٤، وتاريخ دمشق لابن عساكر ج١٣ ص١٥٠ وج١٨ ص١٣٨، وأنساب الأشراف للبلاذري ص٩٦، وغيرهم.

الفَصْلُ الثَّامِنُ

سنّة الابتلاء

سنّة الابتلاء

المقصود بـ «الابتلاء» هو الفعل الإلهي الذي يستهدف إدخال العبد في مدة زمنية – طالت أو قصرت – يظهر فيها كيف يتصرف إزاء التحدي الذي يواجهه في خضم ذلك الابتلاء. أي «الابتلاء» – من افتعال – يُظهِر «بلاء» – من فعال – العبد؛ لذلك يقال «ما أعظم بلاء فلان في المعركة» مثلًا.

وبالتالي فإن «الابتلاء» منه «بالحرمان» ومنه «بالعطاء».

الآيتان من سورة البقرة:

﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُواْ لِي وَلاَ تَكْفُرُونِ﴾

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اسْتَعِينُواْ بِالصَّبْرِ وَالصَّلاَةِ إِنَّ اللّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾[١].

ثم ثلاث آيات أخرى:

﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوفْ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الأَمَوَالِ وَالأنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾.

﴿الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُواْ إِنَّا لِلّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعونَ﴾.

(١) البقرة: ١٥٢–١٥٣.

﴿أُولَـئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَـئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾[١].

(أما البقرة ١٥٤ ﴿وَلاَ تَقُولُواْ لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبيلِ اللّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاء وَلَكِن لاَّ تَشْعُرُونَ﴾ فبحث منفصل، وإن كانت علاقته واضحة بالآيات الأخرى).

(١) فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ

هاتان الكلمتان هما النواة لمؤلفات ضخمة! لماذا؟ لأنهما تختصران:

(أ) ما ينبغي على العبد أن يكون عليه في كل حين، أو في أكثر الأحيان، أو على الأقل كلما «استيقظ» من الغفلة.

(ب) استجابة المولى عز وجل لهذا التوجه من العبد.

وهنا أمور:

أولًا، فائدة لغوية:

يستخدم القرآن الكريم الشرط من قواعد اللغة العربية، ولكن ليس دائمًا مع أداة الشرط، أي كما في قوله ﴿إنْ تجتنبوا كبائرَ ما تنهون عنه نكفّرْ عنكم سيئاتكم﴾[٢] فكانت جملة الشرط «إن تجتنبوا»

---

(١) البقرة:١٥٥-١٥٧.

(٢) النساء:٣١.

وجاء جواب الشرط «نكفر»...

بل يأتي بدون أداة الشرط، كما في قوله ﴿أقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضًا يخلُ لكم وجه أبيكم﴾[١] وبما أن «يخلُ» مجزوم بحذف الواو - أي لم يقل «يخلو» - فإنه جواب فعل الشرط «اقتلوا»، فيكون التقدير «إن تقتلوا يوسف يخلُ وجهُ أبيكم»...

ومثله ﴿فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفارًا يرسل السماء عليكم مدرارًا﴾[٢]، فالشرط هو «استغفروا» والجواب «يرسل»، فيكون التقدير «إن تستغفروا يرسل»..

ومثلها هاتان الكلمتان - فالتقدير «إن تذكروني أذكركم».

ثانيًا، معنى «ذكرنا إياه» هنا هو الانتباه إلى الله تعالى، أو الالتفات إلى وجوده المقدس في الحياة، فهو عكس الغفلة عنه سبحانه.

وأما «ذكره إيانا» فهو الاستجابة لانتباهتنا له وعدم غفلتنا.

(هناك نقاط أخرى سأوردها في الفصل التالي «مفاهيم مهملة»).

---

(١) يوسف:٩.
(٢) نوح:١٠.

(٢) وَاشْكُرُواْ لِي

وجدت الناس يسألون لماذا قال «واشكروا لي» ولم يقل «اشكروني»، وأجاب البعض أن هذا التعبير يعني «أشكروني واشكروا غيري» مثل ﴿اشكر لي ولوالديك﴾[١] بينما الثاني «اشكروني وحدي»، وهو مردود لأنه لا يمنع أيًا منهما من حصر الشكر أو نشره؛ والبعض قال أن التعبير يعني «اشكروا لي بالعمل»، ولكن يمكن «أشكروني بالعمل» أيضًا؛ والصحيح هو - وببساطة - أن «اشكروا لي» أفصح! ولكن لأننا اعتدنا على «اشكروني» ولا نستخدم «اشكروا لي» فإن الناس يستغربون فيسألون.

(٣) وَلاَ تَكْفُرُونِ

معنى «الكفر» يتأتى من المعنى الأصلي وهو «التغطية. فـ «الكفر العقائدي» هو «تغطية وجود الله. أما «الكفر بالنعمة» فهو «تغطية وجودها». وهنا نستطيع القول: إن متعلق «ولا تكفرون» هو «واشكروا لي» قبلها، فهو إذًا «كفر النعم».

(٤) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ

نداء لجميع المسلمين.

(١) لقمان: ١٤.

(٥) اسْتَعِينُواْ بِالصَّبْرِ وَالصَّلاَةِ

هنا أمور:

نلاحظ أولًا أنه جاء بـ «الصبر والصلاة» جميعًا فلم يفرق بينهما، مثلًا يقول «واستعينوا بالصلاة» ولم يقل «وبالصلاة»، (وقد ورد في نفس سورة البقرة قبل ذلك آية ٤٥ ﴿وَاسْتَعِينُواْ بِالصَّبْرِ وَالصَّلاَةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾)؛ وهذا يشير إلى التوجيه بالاستعانة بالاثنين معًا، مثلًا في نفس القضية التي يشعر الإنسان بالحاجة إلى العون.

أو أيضًا: عند الحاجة إلى العون، فإنك لا تستعين بالصبر بين الحين والآخر ولكن تكون صابرًا باستمرار، في حين أنه ليس عمليًا أن تستمر بالصلاة دون انقطاع؛ وعليه يكون المعنى الممكن: إستعينوا بالصبر حتى انقضاء المحنة وإستعينوا بالصلاة في أثناء ذلك.

(هناك نقاط أخرى سأوردها في الفصل التالي «مفاهيم مهملة».)

(٦) إِنَّ اللّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ

إذا كان الله «مع الصابرين» فهذه «المعية» لا يمكن إلا أن تكون «الضمانة الأكيدة للخروج بنجاح من اختبار الابتلاء»، لأنه تعالى (أ) يعينك على الابتلاء ذاته، فإنه ﴿لا يكلف الله نفسًا إلا وسعها﴾[١]. (ب) سيكون أكثر قربًا منك، أي أن «مدة الابتلاء» هي مدة تصاعد باتجاه علاقة أقوى مع المولى عز وجل.

(١) البقرة:٢٨٦.

(٧) وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ

أولًا: وعد مؤكد بـ «الابتلاء»، باستخدام «لام التوكيد» أوله و«نون التوكيد الثقيلة» آخره؛ وإلا فهي «نبلوكم» - وهذا استخدام مستفيض جدًّا في القرآن.

(تنبيه لغوي: البعض ربما لا يفرق بين «لام التوكيد» و«لام التعليل» و«لام الأمر» - الفروق بينها في الحركة وفي المعنى:

لام التوكيد: مفتوحة «لَـ»، لا تؤثر على المعنى إذا حذفت (نبلو/ لنبلو).

لام التعليل: مكسورة «لِـ»، تجعل الفعل بعدها سببًا ﴿لِتبين للناس ما نزل إليهم﴾[1].

لام الأمر: مكسورة «لِـ»، تجعل المعنى أمرًا ﴿ولِيطوفوا بالبيت العتيق﴾[2].

ثانيًا: المعنى «نبلو» أي نعرف ماذا ستفعلون، مثل ﴿ونبلو أخباركم﴾[3].

(٨) بِشَيْءٍ مِّنَ

إذًا، هو قليل من، أو بعض مما يمكن أن يكون أعظم وأشد.

(١) النحل:٤٤.
(٢) الحج:٢٩.
(٣) محمد:٣١.

واستخدام «من» بمعنى «من نوعه».

(٩) الْخَوفْ وَالْجُوعِ

فلن يكون غياب كامل للأمن «بحيث يطبق الخوف»؛ ولا غياب كامل للشبع «بحيث يطبق الجوع»؛ ولكن تأثير على «ما اعتدتم عليه» بحيث تشعرون بالخوف والجوع.

(١٠) وَنَقْصٍ مِّنَ

هنا، لا بد أن يكون «النقص في النعمة» لأنه ابتلاء.

واستخدام «من» أيضًا «النوع»، ولكن أيضًا «الكمية».

(١١) الأَمَوَالِ وَالأنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ

الأموال: الممتلكات، المنقولة وغير المنقولة، النقد وغيره.

الأنفس: النقص في الأنفس يحصل نتيجة الموت وأسبابه متعددة، كما يحصل نتيجة قلة الولادات أصلًا.

الثمرات: المنتج من العمل، سواء كان زراعيًّا أو صناعيًّا أو فكريًّا.

إذًا، سيكون الابتلاء شاملًا – الأمن والشبع والممتلكات والناس والإنتاج.

(١٢) وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ

ولكن هناك «البشارة» لمن؟ للصابرين، أي الذين يعضون على الآلام من ذلك الابتلاء المتنوع، ولا يتزلزلون...

(١٣) الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ

أولًا: هذا الاستمرار بكلمة «الذين» يستفاد من كلمة «الصابرين» في آخر الآية قبلها؛ ما يعني أن «وبشر الصابرين» تقوم بوظيفتين:

(أ) البشارة لمن صبر في مواجهة الخوف والجوع ونقص الأنفس والأموال والثمرات أعلاه.

(ب) البشارة لمن صبر في الموقف التالي.

ثانيًا: هذا الموقف هو عند «الإصابة بالمصيبة».

فهل إن «المصيبة» هنا مختصة بـ «مصيبة الموت» حصرًا؟

ظاهر الآية لا يدل على الحصر، وكلمة «مصيبة» على وزن «مفعلة» مثل «مدرسة» أي المكان أو الحالة التي ظهر فيها «فعل الإصابة»؛ إذًا، وبلحاظ الروايات التي شملت بوصف «المصيبة» «ما يصيب الإنسان مما فيه معاناة أو ألم أو نقص على أنواعه»، فإن «المصيبة» لا تختص بمصيبة الموت... ولكن...

١٤- ولكن «قَالُواْ إِنَّا لِلّهِ وَإِنَّـا إِلَيْهِ رَاجِعونَ»

لا نستخدمها في الغالب إلا «عند مصيبة الموت»؛ والربط ليس غير منطقي وذلك لما في هذا القول:

أولًا: يعلمنا الله تعالى ما نفعل عند نزول المصيبة وذلك بتوصيف ما يفعله الصابرون حينذاك «قالوا».

ثانيًا: قول جامع للحقيقة كلها «إنا لله» و«إنا إليه راجعون»، فهو الصدق التام، لأن نشأتنا الأولى من الله وأننا مملوكون لله، ثم معادنا إليه.

ثالثًا: وعندها، يحصر الموقف الصعب في أدنى حالة ممكنة عن طريق التذكير بالأصل والمالكية وبالنتيجة. وعليه، فما لنا نجزع عند نزول النازلة وكأن ما ذهب نملك منه شيئًا أو أننا الذي خلقناه أو أننا الذين سيعود إلينا؟

إذًا، هذا التذكير بالنشأة ثم بالمعاد «يربط المصيبة بالموت الذي سيكون المعاد بعده».

(١٥) أُولَـئِكَ

«أولئك» أقوى من «هؤلاء»، لأنها إشارة من بعيد، ما يعطيهم تفخيمًا. فهو نظير قوله تعالى ﴿أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم

أولو الألباب﴾، ويشبه ﴿ذلك الكتاب لا ريب فيه﴾[(١)] وليس «هذا الكتاب».

(١٦) عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ

«الصلوات» النازلة «عليهم» من «ربهم» التي يحيطهم بها، ليس «الإله»، ولكن «الرب»، بل «ربهم» الذي لم يزل يغذوهم وينعم عليهم ويعينهم على البلوى ويلفتهم إلى الحقيقة أنه هو المالك وهو المصدر وإليه المرجع، ويلفتهم إلى فوائد الصبر.

وأما الـ «رحمة» فهي أيضًا من «الرب» - عطفًا على «الصلوات» - وبالتالي تبشر باستمرار المدد منه تعالى في ذلك الوقت العصيب.

هنا سؤالان:

(الأول) معنى «الصلوات من الرب» هي «إنزال الرحمة على العبد»، وهي رحمة يمكن أن يكون لها معان عدة ﴿هو الذي يصلي عليكم وملائكته ليخرجكم من الظلمات إلى النور﴾[(٢)]، فالصلاة هنا رحمة منه سبحانه هدفها «إخراج العبد من الظلمات إلى النور» - فما معنى ذكر الاثنتين «الصلوات والرحمة»؟

(الثاني) لماذا جاءت «صلوات» بالجمع بينما «رحمة» بالمفرد؟

قيل «الصلوات» مصداق لـ «الرحمة» التي هي عامة شاملة في

(١) البقرة:٢.
(٢) الأحزاب:٤٣.

علاقة ربنا عز وجل بنا وهي دائمة في كل حين، ولكن في هذه الحالة هناك إضافة أو تقوية وهي «الصلوات»، وبالتالي فكأن هناك «الرحمة العامة والنوع الخاص وهو الرحمة»؛ وهذا يعطي جوابًا على السؤال الثاني أيضًا لأن «المفهوم يكون مفردًا» بينما «المصداق يمكن أن يكون مفردًا أو جمعًا».

وقيل «الصلوات» بمعنى «المغفرة»، وعندها تكون «الرحمة» بأي معنى للرحمة غير المغفرة.

وقيل «الصلوات» بمعنى «الثناء» أي على موقفهم، وقيل «الصلوات» هي أن «الله يذكرهم في الملأ الأعلى»، وعندها تكون الرحمة بأي من معانيها؛ وهذا المعنى جميل إذا ما ضممناه إلى «واذكروني أذكركم» لأن «الاسترجاع عند المصيبة» دليل عملي على «عدم الغفلة عنه تعالى، أي الذكر»، وطالما وعد سبحانه بذكره العبد إذا ذكره فإنه يذكره هنا بالصلوات.

(١٧) وَأُولَـٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ

لا شك في أن الذي يتصرف على هذا النحو هو من الذين لم يضل عن الطريق الوسطى، فهو المهتدي إلى الحالة الصحيحة، وذلك بناء على اهتدائه إلى حقائق الأمور.

واستخدام «أولئك» يشير إلى عظمة هذا الاهتداء؛ لأنه في ساعة شدة وليس رخاء.

الفَصْلُ التَّاسِعُ

مفاهيم مهملة

مفاهيم مهملة

المقصود بـ «مفاهيم مهملة» هي المفاهيم التي يغفلها المسلمون، إما بشكل جزئي أو بشكل يكاد يكون تامًا، - إلا الأقلية منهم بطبيعة الحال - أي:

إما أن يكون الناس ملتفتين إلى هذا المفهوم المهمل بحيث تجده في حياتهم، من قول أو فعل، ولكنه بشكل ضعيف قياسًا إلى ما ينبغي، أو أن يكون الناس غافلين عنه بحيث لا تكاد تجد له أثرًا في حياتهم - لا في تفعيله ولا في آثاره عليهم.

الآن، نعرج على المفاهيم الثلاثة التي طرحتها في الفصل السابق:

(١) الذكر (٢) الشكر (٣) الصبر

دون إعادة المعنى الممكن، ولكن من أجل الاستفادة من تدبر الآيات في معانيها في حياتنا.

علمًا أن هذه المفاهيم الثلاثة مفاهيم مفصلية لأنها تمتد في حياتنا كلها، وذلك لأن:

الذكر - عدم الغفلة عن الله تعالى، أي ذكره في كل حال، وكلما كان الذكر محيطًا بمدد أطول من حياتنا اليومية كلما كانت نتائج الغفلة - وهي المدد الأخرى التي يغيب الذكر فيها - أقل، وكلما كان الذكر أشد كانت نتائجه الإيجابية أعظم.

الشكر - لأن نعم الله تعالى لا تنقطع لحظة واحدة فإن الشكر يجب على الدوام.

الصبر - لأنه لا يمكن الهروب من الابتلاء، بما يعده الناس رزايا وصعوبات ومكاره أو ما يعدونه محبوبًا، وبالتالي فإن تفعيل الصبر لا مهرب منه.

***

﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُواْ لِي وَلاَ تَكْفُرُونِ﴾، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اسْتَعِينُواْ بِالصَّبْرِ وَالصَّلاَةِ إِنَّ اللّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾[١]، ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوفْ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الأَمَوَالِ وَالأنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾، ﴿الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُواْ إِنَّا لِلّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعونَ﴾[٢].

(١) فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ

قلت: إن معنى «ذكرنا إياه» هنا هو الالتفات إلى وجود الله في

---

(١) البقرة:١٥٢-١٥٣.
(٢) البقرة:١٥٥-١٥٦.

الحياة، فهو عكس الغفلة عنه سبحانه. لهذا تجده يعلمنا أن «ذكر الله» هو أعظم من كل شيء، فيقول: «ولذكرُ الله أكبر» أي «أكبر من أي شيء آخر». فقد روي عن الإمام الصادق عليه السلام: «... وذكر الله في كل موطن، أما إني لا أقول: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر، وإن كان هذا من ذاك، ولكن ذكر الله في كل موطن، إذا هجمت على طاعته أو معصيته»(١) - أي أن «التسبيحات الأربع» هي من أنواع الذكر، ولكن الذكر «الأكبر» هو عدم الغفلة في الحالتين: الطاعة والمعصية.

أما «ذكره إيانا» فهو الاستجابة لانتباهتنا له وعدم غفلتنا... لأنه يرد إلى الذهن سؤال: هل إنه تعالى لا يذكرنا إلا إذا ذكرناه؟

الجواب: قطعًا لا؛ بل هو يذكرنا على الدوام، بل لا يمكن أن يغفل عنا فهو ﴿لا تأخذه سنة ولا نوم﴾(٢) من جانب، و﴿ما كان ربك نسيًا﴾(٣) من جانب آخر.

فهو يحوطنا بنعمه الظاهرة والباطنة وألطافه الخفية في كل لحظة من وجودنا حتى مع الغفلة، بل والغفلة التامة من الكافرين.

إذًا، هي عناية إضافية، أو تشديد العناية الموجودة أصلًا، أو عناية محددة متعلقة بتوجهنا المحدد في ذلك الحين. فقد روي أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: «... خير أعمالكم عند مليككم وأزكاها وأرفعها في

(١) بحار الأنوار ج٩٠ ص١٥٤ رواية ١٧.
(٢) البقرة: ٢٥٥.
(٣) مريم: ٦٤.

درجاتكم وخير ما طلعت عليه الشمس ذكر الله تعالى، فإنه تعالى أخبر عن نفسه فقال: أنا جليس من ذكرني، وقال تعالى: فاذكروني أذكركم بنعمتي، اذكروني بالطاعة والعبادة أذكركم بالنعم والإحسان والراحة والرضوان»[١].

- إذًا، أن «نذكره» يعني أن نلتفت إلى وجوده بأشد ما نستطيع، وهو ما سيسهم في إعطائنا ذلك السلام الداخلي المنشود - ﴿ألا بذكر الله تطمئن القلوب﴾[٢] - بغض النظر عما سيتحقق فيما بعد من «ذكره هو لنا» كنتيجة...

وكلما كان هذا التفاعل مستغرقًا لأوقات أطول من حياتنا، وبدرجات أعمق، كلما كانت الثمرة أعظم، إلى أن تصل «أذكروني» إلى حالة «الانشغال بالذكر عن الطلب» عندها تكون الاستجابة «أذكركم» أعظم في العطاء مما لو طلب - فعن الصادق عليه السلام «إن الله تبارك وتعالى يقول: من شغل بذكري عن مسألتي أعطيه أفضل ما أعطي من سألني»[٣].

(٢) وَاشْكُرُواْ لِي

الشكر مراتب عديدة ينبغي أن نتعرض إليها عند تدبر آيات الشكر بشكل مخصص. ولكن يكفي إلفات النظر هنا إلى ضرورة

---

(١) رواه ابن فهد الحلي في عدة الداعي، ورواه ابن ماجة والترمذي وأحمد في مسنده.

(٢) الرعد: ٢٨.

(٣) رواه البرقي في المحاسن.

عدم الوقوع في حبائل ضعف النفس في الوقت الذي يظن الإنسان أنه يشكر الله على نعمه.

فإن أدنى درجات الشكر هي قول: «الحمد لله» أو «الشكر لله» أو مثيلاتهما، شريطة أن يكون قاصدًا فعلًا ما يقول؛ لأنه -ومن المؤسف- أن الكثير من الناس تسأله «كيف الحال؟» فيجيبك «الحمد لله» وربما قالها باكتئاب، فإذا ما ثنيت السؤال «وكيف الحال بعد؟» هنا تنطلق الشكوى وبشكل لا يمكن أن يكون هذا الإنسان يشكر الله حقًا.

درجة أعلى من الشكر هي: أن يشعر العبد الشاكر في داخله بالنعمة بشكل يشعر معه بشيء من الفرح والرضا.

وبدرجة أكثر علوًّا: أن يتحدث الإنسان بالنعمة التي يشكر عليها بشكل ينطبق عليه ﴿وأما بنعمة ربك فحدث﴾[(١)] - دون تلك المخاوف والوساوس من الحسد وما إلى ذلك -، عندها كأنه يشيع ثقافة الشكر ويرسخ رضاه بما آتاه الله في نفسه.

وبدرجة أكثر علوًّا وسموًّا: أن يعطي الإنسان من النعمة المشكورة إلى الآخرين، عندها يدخل في «الشكر العملي»، فلسان حاله: يا رب، أنعمت علي وأريد أن أشكر لك بشكل أنت تحبه وهو أن يشاركني غيري هذه النعمة لأنك تحب المحسنين، أو لأني سمعت نبيك ﷺ يقول «خير الناس من نفع الناس».

---

(١) الضحى: ١١.

ثم يتصاعد إلى درجة هي: إعطاء كل ما زاد عن حاجته من تلك النعمة المشكورة.

ويتصاعد فيصل إلى درجة: الإيثار، بحيث يعطي الآخرين «ولو كان بهم خصاصة»، كي يدخل في عداد ﴿ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون﴾(١).

(٣) وَلَا تَكْفُرُونِ

إذا كفرت النعمة، إما:

- بعدم شكرها: مجرد الشكر اللفظي الحقيقي، أو بحالات الشكر الأعلى، فإنك كمن «يغطي» هذا العطاء لأنه ستره بغفلته أو بإهماله الشكر الحقيقي عليه، أي هو «يكفر به»؛ أو:

- بعدم إظهارها، خوفًا من الآخرين من حسد أو مكر أو كيد، فهو «تغطية» أي «كفران» بها.

هذا «الكفران» أثره السلبي يقع علينا، لأنه تعالى، وكما وصفه سليمان عليه السلام «فمن شكر فإنما يشكر لنفسه، ومن كفر فإن ربي غني كريم»؛ واللطيف أنه عليه السلام يعتبر ما آتاه الله من النعم العظيمة «ابتلاء» فتراه يقول قبلها: ﴿هذا من فضل ربي ليبلوني أأشكر أم أكفر﴾(٢).

فكما أن عائدة الشكر للشاكر فإن نتيجة الكفران عليه لأنه

---

(١) الحشر: ٩.
(٢) النمل: ٤٠.

سيخرج من «فاذكروني أذكركم».

(٤) اسْتَعِينُواْ بِالصَّبْرِ وَالصَّلاَةِ

- مفهوم «الصبر» معروف عند الناس جميعًا، ولكن هناك درجات كثيرة جدًّا من «الصبر»، حتى أن بعضها لا يصدق عليه «الصبر» بينما صاحبه يظن أنه من الصابرين، بل ربما يصدق عليه «الجزع»؛ وبعضها يتصاعد في «الصبر الحقيقي» بحيث أن صاحبه يندرج تحت عنوان «الإيمان نصفان: نصف صبر ونصف شكر» - ما يربط لنا بين المفهومين أعلاه: الشكر والصبر.

- وأما «الصلاة»، فهي هنا «الصلاة عند المسلمين» لأن القرآن جعل لـ «الصلاة بمعناها العام وهو الدعاء» معنى خاصًا وهو الشعيرة العبادية المعروفة»؛ لذا، نجد المسيحيين مثلًا يقولون «نصلي» ويعنون «ندعو».

- ولا شك في أن «الاستعانة بالأمرين - الصبر والصلاة» تكون في موارد الابتلاء التي «تعد من الصعوبات»... ولكن...

- ولكن إذا ما تصاعد العبد في فهمه ووعيه فإنه يبدأ بتفعيل «الصبر والصلاة» في موارد الابتلاء التي «تعد من العطايا»... فهذا يرى أن «الابتلاء الصعب إنما هو نعمة»، وذلك لأنه (أ) يعني أن الله يحبه «إن الله إذا أحب عبدًا غتّه بالبلاء غتًّا»[١] و«إذا أحب الله عبدًا

(١) الكافي ج٢ ص٢٥٣ رواية ٦.

ابتلاه بعظيم البلاء»[١] وهو بحث آخر (ب) يخرج أقوى ما عنده من قدرات في مواجهة التحديات وهو بحث آخر أيضًا.

- هنا أسأل: ما الذي يربحه الجازع قليل الصبر؟

لا شيء مطلقًا، لأن الجزع ليس إلا حالة انفعالية، سواء بقيت في الداخل أو خرجت على شكل أفعال بدنية، بعدها يهدأ ولم يحقق شيئًا.

ولكن: ما الذي يخسره الجازع؟

إنه يخسر الكثير، فهو يبتعد عن الله تعالى؛ وهو يكشف ضعفه أمام الناس، ونقاط الضعف ينبغي أن يحاول الإنسان - وهو يفعل عادة - عدم كشفها، وهو محمود عملًا بالشعر المنسوب لأمير المؤمنين عليه السلام:

ولا تُرِيَنَّ الناسَ إلّا تجمُّلًا   نَبا بكَ دهرٌ أو جفاكَ خليلُ

أي لا تريهم إلا نقاط القوة تحسبًا لأيام صعبة أو لانقلاب الخليل الذي يعرف نقاط ضعفك عدوًا.

وما نسي الإنسان فلا يجب أن ينسى قوله تعالى ﴿إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب﴾[٢] - فهل هناك نعمة أكبر من هذه؟

(١) نفس المصدر رواية ٨.
(٢) الزمر: ١٠.

(٥) إِنَّ اللّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ

وحتى يكون موعد الأجر بغير حساب، فإن الصابر يتمتع بـ«معية الله» وهي لا تقارن بأي راحة مؤقتة ربما يشعر بها الجازع.

ملاحظة: الناس يختلفون في قدراتهم على الاحتمال «لا يكلف الله نفسًا إلا ما آتاها»[١]، ولكن كلما أسرع الصبر إلى الإنسان كلما كان أحسن، والأحسن تمامًا هو ما وصفه النبي ﷺ «الصبر عند الصدمة الأولى»[٢].

ملاحظة مهمة: لا شك في أن الصبر مع المعاناة وبالشكل الذي تناولناه يأتي بالثواب الجزيل، ولكن لو استطاع الإنسان أن يتعامل مع المعاناة بشكل يحيّد آثارها السلبية عليه بحيث لا يكون الصبر عبارة عن ضغط للمعاناة في الداخل حتى تنتج العقد النفسية والمشاكل البدنية فإنه يفوز بالأمرين: الصبر وأجره والتخلص من آثار بعيدة المدى محتملة.

وهذا يقود إلى الوسائل العملية خارج بحثنا.

(٦) وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ

هذه «البشارة» للصابرين عامة في كل مورد صبر... كما أنها في الربط مع ما بعدها...

---

(١) البقرة:٢٨٦.

(٢) سنن أبي داود رواية ٣١٢٤.

(٧) قَالُواْ إِنَّا لِلّهِ وَإِنَّـا إِلَيْهِ رَاجِعونَ

ولكـن: كـم مـن النـاس مـن يقـول «إنـا لله وإنـا إليـه راجعـون»؟ ومـن ينجح معه هذا القـول في تحمـل النازلة؟

مؤكـد أننـا نـرى بعـض النـاس «يظهـرون جزعًـا شـديدًا» مـا يجعلهـم علـى الضـد مـن هـذه الحالـة التـي تثنـي عليهـا الآيـات؟

ولا أعنـي هنـا الذيـن يظهـرون الجـزع كمـا هـو دون مواربـة؛ ولكـن أعنـي الذيـن «يقولـون» كلمـة «الاسـترجاع - إنـا للـه وإنـا إليـه راجعـون» ولكنهـم فـي ذات الوقـت «لا يستشـعرونها فـي داخلهـم»...

أي: كلمـة «قالـوا» لا تعنـي «القـول المجـرد» وحسـب، ولكنهـا تشـمل «الشـعور الحقيقـي» بحقيقـة الكلمـات فـي «إنـا للـه وإنـا إليـه راجعـون».

وهذه درجات كما هي حالة «الصبر» التي ذكرتها أولًا.

فـإن أيـة كلمـة «تقـال فقـط» ربمـا تسـقط الفـرض، ولكنهـا لـن تحقـق المـراد منهـا. وإلا فعندمـا يقـول النبـي ﷺ: «قولـوا: لا إلـه إلا اللـه، تفلحـوا»[1] فإنـه لا يمكـن أن يعنـي مجـرد القـول، ولكـن يعنـي: القصـد فـي الداخل/ النيـة، والشـعور بهـا، والقـول، والاسـتمرار عليهـا.

---

(١) الطبراني ج١ ص٦١ رواية ٤٥٨٢، وغيره.

الفَصْلُ العَاشِرُ

كلمة «قُلْ»

كلمة «قُلْ»

السبب في الاهتمام بهذه الكلمة «قـُلْ» هو الآتي:

إن القـرآن كلـه مـن إنشـاء اللـه تعالـى، وعليـه فإنـه مـن تحصيـل الحاصـل أن الوحـي عندمـا نـزل فهـو يقـول لـه ﷺ: «قـل: كـذا وكـذا»، فلمـاذا تـرى تأتـي العبـارات أو الجمـل أو الآيـات مصـدرة بكلمـة «قـُل»؟ هـذا مـا سـأحاول إلفـات النظـر إليـه كـي ننتبـه أكثـر عندمـا نقـرأ القـرآن.

وردت هـذه الكلمـة مئـات المـرات (قيـل: ٣٣٢ مـرة ولكنـي لـم أتحقـق مـن هـذا/ وقيـل: إن كلمـة «قالـوا» تكـررت بالضبـط بنفـس العـدد!)، وسـآتي اليـوم بعشـرين آيـة ربمـا تسـتوعب الأهـداف المتنوعـة لاسـتخدام هـذه الكلمـة فـي القـرآن الكريـم.

وسـيكون الـكلام بالإشـارة السـريعة إلـى مـا أفهمـه مـن دلالـة اسـتخدامها، وذلـك لأن جميـع هـذه الآيـات فيهـا ممـا أشـرت إليـه فـي أقسـام التدبـر التـي مـرت.

***

بعض أمثلة «قُل» في القرآن المجيد

١ - ﴿وَقَالُواْ لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾(١).

◆ في المحاججة

لو لم يصدر الكلام بـ «قُل»: يمكن أن يجيبوه «نعم اتخذنا عند الله عهدًا»؛ ولكن مع «قُل»: الذي يمكن الادعاء عليه - وهو الله تعالى - لأنه هو الذي ينفي ذلك.

٢- ﴿وَقَالُواْ لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُواْ بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾(٢).

◆ في مبادئ المحاججة

لأنهم «قالوا»، والقول لك أو وصل إليك: إذًا أجبهم بالمبدأ الأساس في المحاججة، وهو طلب البرهان.

مع «قُل»: الله يأمره بطلب البرهان منهم لأن دعواهم بحصرية الجنة عليهم لا يعلم بحقيقتها إلا مالك الجنة والنار وهو الله تعالى.

ثم يعلمنا: المبدأ الأساس في المحاججة، وهو «طلب البرهان»،

---

(١) البقرة:٨٠.
(٢) البقرة:١١١.

فلا نقبل شيئًا دون برهان، كما لا نرفض شيئًا دون برهان.

٣- ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ كَذَلِكَ يُبيِّنُ اللّهُ لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾(١).

◆ لأنهم «سألوك»: إذًا أجبهم.

مع «قُل»: الجواب من عندي أنا العالم بحقيقة الخمر والميسر.

وأما النصيحة بأن ينفقوا «العفو» أي جميع ما يزيد عن الحاجة (وهي نصيحة فحسب، فلم يقل «أنفقوا العفو»، لأن هذا هو المتوقع قبوله من الناس) فلو صدر منه صلى الله عليه وآله وسلم فلربما اعتبر مبالغة عن أي حد ممكن من أي إنسان.

٤- ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاء وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاء وَتُعِزُّ مَن تَشَاء وَتُذِلُّ مَن تَشَاء بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىَ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾(٢).

◆ تعليم الدعاء المشتمل على معارف أساسية

وجدنا تعليم المعارف الإلهية الأساسية فيما بعد في الخطب والكلمات والأدعية التي وصلتنا، ولكن في زمان النزول كان هو زمان التأسيس لهذا، والقرآن هو الذي يقوم بالمهمة، فيحدد المالكية المطلقة

(١) البقرة:٢١٩.
(٢) آل عمران:٢٦.

لله - في الأموال والأنفس والقابليات وفي السلطة، والتي وجدنا تطبيقاتها «تؤتي الملك» «تنزع الملك» بشكل مستفيض عبر التاريخ.

مع «قُل»: يعلمنا أن نقول هذا على نحو الدعاء، أي التوجه إلى الله تعالى بهذه الحقائق، طبعًا من أجل إعلان الاعتراف بها، ومن أجل ترسيخها الدائم في أنفسنا.

٥- ﴿قُلْ إِن تُخْفُواْ مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ اللّهُ وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَاللّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[١].

◆ مبادئ إيمانية أساسية، والتفاعلات مع الخارج

بدون التصدير بـ «قُل»: يبقى دعوة من النبي صلى الله عليه وآله وسلم، أو يمكن أن تفهم هكذا لمن يريد التخفف من مراقبة الله تعالى؛ مع أن المؤمنين يوقنون بهذا.

مع «قُل»: الله ينبهنا إلى معرفته بما نظهر وما نبقيه في الداخل، سواء كان في الجانب الإيماني -أي ضعف الإيمان أو انعدامه، أو التزلزل في بعض العقائد- أو في جانب التفاعلات من الناس من حقد وحسد وبغض وسوء ظن، أو عكسها من المشاعر الجميلة، وكلها مما ينطلق من الفرد فيؤثر بأشكال مختلفة؛ فجاء التنبيه من أجل مساعدة الفرد على التخلص أو التخفف من هذه الأفكار والمشاعر.

(١) آل عمران: ٢٩.

٦- ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[1].

◆ مبدأ أساسي، ونتيجة

بدون التصدير بـ «قُل»: ربما سيقول البعض من ضعاف الإيمان إنه ﷺ يريد تحقيق اتباعهم له بأي وسيلة ومنها ربطها بما هو أعظم منها وهو محبة الله تعالى.

مع «قُل»: يؤكد أن الله تعالى - هدف المحبة المفترضة - هو الذي يربطها باتباعه ﷺ، بل يجعله شرطًا لها؛ هذا أولًا.

وثانيًا، النتيجة المتحققة من هذا هي الغاية العظمى لأي مؤمن، وهي محبة الله له وغفرانه.

٧- ﴿قُلْ أَطِيعُواْ اللّهَ وَالرَّسُولَ فإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾[2].

◆ فرض طاعته ﷺ، والرفض يعني الكفر

بدون التصدير بـ «قُل»: مشابه لأعلاه - فإنه ﷺ يريد منهم طاعته، خصوصًا مع الاستقلال النسبي في هذه الآية لأنه ﷺ ذكر بلفظة «الرسول» وليس «رسوله»، وعليه ستكون في الأمور الأخرى

(١) آل عمران:٣١.
(٢) آل عمران:٣٢.

غير بلاغ نص القرآن فقط، ولكن ستشمل البيان؛ مرة أخرى هذا لضعاف الإيمان، لأن المؤمن يعتبر طاعة الرسول ﷺ أمرًا مفروغًا منه.

ومع «قُل»: يؤكد أن الله تعالى هو الذي عطف طاعته ﷺ على طاعته سبحانه؛ هذا أولًا.

وثانيًا، نتيجة عدم تفعيل الطاعتين «فإن تولوا» هو وصمهم بالكفر.

٨- ﴿فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِن بَعْدِ مَا جَاءكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْاْ نَدْعُ أَبْنَاءنَا وَأَبْنَاءكُمْ وَنِسَاءنَا وَنِسَاءكُمْ وَأَنفُسَنَا وأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَةُ اللّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾[١].

◆ الفصل في النزاع، وتحديد أهل البيت عليهم السلام من الله

بدون التصدير بـ «قُل»: سيقولون: إنه دعا إلى طريقة المباهلة في حسم النزاع كطريقة يفضلها هو أو من إنشائه هو؛ كما سيقولون: إنه إنما أتى بعلي وفاطمة والحسنين عليهم السلام لأنهم أهل بيته ﷺ، أي على نحو العصبية العائلية (خصوصًا الإتيان بعلي عليه السلام بصفة «أنفسنا» وهي -برأيي- أعظم فضيلة لعلي عليه السلام مطلقًا لأنها تقول للناس: «إنكم إذا أردتموني ولم تجدوني فإن الرجل الذي وصل إلى أعلى ما يمكن أن يصل إليه شخص في محبته لله ورسوله ﷺ وطاعته واتباعه وتلبسه بالإسلام كله هو علي بن أبي طالب، والمنافسة

---

(١) آل عمران: ٦١.

الطبيعية كبشر من الآخرين تجعل الأمر عسيرًا أو غير مريح على الأقل)؛ ومثلهما الدعاء الذي يقترح في المباهلة إنزال اللعنة على الكاذبين.

ومع «قُل»: يؤكد أن الله تعالى هو الذي أمر بذلك كله.

٩- ﴿هَاأَنتُمْ أُوْلاء تُحِبُّونَهُمْ وَلاَ يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُواْ آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ عَضُّواْ عَلَيْكُمُ الأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُوتُواْ بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾[١].

◆ تعليم التقريع اللفظي بعد كشف المكنون

بدون التصدير بـ «قُل»: كأن النبي ﷺ ينفعل فيقرعهم بكلمة «موتوا بغيظكم».

مع «قُل»: الله تعالى هو الذي أمره ﷺ بأن يقول هذا لهم، بعد أن كشف عن حقيقة ما هم فيه من الحقد الشديد على المؤمنين (والحاقدون يبدو أنهم من أهل الكتاب لقوله «وتؤمنون بالكتاب كله»، ولكن يمكن أن يشمل غيرهم من أدعياء الإسلام لقوله «وإذا لقوكم قالوا آمنا» لأن اليهود لم يكونوا يقولون ذلك).

١٠- ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلاَلَةِ إِنِ امْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ وَهُوَ يَرِثُهَآ إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌ فَإِن كَانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ وَإِن كَانُواْ إِخْوَةً رِّجَالاً وَنِسَاء

(١) آل عمران:١١٩.

فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنثَيَيْنِ يُبَيِّنُ اللّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّواْ وَاللّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾[١].

◆ الفتوى بعد السؤال، وحساسية قضايا المال

لأنهم «طلبوا منك الفتوى»: إذًا أجبهم بالفتوى.

مع «قُل»: الفتوى من عندي أنا المشرع الوحيد فلا يجوز لك ولا لغيرك التشريع. وبما أن القضايا المالية تنتج الخلافات لأن الناس على ما وصفهم الله العالم بهم ﴿وتحبون المال حبًا جمًا﴾[٢] فإنه سبحانه، بينما ترك الصلاة ليبينها النبي ﷺ فإنه فصل أحكام الميراث تفصيلًا كاملًا في القرآن.

١١- ﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَـذَا الْقُرْآنِ لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾[٣].

◆ تحدي مقارعة القرآن يأتي ممن أنزله سبحانه

بدون التصدير بـ «قُل»: يبقى وكأنه ادعاء من الرسول ﷺ وليس من المنزل نفسه سبحانه، فيمكن رده بأنه ﷺ لا يستطيع القطع أن مقارعة القرآن مستحيلة أبد الدهر لأنه لا يملك العلم المطلق بهذا.

مع «قُل»: الله تعالى يجمع الأمرين، هو المنزل للقرآن فيعلم

(١) النساء: ١٧٦.
(٢) الفجر: ٢٠.
(٣) الإسراء: ٨٨.

أسراره الدفينة المتجددة وفي نفس الوقت عنده العلم المطلق بما يمكن حصوله حتى آخر الزمان من تطور القدرات الإنسانية في العلوم واللغة والصياغات ومع ذلك يجزم بأنهم لن يستطيعوا مقارعة القرآن.

١٢- ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾(١).

◆ فرض طاعته صلى الله عليه وآله وسلم من الله

وطاعته صلى الله عليه وآله وسلم خارج نص القرآن، ولا إكراه، والهدى في طاعته وبدون التصدير بـ «قُل»: كأن النبي صلى الله عليه وآله وسلم يريد جذبهم إلى طاعته، بل وحتى إعفاء نفسه من أي مسؤولية في حالة رفضهم/ توليهم وأنه إنما عليه البلاغ المبين.

مع «قُل»: صحيح أن هناك آيات عديدة تأمر بطاعته صلى الله عليه وآله وسلم دون التصدير بـ «قل»، لكن هذه الآية تستخدم «قل»، ربما كونها ليس فقط تأمر بطاعته والتي فيها استقلال نسبي كونها تصفه بكلمة «الرسول» وليس «رسوله» التي تنسبه لله تعالى ما يشير إلى نص القرآن فحسب- ولكن أيضًا كي تقول لهم: إنه في حالة توليهم عن طاعة الله والرسول صلى الله عليه وآله وسلم فإن المسؤولية تقع عليهم هم؛ ثم تنبه مباشرة

(١) النور: ٥٤.

إلى أن المسألة لا ينبغي أن تبدو أن إعطاءهم الحرية يعني تساوي الحالتين -حالة الطاعة وحالة التولي- لأن حالة الطاعة تؤدي إلى الهداية؛ ثم تثبت ما قلناه من أن وصفه بكلمة «الرسول» تعني أكثر من نص القرآن عندما تقول: إن مهمته هي «البلاغ المبين» فهو ليس فقط «البلاغ» أي النص، ولكن «المبين» أي الذي يبين النص.

١٣- ﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى اللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾[١].

◆ تعليم السلام على المصطفين

بدون التصدير بـ «قُل»: لأن «السلام» هنا يشمل أول من يشمل النبي ﷺ المخاطب بالآية المباركة فإنه سيقال أنه ينشئ ذلك لنفسه؛ أيضًا لأن السلام سيشمل إخوانه الأنبياء والمرسلين عليهم السلام، ثم سيشمل أهل بيته عليهم السلام بالخصوص (المطهرين بنص الكتاب، والمطهر من العباد المصطفين قطعًا لأن التطهير يعني اصطفاه الله بالتطهير واصطفاه الله من أجل مهمة)، فالأمر يحتاج إلى تحييده ﷺ.

مع «قُل»: الله تعالى هو الذي يقوم بذلك؛ فهو يعلمنا بشكل مشابه لآية الصلاة والتسليم على النبي ﷺ ﴿إن الله وملائكته يصلون على النبي، يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليمًا﴾[٢]

(١) النمل: ٥٩.
(٢) الأحزاب:٥٦.

والتـي صدرهـا بالنـداء ﴿يـا أيهـا الذيـن آمنـوا﴾[١].

ينبغي الالتفات هنا إلى أمور:

(١) يبـدأ التعليـم بالحمـد «الحمـد للـه» مطلقًـا، إضافـة إلـى إلفـات النظـر إلـى النعمـة.

(٢) ثـم يضيـف السـلام علـى المصطفيـن مـا يعنـي أن هـذه النعمـة قطعًـا تشـمل النعمـة علـى الخلـق بهـؤلاء المصطفيـن الأخيـار.

(٣) أن الاصطفـاء لا يخـرج هـؤلاء المصطفيـن مـن صفـة «العبوديـة» فمهمـا بلغـوا فهـم عبيـد للـه.

(٤) أن «السـلام» يعنـي أن تكـون - أنـت الـذي ستسـتجيب للآيـة فتحمـد اللـه وتسـلم علـى العبـاد المصطفيـن - فـي حالـة سـلام مـع هـؤلاء المصطفيـن، والسـلام يعنـي عـدم العـداوة أو العصيـان أو حتـى الإزعـاج فـي قليـل أو كثيـر.

١٤- ﴿يَـا أَيُّهَـا النَّبِـيُّ قُـل لِّأَزْوَاجِـكَ إِن كُنتُـنَّ تُـرِدْنَ الْحَيَـاةَ الدُّنْيَـا وَزِينَتَهَـا فَتَعَالَيْـنَ أُمَتِّعْكُـنَّ وَأُسَـرِّحْكُنَّ سَـرَاحًا جَمِيـلًا﴾[٢].

◆ تخيير الأزواج من الله لدفع التهمة عنه صلى الله عليه وآله وسلم

بـدون التصديـر بـ «قُـل»: ربمـا يقـول المرجفـون: إنـه صلى الله عليه وآله وسلم يريـد

(١) الأحزاب:٥٦.
(٢) الأحزاب:٢٨.

التخلص من أزواجه ويستبدل بهن غيرهن، الأمر الذي وجدناه يقال عنه حتى إلى الآن.

مع «قُل»: الله تعالى هو الذي يحسم الأمر بينه ﷺ وبين الأزواج اللائي سألنه التوسعة في النفقة، لأن المعيشة كانت ضيقة فعلًا حتى أن إحدى أمهات المؤمنين قالت: إنه ربما كان يمضي الشهر ولا يضرم في بيت النبي ﷺ النار للطبخ إذ لم يكن هناك غير الماء والتمر وربما شيء من الزيت.

١٥- ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللهَ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾[1].

◆ تعليم طرح السؤال ثم الجواب، ومبدأ الحوار الأسمى

في هذه الآية - يأمره بالسؤال، ثم يأمره بنقل الإجابة. أي ليست استجابة لـ «يسألونك» أو «يستفتونك» ولكن الله تعالى هو المنشئ لها.

مع «قُل»: ليس فقط صيغة السؤال «من يرزقكم» والجواب «الله»، ولكن يأمره بأن يقول لهم ما يعتبر أعظم ما يمكن أن يصل في احترام الرأي الآخر لا سيما في معمعان البحث ذاته. هو الرسول من عند ربه ومع الكتاب ومعه الوحي، بل كان اسمه عندهم «الصادق الأمين»، فكان يمكن أن يقول لهم بعد نقل السؤال بـ «قل»

---

(١) سبأ: ٢٤.

والجواب بـ «قل»: إنه على الحق وهم في ضلال مبين؛ ولكن عندها هل يمكن أن يجلسوا معه للبحث بعد أن حكم فيه بنفسه؟ أي بعد أن جعل نفسه الخصم والحكم؟ طبعًا لا.

فيأتي التعليم الإلهي «وإنّا أو إياكم» أنا أو أنتم «لعلى هدى أو في ضلال مبين» - إما أنا على هدى وأنتم في ضلال مبين، أو العكس أنتم على هدى وأنا في ضلال مبين؛ عندها لن يجدوا مبررًا لعدم الجلوس والبحث في الموضوع.

فهذا المبدأ في البحث والنظر والتفاوض لهو أعلى مما ينقل عن الإمام الشافعي «كلامي الصواب يحتمل الخطأ وكلام خصمي خطأ يحتمل الصواب» لأنه يبدأ بالإعلان أنه هو على الصواب والخصم على خطأ، بينما الآية الكريمة تجلس الطرفين على قدم المساواة.

١٦- ﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾[١].

◆ تأكيد عائدية دفع الأجر إلى الدافع وليس له صلى الله عليه وآله وسلم

هناك تناقض ظاهري بين إعلانه من خلال القرآن أنه لا يسألهم أجرًا لأنه «إن أجري إلا على الله» كما هو حال باقي الأنبياء والمرسلين عليهم السلام وبين سؤاله الأجر في آية المودة ﴿قل ما أسألكم

(١) سبأ:٤٧.

عليه أجرًا إلا المودة في القربى﴾[١]؛ لذا جاءت الآية لتؤكد حقيقة ربما لم يلتفتوا إليها وهي أن الأجر «الذي سألهم» هو لفائدتهم لأن أجره كاملًا مطلقًا هو من عند من أرسله سبحانه.

فبدون التصدير بـ «قُل»: ربما يقال له: إنك تناقضت وهنا تريد أن توجّه الموقف المتناقض.

ولكن مع «قُل»: الله تعالى هو الذي يوضح أن لا تناقض في الموقف لأنه عندما سألهم الأجر مودة القربى كان ذلك من أمر الله لأن تلكم الآية صدرتها بنفس كلمة «قل» أولًا، وثانيًا لأنه يؤكد في هذه الآية أن أجره على الله «إن أجري إلا على الله» أي حصريًا.

وينبغي الالتفات إلى أمرين:

(١) لم يقل «ما أسألكم» ولكن «ما سألتكم» أي يتحدث عن قضية حصلت في الماضي حقًا وهي سؤاله الأجر، إذًا لا بد أنها «مودة القربى» التي سألهم إياها في آية سورة الشورى؛

(٢) هذه الآية تنتهي بـ «وهو على كل شيء شهيد» لتشير إلى أنه سبحانه شاهد على ما نفعله إزاء هذا الموضوع كله وهو الوفاء بالأجر في مودة القربى حصرًا وليس بشيء آخر.

١٧- ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾[٢].

(١) الشورى: ٢٣.
(٢) الزمر: ٥٣.

◆ الرجاء العريض من الله فهو الذي فتح هذا الباب الواسع

بدون التصدير بـ «قُل»: ربما سيفهم أن الوعد منطلق من الرسول ﷺ بما أعلمه ربه من خلال رؤيا أو غيرها؛ وحتى لو أخبرهم أنه قرآن فإنه يبلغهم الوحي ليس إلا.

ولكن مع «قُل»: أولًا هناك تأكيد لهذا الوعد من الجهة الوحيدة التي تملك الحق وهو الله تعالى، إذ من الذي يمكنه أن يعد بغفران الذنوب جميعًا غير الذي سيحكم فيها؟ ثانيًا فإن الأمر من الأهمية بحيث أن الله يأمر رسوله ﷺ بأن يوصل إليهم الوعد وذلك بكلمة «قل»، وهو أمر بالإيصال أزلي ما دام القرآن ولكل قارئ للقرآن حتى قيام يوم الدين، ما يزيد من قوة الوعد فيزيد من الثقة به.

١٨- ﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا قُلْ مَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾[١].

◆ تعليمهم مبدأً عامًا، وإشارة إلى ضعف إيماني شديد

هل يحتاج المؤمن إلى التذكير أن «ما عند الله خير من اللهو ومن التجارة»؟ مؤكد أنه لا يحتاج.

ولكن الذي يترك النبي ﷺ واقفًا على المنبر ويخرج إلى قافلة التجارة، أي يزهد في مواعظه وبيانه، ناهيك عن أن مجرد رؤية وجهه الكريم لهي نعمة وأي نعمة، فمثل هذا يحتاج إلى التذكير لأنه أثبت

(١) الجمعة: ١١.

عمليًّا أنه يغفل عن هذه الحقيقة "أن ما عند الله خير من التجارة واللهو".

أضف إلى ذلك أنه بدون التصدير بـ «قُل»: يمتزج الخطاب من الله تعالى مع ما يجده النبي ﷺ من الخيبة من تصرفهم هذا، فربما يكون هناك مدخلية لمشاعره هو ﷺ.

ولكن مع «قُل»: أخرج الله تعالى عبده المصطفى ﷺ من الموضوع تمامًا وصار هو الذي يخاطبهم ويذكرهم، ولكن من خلال النبي ﷺ - وهو واسطة لو تنبهوا لشعروا بالخيبة هم من أنفسهم لأنهم سيتنبهون أن الله تعالى كي يذكرهم فإنه يفعل ذلك من خلال الذي تركوه على المنبر قائمًا.

١٩- ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا﴾[١].

◆ الإخبار باستماع الجن لمنع تكذيبه ﷺ

هنا تأكيدان لهذه القصة غير المرئية:

الأول - بالقول «أوحي إلي»، لأنه بدونه يكون ﷺ هو المخبر عنها وهذا سيدفعهم للسؤال: كيف عرفت؟ ولكن معه فإنه علم باستماع الجن من خلال الوحي.

(١) الجن: ١.

مع هذا، فإنه بدون التصدير بـ «قُل»: سيقول ضعاف الإيمان: إنه يخبرنا بهذا الشيء الغريب لأنه يجد نفسه محاصرًا بين المكذبين من قومه من قريش في بلده مكة وغيرهم من الطائف وغيرها.

مع «قُل»: يأتي التأكيد الثاني - الله تعالى يأمره ﷺ أن يخبره بالقضية وبكيفية علمه بها.

٢٠- ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾[١].

◆ تعليم العوذة، ولأنه سبحانه لا يحتاج إليها

بدون التصدير بـ «قُل»: يبدو أن الله تعالى يتعوذ، وهو مستحيل، لأن التعوذ يعني اللجأ، فأي شيء في الوجود يحتاج الله تعالى إلى اللجأ منه؟!

مع «قُل»: يحصل الأمران: (الأول) لا وجود لهذا التعبير المستحيل (الثاني) تعليم إحدى العوذات، لأنها تتضمن الانتباه للآثار السلبية لبعض الشرور ومنشئي الشرور (ما خلق، غاسق إذا وقب، النفاثات في العقد، حاسد إذا حسد) ثم كيفية اللجأ إلى الله تعالى للحماية منها.

(١) الفلق ١.

الفَصْلُ الحَادِي عَشَر

كلمة «إِنَّما»

كلمة «إِنَّما»

إن السبب في الاهتمام بهذه الكلمة « إِنَّما » هو الآتي:

كلمة «إِنَّما» تقوم بوظيفة مهمة في التعبير عن المراد، وهي «الحصر»، أي أن...

المراد هو ما بعدها حصرًا.

◆ فائدة لغوية

«إنَّما» تتألف من كلمتين: إنَّ وما، فإذا:

(١) دخلت على الجملة الاسمية فإنها توقف «إنّ» عن نصب المبتدأ، فيبقى المبتدأ مرفوعًا.

مثلًا: ﴿إنما الصدقات للفقراء...﴾[1]، فإن «الصدقات» مبتدأ مرفوع و«للفقراء» خبر مرفوع.

(٢) دخلت على الجملة الفعلية فإنها تجعل التعبير بابتداء الفعل بعد «إن» ممكنًا.

(١) التوبة: ٦٠.

مثلًا: ﴿إنما نطعمكم لوجه الله﴾[١]، فبدون «ما» لا يمكن التعبير بـ «إن نطعمكم».

أما «الحصر» فسنجد في جملة من الآيات أنه، في القرآن الكريم، ليس كله بمعنى واحد فقط.

وسيكون الكلام بالإشارة السريعة إلى ما أفهمه من دلالة استخدامها، وذلك لأن جميع هذه الآيات فيها مما أشرت إليه في أقسام التدبر التي مرت.

بعض أمثلة «إِنَّما» في القرآن المجيد

◆ أولًا: الحصر الحقيقي من الله؛ لأنه إخبار من عنده سبحانه

﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾[٢].

﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْاْ مِنكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُواْ وَلَقَدْ عَفَا اللّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾[٣].

﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[٤].

---

(١) الإنسان: ٩.
(٢) النحل: ٤٠.
(٣) آل عمران: ١٥٥.
(٤) النور: ٥١.

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾(١).

﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاء وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللّهِ وَاللّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾(٢).

فالجمل بعد «إنّما» (وتحتها خط) (أي «قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ»، «اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُواْ»، «قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ»، «الْمُؤْمِنُونَ»، «الصَّدَقَاتُ») هي موضوع الحصر، سواء بتحديد الجماعة أو الفعل أو الصفة أو المورد.

والجمل الأخرى (التي تحتها خطوط أيضًا، غير متصلة بالخطوط تحت إنما وموضوعها - «أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ»، «إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْاْ مِنكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ»، «سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا»، «الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ»، «لِلْفُقَرَاء وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللّهِ») هي متعلق الحصر، سواء الفعل أو النتيجة أو المطلوب أو الصفة أو الموضع.

---

(١) الحجرات: ١٥.
(٢) التوبة: ٦٠.

◆ ثانيًا: الحصر الحقيقي من البشر/ لأنه إخبار من الله عنهم، وعدم النفي الذي يفيد التأييد منه تعالى

﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاء وَلَا شُكُورًا﴾[١].

﴿إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا. فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا﴾[٢].

كون الله تعالى «وقاهم شر ذلك اليوم» وكونه جازاهم «نضرة وسرورًا» إذًا يؤكد صدق ما زعموه من خلوص نيتهم لله تعالى حصرًا.

﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِن أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾[٣].

ولم ينف الله تعالى هذا؛ لهذا ينبغي للمرء أن يفعل التقوى كي يقبل منه العمل.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لاَ تُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ قَالُواْ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾[٤].

﴿أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَـكِن لاَّ يَشْعُرُونَ﴾[٥].

لأنهم «لا يشعرون» يعني أنهم فعلًا يعتقدون أنهم «مصلحون». وهذه مصيبة كبيرة لا بد للمرء من تحري أين يقف، وخلف أية راية

---

(١) الإنسان:٩.
(٢) الإنسان:١٠-١١.
(٣) المائدة:٢٧.
(٤) البقرة:١١.
(٥) البقرة:١٢.

يمشي، وهل يسير خلف قادة الهدى أم قادة الهوى، ومن ذلك هوى نفسه... إنها حالة رهيبة لا يجوز الغفلة عنها.

◆ ثالثًا: الحصر المجازي لأهمية ما بعده؛ لاستحالة كونه حصريًا

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾[(١)].

قارنها مع الآية ٤ في «أولًا» (آية الحجرات: ١٥) تعرف الفارق بين الأولى التي تحيط بصفات الإيمان وهذه التي تذكر بعضها وحسب.

﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلاَ أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾[(٢)].

بما أنه من المستحيل أن يكون النبي صلى الله عليه وآله وسلم «منذرًا فقط»، لهذا فهو حصر مجازي للمبالغة في أهمية ما بعد «إنما». وقد جاءت روايات متعددة في وجوهها، منها أن «الهادي هو الله» وهو مردود لأن الآية تقول «لكل قوم هاد» ما يعني انفصال كل هاد عن غيره والله تعالى محيط بالجميع؛ ومنها أنه «نبي القوم» ولكنه مردود لأنه لو كان هكذا لما قال للنبي صلى الله عليه وآله وسلم في نفس الآية أنه «منذر فقط؛ ومنها أنه «إمام الهدى»، وهو صحيح ولكنه غير مشخص لأن أدعياء

(١) الأنفال: ٢.
(٢) الرعد: ٧.

الإمامة كثيرون؛ ومنها أنه «علي بن أبي طالب عليه السلام» وذلك في قول النبي صلى الله عليه وآله وسلم يبين الآية: «يا علي، أنا المنذر وأنت الهادي؛ بك يهتدي المهتدون بعدي»[١] فكان بيانًا رائعًا منه صلى الله عليه وآله وسلم لأنه ليس فقط بيّنٌ من المقصود بـ «الهادي» ولكنه أعاد إلى نفسه صلى الله عليه وآله وسلم وظيفة الهدى التي سلبتها الآية منه بعد الحصر، فوضع الأمر في نصابه، لأنه في زمانه صلى الله عليه وآله وسلم هو الهادي وبعده هو علي عليه السلام؛ أما لكل قوم كيف وعلي عليه السلام مات بعد ٣٠ عامًا؟ فهذا طبعًا ببيانه صلى الله عليه وآله وسلم وتحديد علي عليه السلام في الإمامة في ولده عليهم السلام وهو موضوع آخر.

﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ، إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾[٢].

من المؤكد أن الله تعالى يريد أمورًا كثيرة جدًّا غير إذهاب الرجس عن أهل البيت وتطهيرهم، لذا فهو ليس حصرًا حقيقيًا.

﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾[٣].

ومن المؤكد أن ليس جميع الأموال ولا جميع الأولاد فتنة، بل إن بعضها وبعضهم تعين على الآخرة.

---

(١) تفسير ابن كثير، وابن حجر في لسان الميزان ج٣ ص٣٤، والذهبي في ميزان الاعتدال ج١ ص٤٨٤.
(٢) الأحزاب:٣٣.
(٣) التغابن:١٥.

◆ **رابعًا: الحصر الذي يحتمل الوجهين: الحقيقة والمجاز**

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾[١].

الحقيقة: سيأكلون نارًا في الآخرة.

المجاز: كأنما يأكلون ما سيودي بهم إلى النار والسعير.

◆ **خامسًا: الحصر الذي يتضمن الوجهين معًا: الحقيقة والمجاز**

﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾[٢].

الحقيقة: لأن الغالبية العظمى من المفسرين -إن لم يكن جميعهم- رووا أن المقصود بـ﴿الَّذِينَ آمَنُواْ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾ هو علي عَلَيْهِ السَّلَامُ عندما تصدق بخاتمه للسائل الذي دخل المسجد النبوي يطلب العون؛ وهذه نسميها «آية الولاية» لأنها تعلن ولاية علي عَلَيْهِ السَّلَامُ على الناس.

المجاز: لأن عليًّا عَلَيْهِ السَّلَامُ من ضمن الآية العامة ﴿المؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض﴾[٣].

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَن

(١) النساء: ١٠.
(٢) المائدة: ٥٥.
(٣) التوبة: ٧١.

نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾[١].

الحقيقة: لأنهم يبايعون النبي ﷺ بما هو مرسل من ربه، فهم إذًا يبايعون المرسِل تعالى.

المجاز: لأنهم يبايعون النبي ﷺ نفسه للقتال معه هو، ولكن الله تعالى شهيد على بيعتهم.

◆ **سادسًا: الحصر الذي يصف الحالة**

﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ﴾[٢].

المعنى: ليس «لا تنذر إلا من اتبع الذكر وخشي الرحمن بالغيب»، لأنه ﷺ مأمور بإنذار الجميع دون استثناء.

ولكن المعنى هو: «لن يستفيد من النذارة غير من اتبع الذكر وخشي الرحمن بالغيب».

***

(١) الفتح: ١٠.
(٢) يس: ١١.

«قل» و«إنما» جميعًا

أخيـرًا، لنلتقـط بضـع آيـات تسـتخدم فـي البيـان الكلمتيـن: قُـل وإنَّمـا...

(الله، والنبي ﷺ، وأقسام الناس، وقل، وإنما)

﴿فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوْتُواْ الْكِتَابَ وَالأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُواْ فَقَدِ اهْتَدَواْ وَّإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاَغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾(١).

﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾(٢).

﴿وَأَطِيعُواْ اللَّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَاحْذَرُواْ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُواْ أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلاَغُ الْمُبِينُ﴾(٣).

فانظر إلى دقة القرآن الكريم:

عند الحديث عن «إسلام الكافرين من أهل الكتاب وأهل مكة/ الأميين» فإن مسؤولية الرسول ﷺ إنما هي «البلاغ»، لأنه من غير المعقول أنه يقوم «بالبيان» لمن لم يدخل الدين أساسًا.

---

(١) آل عمران: ٢٠.
(٢) النور: ٥٤.
(٣) المائدة: ٩٢.

بينما عند الحديث مع «الذين أسلموا» عندها تكون مسؤوليته ﷺ «البلاغ المبين» الذي يبين الآيات. وهذا مهم جدًّا لمن يعاند في الادعاء الباطل أن الرسول ﷺ يبلغ نص القرآن فقط.

(النبي ﷺ، ومفاهيم مهملة، وقل، وإنما)

﴿قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾[١].

تجلس مع نفسك تفكر؛ أو تجلس مع شخص آخر تثق في عقله وقلبه، وتنظر أو تنظران في الأمر. يبدو أنه بمجرد وجود شخص ثالث فإن حالة الشد والجذب في النقاش ربما تجعل أحد الشخصين أو كليهما يخرجان عن المسألة الموضوعية حصرًا فربما صار هناك ما يزعج هذا من حجة ذاك أو من طريقته بحيث ربما تحول الأمر إلى تسجيل نقاط ليس إلا (ربما ينطلق الكبر الداخلي فيشوش على النقاش الهادئ الهادف). لذا، فإنها موعظة من نوع الحصر المجازي قطعًا، لأنه من غير المعقول أن هناك هذه الموعظة فقط، ولكن لأهميتها الفائقة جاءت بالحصر بإنما.

---

(١) سبأ:٤٦.

البَابُ الرَّابِعُ

تطبيقات في مفردات التنزيل

الفَصْلُ الأَوَّلُ

من مفردات التنزيل

القرآن والكتاب

القرآن والكتاب

في هذا الفصل أبدأ بتناول مفردات التنزيل، وهي استخدامات مفردة «الكتاب» التي وردت بمعان مختلفة. يليه ثلاثة فصول أتناول فيها المفردات التي وصفت التنزيل بأنه: الوحي، الآيات، الروح، النور، الحديث، الفرقان، الذكر، الصحف، الحكمة، الحكم.

١ـ معنى «القرآن»

«القرآن» على وزن «فُعلان»، فهو مثل غُفران وشُكران، وقد اختلف في معناه:

أ- مشتق من الجذر ق ر ء، أي «قراءة»، أي «جمع الشيء بعضه إلى بعض»/ وهذا يصدق عليه لأن آياته يفسر بعضها بعضًا ويصدق بعضها بعضًا.

ب- مشتق من الجذر ق ر ن، أي «قِران»، أي «ضم الشيء إلى إلى شيء من مثله» أي مقارن له.

ولكن أصحاب الرأي الأول يستدلون بالاشتقاق، كما يستدلون بالقرآن نفسه قوله تعالى ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ* فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ

قُرْآنَهُ﴾[١] والآية الأولى واضحة في أن «الجمع» غير «القرآن»، وأما الثانية فإن «قرآنه» متعلق بكلمة «قرأناه» قبلها. إذًا، «القرآن» هو وعاء الوحي والتنزيل بالشكل الذي ييسر معرفته وذلك عن طريق القراءة، لهذا قرن في العديد من الآيات باللغة العربية.

والقراءة تكون قراءة دون تفكير، أو بتفكير، أو بتدبر، أو أعمق من ذلك، وكلها يصدق عليها قراءة؛ كما هي بالطبع في «التلاوة» في الصلاة وغيرها ﴿وَأَنْ أَتْلُوَ الْقُرْآنَ﴾[٢].

ولا نحتاج أن نطنب في هذا لأنه من الاشتهار والقبول عند المسلمين لما قدمناه.

٢ـ معاني الكتاب

أولًا: كتابة أو كلمات مكتوبة:

﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَـٰذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ﴾[٣].

﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَـٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾[٤].

(١) القيامة:١٧-١٨.
(٢) النمل:٩٢.
(٣) البقرة:٧٩.
(٤) الأنعام:٧.

﴿إذْهَب بِّكِتَابِي هَـذَا فَأَلْقِهِ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ﴾[١].

ثانيًا: الشريعة العامة التي أرادها الله تعالى للخلق، التي ترسم الخطوط العامة - كالتوحيد ونفي الشرك والعدل ومبدأ الجزاء الأخروي - والتفاصيل التي تتسع وتضيق حسب الديانة النازلة في الزمان المعين والمكان المعين:

﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُواْ فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِن بَعْدِ مَا جَاءتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ لِمَا اخْتَلَفُواْ فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللّهُ يَهْدِي مَن يَشَاء إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[٢].

﴿هَا أَنتُمْ أُوْلاء تُحِبُّونَهُمْ وَلاَ يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُواْ آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ عَضُّواْ عَلَيْكُمُ الأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُوتُواْ بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾[٣].

﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾[٤].

---

(١) النمل:٢٨.
(٢) البقرة:٢١٣.
(٣) آل عمران:١١٩.
(٤) فاطر:٣٢

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾(١).

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾(٢).

﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللّهُ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءهُمْ عَمَّا جَاءكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاء اللّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَـكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَآ آتَاكُم فَاسْتَبِقُوا الخَيْرَاتِ إِلَى الله مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾(٣).

ثالثًا: الكتاب السماوي السابق على الإسلام:

أ- عموم الكتب السماوية

﴿وَإِذْ أَخَذَ اللّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّيْنَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُواْ أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُواْ وَأَنَاْ مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ﴾(٤).

---

(١) الحديد:٢٥.
(٢) الحديد:٢٦.
(٣) المائدة:٤٨.
(٤) آل عمران:٨١

﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُم مُّلْكًا عَظِيمًا﴾[١].

ب- التوراة

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ..﴾[٢].

﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُمْ بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾[٣].

ت- ثم في زمان تالٍ لموسى عليه السلام

﴿قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُ قَالَ هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾[٤].

﴿يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا﴾[٥].

---

(١) النساء: ٥٤.
(٢) البقرة: ٨٧.
(٣) آل عمران: ٧٨.
(٤) النمل: ٤٠.
(٥) مريم: ١٢.

ث- الإنجيل

﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾[(١)].

وإن كانت بعض الآيات فرقت بين «الكتاب» و«الإنجيل» و«التوراة» لما قلناه من عموم مفردة «كتاب» للشرائع، ولما يأتي من معان تشير إلى «الكتاب» الأكثر شمولًا؛ من ذلك:

﴿وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ﴾[(٢)].

جـ- ما اتفق على أنه «مجموع التوراة والإنجيل»، وذلك في مصطلح «أهل الكتاب».

﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ..﴾[(٣)].

وهو ما تشمله الملاحظة السابقة.

---

(١) مريم: ٣٠.
(٢) آل عمران: ٤٨.
(٣) النساء: ١٧١.

رابعًا: القرآن الكريم:

أ- مفردة «الكتاب» وحدها.

﴿كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾[١].

وهي واضحة في أن «الكتاب المفصل» إنما هو «قرآن يقرأ باللغة العربية».

﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾[٢].

بما أنه «مصدق الذي بين يديه» وينذر «أم القرى» وهي مكة، فهو القرآن.

﴿وَلَمَّا جَاءهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِنْدِ اللّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ كِتَابَ اللّهِ وَرَاء ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ﴾[٣].

وهي واضحة أيضًا؛ كما تجمع بين «الكتاب» الذي أوتوه مع «كتاب الله» المنزل بعده وهو القرآن، لتقول: إنه من نفس المصدر ولنفس الغاية ولكنهم نبذوه.

---

(١) فصلت:٣.
(٢) الأنعام:٩٢.
(٣) البقرة:١٠١.

﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾[١].

والخطاب إلى من يقرأون «هذا الكتاب» فهو القرآن.

﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلاَوَتِهِ أُوْلَـئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمن يَكْفُرْ بِهِ فَأُوْلَـئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾[٢].

﴿وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَدًا﴾[٣].

﴿اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاء وَالْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾[٤].

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ﴾[٥].

﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾[٦].

و«التلاوة» تشير إلى «القراءة» فهو القرآن.

﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللّهُ

---

(١) الأنعام:١٥٥.
(٢) البقرة:١٢١.
(٣) الكهف:٢٧.
(٤) العنكبوت:٤٥.
(٥) فاطر:٢٩.
(٦) العنكبوت:٥١.

﴿وَلاَ تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا﴾[١].

والحكم يكون بالقرآن، وإن كان يمكن مع بيانه بالوحي خارجه.

﴿أَفَغَيْرَ اللّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنَزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلاً وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾[٢].

أيضا، خطاب مع المؤمنين بالإسلام، والتفريق عن «الكتاب» الذي آتاه لغيرهم.

﴿وَمَا كَانَ هَـذَا الْقُرْآنُ أَن يُفْتَرَى مِن دُونِ اللّهِ وَلَـكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لاَ رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾[٣].

وهذه تربط بين «الكتاب» و«القرآن» فـ«القرآن يفصل الكتاب» ما يعني أن «الكتاب» هو كتاب العقيدة والشريعة، أي عموم الشريعة (المذكور في ثانيًا) كما في الأحكام (خامسًا فيما يأتي).

﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُوا الْأَلْبَابِ﴾[٤].

و «التدبر» و«التذكر» لا يحصل إلا لشيء بين أيديهم، فهو القرآن.

﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ

(١) النساء:١٠٥.
(٢) الأنعام:١١٤.
(٣) يونس:٣٧.
(٤) ص:٢٩.

قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ۞ قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[(١)].

فالآيتان تقول: إن «الجن» سموا «القرآن» الذي استمعوا إليه يقرأ من النبي صلى الله عليه وآله وسلم «كتابًا».

ب- مفردة «الكتاب» مع الحروف المقطعة أوائل السور:

﴿... الم ۞ ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ﴾[(٢)].

﴿... المص ۞ كِتَابٌ أُنْزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ لِتُنْذِرَ بِهِ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾[(٣)].

﴿... الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾[(٤)].

﴿... حم ۞ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾[(٥)].

وفي مثل هذه الآيات، ربما هناك إشارة إلى رابط ما بين «الحروف المقطعة» ومفردة «الكتاب»؛ وعندها الاحتمال وارد أن «الكتاب» هنا هو «القرآن» لأن من أشهر تفسيرات «الحروف المقطعة» هو أنها تتحدى أن يأتوا بمثل «القرآن» الذي نزل بنفس

(١) الأحقاف:٢٩-٣٠.
(٢) البقرة:١-٢.
(٣) الأعراف:١-٢.
(٤) هود:١.
(٥) الدخان:١-٢.

هـذه «الحـروف» التـي تمثـل لغتهـم التـي يتحدثـون بهـا.

ت- بيان القرآن والحكمة:

﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾[(١)].

﴿... الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ﴾[(٢)].

الربط قبل قليل بين «الحروف المقطعة» و«الكتاب» أنه بمعنى «القرآن» نجده هنا مع إضافة وصف «الحكيم».

﴿... الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ. إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾[(٣)].

فهو كتاب «مبين» لما نزل من آياته، مباشرة أو عن طريق الرسول صلى الله عليه وآله وسلم؛ و«هاء» في «أنزلناه» يتعلق بمفردة «الكتاب» قبله» وعليه فإن «الكتاب» هنا هو «القرآن العربي» في الآية التالية.

﴿وَمَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾[(٤)].

فيكون «الكتاب» المنزل من أجل «بيان»: ما اختلف فيه وهدى

---

(١) البقرة:١٥١.

(٢) يونس:١.

(٣) يوسف:١-٢.

(٤) النحل:٦٤.

ورحمة. وإن كان يمكن القول: إن مفردة «الكتاب» ربما تعني ما هو أشمل من «القرآن» لأن «بيانه ﷺ» أشمل من ناحية أبعاد «الحكمة» وجميع ما يندرج تحت «وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ» الواردة قبل قليل.

﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾(١).

وهذه مثل التي سبقتها.

﴿... طس تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ﴾(٢).

هذه الآية ومثيلاتها - التي تفرق بين «القرآن» و«الكتاب» بواو العطف ستطيح بأي رأي أحادي النظرية، أي أن «الكتاب» هو «القرآن» لا غير، أو أن «الكتاب» ليس «القرآن»، لأنها يمكن أن تعني:

هذه آيات بعضها من القرآن وبعضها من كتاب مبين، أو أن هذه آيات القرآن الذي يقرأ، وفي نفس الوقت آيات القرآن الذي هو كتاب مبين لآياته.

---

(١) النحل: ٨٩.
(٢) النمل: ١.

خامسًا: أحكام الشريعة الإسلامية:

أ- الأمر الواجب المفروض من الله تعالى.

﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ كِتَابَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَأُحِلَّ لَكُم مَا وَرَاءَ ذَلِكُمْ أَن تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُم مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ..﴾(١).

أي أن هذا هو «الفرض» في هذه القضية.

ويندرج تحته ما هو بصيغة «كُتِبَ عليكم» كما في:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾(٢).

﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾(٣).

﴿مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا...﴾(٤).

---

(١) النساء: ٢٤.
(٢) البقرة: ١٨٣.
(٣) البقرة: ١٨٠.
(٤) المائدة: ٣٢.

ب- تفاصيل الفريضة الشرعية.

﴿... وَلَا تَعْزِمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾(١).

«الكتاب» هنا هو المدة الزمنية المفروضة شرعًا لعدة المطلقة أو الأرملة قبل إباحة زواجها التالي، وهذا تفصيل من تفاصيل فرائض الزواج والطلاق.

سادسًا: كتاب الكون: ونعني به جميع ما في الكون، أو الخليقة، ما يمكن تقسيمه إلى:

أ- أشياء

﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾(٢).

﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِي الكِتَابِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾(٣).

فهو إذًا كتاب «لم يفرط في شيء» أي جامع لكل شيء.

---

(١) البقرة:٢٣٥.

(٢) هود:٦.

(٣) الأنعام:٣٨.

ب- أحداث

﴿مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾(١).

هذه الآية تقول بوضوح: إن كل «حدث» يوصف بأنه «مصيبة»، عامة في الأرض كالحوادث الطبيعية، أو خاصة، في «كتاب» ثبتها الله تعالى فيه «قبل حدوثها»، فهي من نوع الابتلاءات المقصودة، أو من نوع ما يجري نتيجة فعل الناس.

﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا﴾(٢).

﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا﴾(٣).

فإذا ما أراد الله تعالى أن يقص علينا بعض ما جرى من أحداث، فإن ذلك «الكتاب» قد ثبتها أيضًا، لأن «ذكر» مريم وإبراهيم عليهما السلام إنما هو من الأحداث الماضية، فهو من هذا الكتاب نفسه.

ومن الآيات ما تجمع الأمرين: الأشياء والأحداث:

﴿وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾(٤).

---

(١) الحديد:٢٢.
(٢) مريم:١٦.
(٣) مريم:٤١.
(٤) الأنعام:٥٩.

﴿وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾(1).

﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾(2).

﴿وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا﴾(3).

فهو إذًا الكتاب الجامع لجميع ما خلق الله تعالى، مما مضى وما سيأتي، وجميع الأحداث التي تحصل لهذا الخلق، وفي أدق التفاصيل.

* مع نقطة إلفات تتعلق بموضوع "العدل الإلهي":

يقول تعالى ﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ﴾ - فهذه الأحداث هي «بعلمه» الذي هو «في كتاب»، ولم يقل «بفعله»، لأن هامش الحرية التي أعطاها للمخلوق موجود مثبت دون شك، ولكنه يختلف حسب الخلق والحدث.

---

(١) الإسراء: ٤.
(٢) فاطر: ١١.
(٣) الإسراء: ٥٨.

سابعًا: كتاب الزمن:

أ- المدة المحددة:

﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَات وَالأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ...﴾[١].

﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾[٢].

﴿وَمَا أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَعْلُومٌ، مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ﴾[٣].

﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ الله كِتَابًا مُّؤَجَّلًا...﴾[٤].

وهي واضحة أن "الكتاب" هذا مسجل فيه زمان الأحداث، سواء الإطار الزماني للحياة أو الزمان الذي يستمر فيه مجتمع بالحياة والبقاء، أو كل نفس من إنسان أو غيره.

ب- المشيئة الإلهية قبل زمان الحدث:

﴿لَوْلَا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾[٥].

---

(١) التوبة:٣٦.
(٢) الروم:٥٦.
(٣) الحجر:٤-٥.
(٤) آل عمران:١٤٥.
(٥) الأنفال:٦٨.

هـذا "الكتـاب" ليـس فقـط حـدد صفـح اللـه تعالـى عمـا قامـوا بـه، ولكنـه كان سـابقًا للحـدث.

ت- أوقات أحداث معينة خلال العمر:

﴿... إِنَّ الصَّلاَةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتًا﴾[(١)].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ... أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ...﴾[(٢)].

ثامنًا: صحائف الأعمال:

أ- تأكيد الجزاء على الأعمال:

﴿وَلاَ نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنطِقُ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾[(٣)].

«كتـاب» يسـجل كيـف عملـوا مقارنـة بالتكليـف الـذي لا يتجـاوز قدراتهـم، فـلا ظلـم هنـاك.

وهو ما يأتي بصيغة «كُتب»:

﴿وَلاَ يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلاَ كَبِيرَةً وَلاَ يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾[(٤)].

---

(١) النساء:١٠٣.
(٢) البقرة:١٨٣-١٨٤.
(٣) المؤمنون:٦٢.
(٤) التوبة:١٢١.

ب- عرض الأعمال في الآخرة:

﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ﴾[١].

﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ﴾[٢].

فهذا على المستوى الفردي؛ وليس للعرض فقط، ولكن لإقامة الحجة عليه بنفسه:

﴿وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَآئِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا. اقْرَأْ كَتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾[٣].

﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ، وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ * كِتَابٌ مَرْقُومٌ﴾[٤].

وهذا على مستوى إحصاء الأعمال للقسمين اللذين قسمهما الله تعالى: الأبرار والفجار. مع ملاحظة أن «الكتاب» وصفه بأنه «مرقوم»، فهل هو المقصود أنه «يسجل الأعمال بالأرقام مثل القائمة» أم أنه «مسجل بطريقة رقمية معينة»؟

تاسعًا: الكتاب المبين والكتاب الحفيظ والكتاب المكنون واللوح المحفوظ:

---

(١) الحاقة:١٩.
(٢) الحاقة:٢٥.
(٣) الإسراء:١٣.
(٤) المطففين:١٨-٢٠.

الكتاب المبين:

وردت آيات كثيرة تصف «الكتاب» بأنه «مبين»، منها:

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَالِمِ الْغَيْبِ لا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ وَلا أَصْغَرُ مِن ذَلِكَ وَلا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾[١].

فهو «كتاب مبين» أي يبين أو يوضح أو يظهر ما كان خافيًا أو غيبًا أو غير واضح على أي نحو؛ وفي هذه الآية الكلام عن جميع ما في الكون، وبالتالي هو من سنخ آيات «كتاب الكون» (سادسًا) و«كتاب الزمن» (سابعًا)...

ومنها آية جامعة لكل شيء:

﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا﴾[٢].

ويعطي فائدة كبرى لهذه الحقيقة الإلهية:

﴿مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ۝ لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾[٣].

هنا سؤال: هل إن «محتويات» هذا الكتاب «المبين» هي الأشياء

---

(١) سبأ:٣.
(٢) النبأ:٢٩.
(٣) الحديد:٢٢-٢٣.

التي في الكون فقط، أم ما يتعلق بها من أحداث أيضًا؟

إذا قلنا: إن «الكتاب المبين» لا تبديل فيه، عندها لا يمكن أن تكون هذه الأشياء بذاتها لأنها متعرضة للتبديل على الدوام. وعليه فإن المقصود هو:

ما يتعلق بها من «تقدير» في «الخلق أصلًا» وفي «الأحداث بعد الخلق» كما هو مذكور في الآيات المباركة، وقد سجله هذا «الكتاب المبين» بدقة وبعصمة مانعة.

(* وأعود فألفت إلى مسألة العدل الإلهي وعلاقتها بالجبر والاختيار).

الكتاب الحفيظ:

هذه الدقة والعصمة المانعة للتغيير والتبديل نجدها في وصف آخر للكتاب أنه «حفيظ».

﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِندَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ﴾[١].

«حفيظ» على وزن «فعيل» فهو أقوى من «حافظ»، يحفظ كل شيء في تسجيل لا يقبل التلاعب من خارجه لأنه لا أحد يقوى على ذلك، كما لا يقبل التغيير من الله تعالى... إلا...

إلا بلحاظ «كتاب المحو والإثبات» (يأتي بعد قليل).

---

(١) ق: ٤.

الكتاب المكنون:

﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ ۝ فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ ۝ لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ ۝ تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[١].

مفردة «تنزيل» تشير إلى «القرآن»، وبالجمع مع «في كتاب مكنون» فإنها تدل على أن «القرآن موضعه في الكتاب المكنون» والجزء الخارجي كلماته وآياته، ومعانيه وتأويله.

إن معنى «مكنون» أي في «كِنٍّ» أي «موضع حريز محفوظ من العبث الخارجي، وبالتالي فإن «محتوياته» هي تلك المذكورة في «كتاب الكون» و«كتاب الزمن» - «الكتاب الحفيظ».

اللوح المحفوظ:

﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ ۝ فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ﴾[٢].

فالقرآن «في كتاب مكنون» وأيضًا «في لوح محفوظ».

وعليه فإننا يمكن أن نقول:

إن هناك علاقة بين «الكتاب المكنون» و«اللوح المحفوظ»، بحيث أن البعض ذهب إلى أنهما شيء واحد؛ ولكن...

ولكن نلاحظ عليه ما يلي:

(١) الواقعة:٧٧-٨٠.
(٢) البروج:٢١-٢٢.

(١) ﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ ، فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ﴾/ ﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ. فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ﴾

صفة «كريم» أي «يعطي» فيناسب أن يكون في «عالم الخلق والأمر»، بينما صفة «مجيد» صفة «سمو يعلو بها على غيره»، وبالتالي فيمكن القول: إن «اللوح المحفوظ» أعلى من «الكتاب المكنون» - وهو احتمال ليس إلا.

(٢) «الكتاب المكنون» يمكن أن «يمس» أي يتوصل إلى ما فيه، أو بعض ما فيه، بمشيئة الله تعالى، ولكنه لم يقل ذلك بشأن «اللوح المحفوظ».

معرفة الكتاب المبين المكنون الحفيظ:

القرآن صريح في أن هناك إمكانية لمعرفة ما في «الكتاب المكنون» للآية المارة أعلاه:

﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ۝ فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ ۝ لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ ۝تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[١].

لأنه لو كان الضمير «هاء» في «يمسه» يتعلق بالقرآن في «لقرآن كريم» فإن المعنى يصير على ما عليه الرأي الشائع عند الناس أن «المس» هنا هو «اللمس باليد»، وهو مردود لأمرين:

(١) «المس» ليس «اللمس»، في آية الربا ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا

---

(١) الواقعة:٧٧-٨٠.

يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ...﴾[١].

فلا تعني أن «الشيطان لمسه بيده فصار يتخبط»، بل تعني أن «الشيطان مسه بنوع من التأثير أو المخالطة بحيث صار يتخبط».

ومثلها ما حكاه عن دعاء أيوب عليه السلام ﴿وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾[٢]، و «مس الشيطان» هذا ليس «لمسًا» قطعًا، بل هو من القوى التي يتمتع بها الشيطان في إدخال «الأذى والضرر» أو «النصب والعذاب».

وعنه عليه السلام أيضًا ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾[٣]، و«الضر» معنوي بداهة.

أيضًا ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَواْ إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾[٤]، وهذا «الطائف» الذي يمر عليهم من الشيطان «يمسهم» مسًّا معنويًا أيضًا؛ لأنه لا أثر ماديًا له، كما أن «علاجه» أنهم «تذكروا» وهو معنوي أيضًا.

والواضح أن الفهم الشائع يخلط بين «المس» المعنوي و«اللمس» المادي:

﴿...وَإِن كُنتُم مَّرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاء أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ الْغَآئِطِ

---

(١) البقرة: ٢٧٥.
(٢) ص: ٤١.
(٣) الأنبياء: ٨٣.
(٤) الأعراف: ٢٠١.

﴿أَوْ لاَمَسْتُمُ النِّسَاء فَلَمْ تَجِدُواْ مَاء فَتَيَمَّمُواْ...﴾[(١)].

والذي هو المعاشرة الجنسية المادية.

(٢) فلا يبقى غير «المس» بمعنى «العلم والفهم»، وبما أن الكل يعلمون أن «العلم بالقرآن» قد تيسر للكثيرين جدًّا من الناس، علماء وعوام، بل وحتى غير المسلمين، عندها يصبح «المس-العلم» الذي هو غير متاح إلا «للمطهرين» فلا بد أن يكون لشيء غير متاح لغيرهم، وهذا هو ما في «الكتاب المكنون».

◆ نقطة جانبية - من هم هؤلاء «المطهرون»؟

إذا كنا حقًّا نتدبر القرآن فنعرض بعضه على بعض، فإن النظر في الفعل «طهر» أو الوصف بالـ «طهر» أو «مطهّر» (قائمة ملحقة آخر الفصل)، فإن:

- معنى «التطهير» يؤخذ من الآية ذاتها، عمومًا.

- كما أن معظم موارد هذه المفردة جاءت بمعنى «التطهير المعنوي»، وهذا التطهير المعنوي إما جاء على عمومه لمخلوقات في الآخرة أو صحف التنزيل المبين أو البيت الحرام، أو جاء لحالات خاصة موصوفة بالطهر ولمن هم من المعصومين (مريم وعيسى عليهما السلام).

(١) النساء:٤٣.

- فليس هناك تحديد لجماعة صدع القرآن الكريم بوصفهم بـ «التطهير الإلهي» غير ما جاء في الآية ٣٣ من سورة الأحزاب (المعروفة بآية التطهير):

﴿... إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾[١].

الأمر الذي نجده، ليس فقط في تشخيص هؤلاء الأطهار من خلال المرجعية النبوية - قولًا وفعلًا - (حديث الكساء في رواياته العديدة، وفعل النبي ﷺ لأشهر عديدة وهو يقف على باب فاطمة وعلي عليهما السلام يتلو الآية المباركة)، ولكن أيضًا من خلال روايات مختلفة تتحدث عن العلوم التي نقلها رسول الله ﷺ إلى علي عليه السلام، من ذلك قوله ﷺ «وما من علم إلا علمته عليًّا»[٢]، أو «أنا مدينة العلم وعلي بابها»[٣] وغير ذلك مما هو معروف.

بل وردت الروايات في تفسير «اللوح المحفوظ» أنه هو «الإمام المبين» في آية ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ﴾[٤].

وهي التي تماثل ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا﴾ المارة والتي قلنا:

---

(١) الأحزاب: ٣٣.
(٢) الاحتجاج للطبرسي ج١ ص٧٤.
(٣) حديث شهير رواه الحاكم في المستدرك، والطبراني في الكبير، ومشابه له بما رواه الترمذي وغيره.
(٤) يس: ١٢.

إنه «كتاب الكون» إلخ.

فيكون «الإحصاء في الإمام المبين» هو «الإحصاء في الكتاب المبين»، ويكون «الإمام المبين» هو «الكتاب المبين»، فيعود السؤال عن الفارق بين «الكتاب المبين» و«اللوح المحفوظ»، أمتماثلان أم لا؟

عاشرًا: أُمُّ الكتاب:

هذه المفردة يمكن رصدها في معنيين:

أ- صفة لـ«كتاب» أو لما هو «الأصل في الكتاب»:

﴿وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ. إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ. وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾[1].

فإذا تعلق الضمير «هـ» في «وإنه في أم الكتاب» بـ «الكتاب المبين» أو بـ «قرآنًا عربيًّا» فالنتيجة واحدة في أن هناك شيئًا اسمه «أم الكتاب» هو الذي سُجِّل فيه هذه المنزلة السامية «علي حكيم» لهذا أو ذاك.

- و«أم الكتاب» هذا شيء منفصل وليس وصفًا مجازيًا، لأنه تعالى يقول: ﴿يَمْحُو اللهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾، فهو سبحانه «عنده» هذا الذي اسمه «أم الكتاب» الرعد:٣٩، وبما أن «الأم» تعني «الأصل»، كما هي الأم وأولادها، فإن «أم الكتاب» هو

(١) الزخرف:٢-٤.

«الأصل» للقرآن والكتاب.

ب- صفة «بعض آيات الكتاب»:

﴿هُوَ الَّذِيَ أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ في قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاء الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاء تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُواْ الألْبَابِ﴾[1].

لأن هذه «الآيات المحكمات» هي التي تعطي «الأطر العامة والأصلية»، أي «الأصل» الذي يقاس إليه «الآيات المتشابهات» لمعرفة معانيها.

أم الكتاب والكتاب المبين:

إذا كان «الكتاب المبين» فيه «إحصاء كل شيء» وكان «أم الكتاب» هو الأصل، فهل إنهما نفس الكتاب أم مختلفان؟

- إذا قلنا: إن ﴿وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾ في الآيات «وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ. إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ. وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾ تشير إلى «الكتاب المكنون»، يصبح الأخير (الكتاب المكنون) مكتوبًا صفته في «أم الكتاب»، فهما إذًا مختلفان.

- وإذا قلنا: إن هذه مجرد صفة يمكن أن تذكر في الشيء ذاته،

---

(١) آل عمران: ٧.

أي كما يصف القرآن نفسه بأوصاف مختلفة في آياته ذاتها، عندها هذا هو ذاك.

فهل هو نفسه أم غيره؟

هل يمكن حل هذا من خلال قضية «استنساخ الأعمال»؟

﴿هَـذَا كِتَابُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[(١)]، والتي ورد في تفسيرها روايات منها عن الصادق عليه السلام: «فهو الكتاب المكنون الذي منه النسخ كلها، أو لستم عربًا فكيف لا تعرفون معنى الكلام؟ واحدكم يقول لصاحبه انسخ ذلك الكتاب وليس إنما ينسخ من كتاب آخر من الأصل وهو قوله ﴿إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾»[(٢)].

والتي يصبح فيها «الكتاب المكنون» الذي هو الأصل «كتاب الكون» «كتاب صحائف الأعمال» هو نفسه الأصل «أم الكتاب»...

أم يمكن حل هذا من خلال قضية «المحو والإثبات»؟

﴿يَمْحُو اللّهُ مَا يَشَاء وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾[(٣)].

والتي تؤكدها الروايات كما عن الصادق عليه السلام «وهل يمحى إلا ما كان ثابتًا وهل يثبت إلا ما لم يكن؟»[(٤)].

---

(١) الجاثية: ٢٩.

(٢) تفسير القمي ج٢ ص٣٧٩.

(٣) الرعد: ٣٩.

(٤) الكافي ج١ ص١٤٦.

الآية المباركة تشير إلى احتمال وجود حالتين: «المحو والإثبات» مقابل «أم الكتاب»، فكأن «أم الكتاب» هو الذي لا تبديل فيه مطلقًا، وعندها: هل إن «المحو والإثبات» في «الكتاب المكنون/ الحفيظ/ المبين»؟

وعندها، هما ليسا فقط مختلفان، ولكن «أم الكتاب» هو الأصل غير القابل للمحو والإثبات والأعلى على «الكتاب المبين» الذي هو الأصل القابل للمحو والإثبات.

قلت «احتمال وجود حالتين: المحو والإثبات مقابل أم الكتاب»، لأنه ليس كل «واو عطف» تعني المغايرة، بل يمكن أن يكون المعطوف من جنس المعطوف عليه، كما في قوله ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ﴾[١]، مع أن «السبع المثاني من القرآن العظيم» بدليل ﴿اللهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ﴾[٢]، وقوله ﴿فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ﴾[٣]، مع أن «الرمان هو فاكهة أيضًا» وليس شيئًا مغايرًا...

٣- جمع «كتب»

جاء القرآن أيضًا بما يتعلق بالـ «كتاب» ولكن بصيغة الجمع:

﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّى

(١) الحجر: ٨٧.
(٢) الزمر: ٢٣.
(٣) الرحمن: ٦٨.

﴿تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ. رَسُولٌ مِّنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُّطَهَّرَةً. فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ﴾[(١)].

الآيات لا تسمي «الرسول» ولا «الصحف» ولا «الكتب»؛ ولكن بما أن الآيات تتحدث عن «البينة» التي تأتي إلى «أهل الكتاب» وهم اليهود والنصارى، وبالتالي فهي -زمنيًا- بعدهم، فهذا ليس إلا الرسول محمد ﷺ، وعليه فإن «الصحف» هي القرآن، وبذا فإن «الكتب القيمة» التي فيها هي ما مر من معان لمفردة «كتاب» التي هي جزء من القرآن وليست أشمل منه.

٤- أخيرًا: العلاقة بين القرآن والكتاب

مما قدمنا من الأقسام المختلفة لاستخدام مفردة «كتاب» في القرآن، نستطيع القول: إن هناك ثلاث حالات:

الأولى: «القرآن» أشمل من «الكتاب» كما في «الفرائض».

الثانية: «القرآن» هو نفس «الكتاب» كما في آيات كثيرة ذكرناها.

الثالثة: «الكتاب» أشمل من «القرآن» كما في الأقسام الأخرى المختلفة من «كتاب الكون» أو «الكتاب المكنون».

وهذا يدل عليه قوله تعالى:

﴿وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَدًا﴾[(٢)]، وهي تتحدث عن «تلاوة» فلا بد أن تكون

---

(١) البينة: ١-٣.

(٢) الكهف: ٢٧.

«القرآن»، فتصفه أنه «من كتاب»؛ وإن كان يمكن القول: إنها تقول «اتل آيات من القرآن النازل من ربك».

وقوله: ﴿وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ﴾[1]، والتي تميل نحو المغايرة، لأنها تقول: إن «الوحي» «من الكتاب» دون استخدام لفظة «التلاوة» كما في الأولى.

على أن ما فصلته من الأقسام المختلفة بنص القرآن يقطع بالمغايرة في البعض وعدمها في البعض الآخر.

***

قائمة ملحقة/ مفردات التطهير

هناك آيات كثيرة تتحدث عن طهر معنوي:

أزواج في الجنة مطهرة

﴿وَبَشِّرِ الَّذِين آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ... وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ...﴾[2].

﴿... لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللّهِ وَاللّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾[3].

---

(١) فاطر:٣١.

(٢) البقرة:٢٥.

(٣) آل عمران:١٥.

﴿وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَّهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَنُدْخِلُهُمْ ظِـلاًّ ظَلِيلاً﴾(١).

أو العهد الإلهي المنزل موصوف بالمطهر

﴿فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ* مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ﴾(٢).

﴿رَسُولٌ مِّنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُّطَهَّرَةً﴾(٣).

أو تطهير من الله للناس

﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلاَئِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاء الْعَالَمِينَ﴾(٤).

﴿إِذْ قَالَ اللّهُ يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُواْ...﴾(٥).

أو التطهير من الأصنام والشرك لبيت الله عن طريق إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام

﴿... وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ

---

(١) النساء:٥٧.
(٢) عبس:١٣-١٤.
(٣) البينة:٢.
(٤) آل عمران:٤٢.
(٥) آل عمران:٥٥.

وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾[١].

﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾[٢].

أو عدم تطهير من الله

﴿... وَمَن يُرِدِ اللّهُ فِتْنَتَهُ فَلَن تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللّهِ شَيْئًا أُوْلَـئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ...﴾[٣].

أو تطهير بفعل نبوي بأمر الله

﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا...﴾[٤].

أو فعل موصوف بالطهر

﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاء فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلاَ تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ... ذَلِكُمْ أَزْكَى لَكُمْ وَأَطْهَرُ...﴾[٥].

﴿... قَالَ يَا قَوْمِ هَـؤُلاء بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُواْ اللّهَ وَلاَ تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي...﴾[٦].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ... وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا

---

(١) البقرة:١٢٥.
(٢) الحج:٢٦.
(٣) المائدة:٤١.
(٤) التوبة:١٠٣.
(٥) البقرة:٢٣٢.
(٦) هود:٧٨.

فَاسْأَلُوهُنَّ مِن وَرَاء حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ...﴾[١].

﴿... إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرُ...﴾[٢].

أو أناس وصفوا بالتطهر

﴿وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَن قَالُواْ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾[٣].

﴿... لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْ وَاللّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ﴾[٤].

﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَن قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾[٥].

وهناك بعض الآيات تتحدث عن طهر مادي:

حالة مادية وصفت بالطهر

﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُواْ النِّسَاء فِي الْمَحِيضِ وَلاَ تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىَ يَطْهُرْنَ...﴾[٦].

---

(١) الأحزاب:٥٣.
(٢) المجادلة:١٢.
(٣) الأعراف:٨٢.
(٤) التوبة:١٠٨.
(٥) النمل:٥٦.
(٦) البقرة:٢٢٢.

أو تطهير من الله مادي معنوي

﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّن السَّمَاء مَاء لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الأَقْدَامَ﴾[1].

أو تطهير من الله، أو بأمر الله، مادي على ظاهره

﴿... فَلَمْ تَجِدُواْ مَاء فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ مَا يُرِيدُ اللّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[2].

﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾[3].

---

(١) الأنفال: ١١.

(٢) النساء: ٤٣.

(٣) المدثر: ٤.

الفَصْلُ الثَّانِي

من مفردات التنزيل

«الوحي – الصحف
الآيات– الفرقان – الروح»

الوحي. الصحف. الآيات. الفرقان. الروح

بعد عرض مفردة «كتاب» وحدها في الفصل السابق، أعرض، في هذا الفصل، المفردات الخمس - الوحي والصحف والآيات والفرقان والروح، وذلك بأمثلة نعطي لها عناوين لأقسام كل منها.

***

ثانيًا: الوَحي

الوحي هو إيصال المطلوب بطريقة غير معتادة من الكلام المنطوق، وقد ذكر القرآن الكريم لها أنواعًا:

١- الوحي بالإشارة كما في فعل زكريا عليه السلام ﴿فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾[١]، وذلك لأنه كان صائمًا عن الكلام بأمر الله تعالى.

٢-الوحي الدائم كسنن لا تتبدل كما في قضية النحل ﴿وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ﴾[٢].

---

(١) مريم:١١.
(٢) النحل:٦٨.

٣-الوحي لتحقيق أمر لا يتحقق إلا به كما في قصة أم موسى عليه السلام ﴿إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّكَ مَا يُوحَى * أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُ﴾[(١)]، وإلا هل يمكن لأم أن تفعل هذا بطفلها الرضيع لولا أنه من الوحي الذي أجبرها على الفعل عابرًا المنطق والحسابات العقلية وحتى عواطف الأمومة.

٤-الوحي بالشريعة للأنبياء عليهم السلام، وهو من مفردات الإشارة إلى التنزيل والقرآن.

من موارده القرآنية:

- ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ﴾[(٢)].

وهي واضحة في وصف «القرآن» أنه «وحي إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم».

- ﴿كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَا أُمَمٌ لِّتَتْلُوَ عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ قُلْ هُوَ رَبِّي لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ﴾[(٣)].

- وقوله ﴿وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ

---

(١) طه:٣٨-٣٩.
(٢) يوسف:٣.
(٣) الرعد:٣٠.

﴿وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَدًا﴾[1].

وهما واضحتان أن «الوحي» هنا هو «القرآن» لاستخدام كلمة «تتلو عليهم».

- ﴿قُلْ إِنَّمَا أُنذِرُكُم بِالْوَحْيِ وَلَا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ﴾[2].

هنا يمكن أن نوسع من «مساحة الوحي» لتشمل القرآن وكذلك ما يوحى إليه ﷺ خارجه، سواء كان من البيان العملي حسب الوقائع أو من الحكمة وغيرها؛ ويمكن أن نجعلها مقتصرة على القرآن فقط بضميمة مفردة «الوحي» التي في الآيات السابقة.

﴿اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾[3] وهذه مثلها، يمكن أن تكون للقرآن فحسب - نصًّا وبيانًا -، كما يمكن أن تتسع.

***

(١) الكهف: ٢٧.

(٢) الأنبياء: ٤٥.

(٣) الأنعام: ١٠٦.

ثالثًا: الصُّحُف

مرت في اللقاء السابق مع مفردة «كتاب» آية سورة البينة ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ * رَسُولٌ مِّنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُّطَهَّرَةً * فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ﴾[١].

هنا نشير إلى مفردة «صحف»، فهي تتعلق بالقرآن، وذلك:

أولًا: الكلام عن مجيء الرسول بعد وجود أهل الكتاب وعليه فالرسول هو محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

ثانيًا: الرسول-البينة هو نبينا صلى الله عليه وآله وسلم لوجود فعل «يتلو»، فلا يمكن أن تكون البينة هي القرآن، لأنه سيكون «القرآن يتلو القرآن» وهو باطل.

ثالثًا: وصف "الصحف مطهرة" يعني «خالية من الخطأ مطلقًا» وهذه عقيدتنا في القرآن.

أما لماذا سماها «صحفًا» بالجمع؟ فلا شك في أن القرآن يحتوي على الكثير مما يملأ صحفًا أطول وأغنى وأعمق بكثير من ﴿صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى﴾[٢] كما هو وصفها في سورة الأعلى:١٩ (وأيضًا سورة النجم)، وبالتالي فإنه يسوغ الوصف أنه «صحف» بالجمع.

***

(١) البينة:١-٣.
(٢) الأعلى:١٩.

رابعًا: الآيات

وردت مفردة «آيات» في القرآن كثيرًا، وذلك بمعانٍ:

١-العلامة ﴿ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّن بَعْدِ مَا رَأَوُا الآيَاتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّى حِينٍ﴾[(١)]، وتعني علامات شق ثوب يوسف عليه السلام من الخلف.

٢-المعجزة الإلهية ﴿وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾[(٢)].

٣-أثر فعل الله في نجاة المؤمنين ﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾[(٣)].

٤-أثر فعل الله في هلاك الكافرين، كما في قصة لوط عليه السلام ﴿وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾[(٤)].

٥-علامة من الله لإقامة الحجة ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَن يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَى وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَآئِكَةُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[(٥)].
(الآية الأولى «آية ملكه» من النوع الأول/ العلامة، ولكن «آية لكم إن كنتم مؤمنين» هي العلامة لإقامة الحجة عليهم فيؤمنون بها إن

---

(١) يوسف:٣٥.
(٢) المؤمنون:٥٠.
(٣) العنكبوت: ١٥.
(٤) الذاريات:٣٧.
(٥) البقرة:٢٤٨.

كانوا مؤمنين).

٦-علامة على النعمة على المؤمنين ﴿وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ آيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا﴾[١].

٧-بمعنى «آيات القرآن الكريم»، وهو ما يدل عليه بوضوح استخدامها في القرآن في مواضع كثيرة، منها:

- ﴿هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَى عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَؤُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[٢].

فهي «منزّلة»؛ وهي منزلة «على عبده» والذي ذكرنا أنه عندما لا يذكر اسم العبد فإنه محمد صلى الله عليه وآله وسلم الذي وصل الغاية في العبودية، (فاقت عبودية إخوانه من الأنبياء والمرسلين عليهم السلام بحيث إذا ذكروا بصفة العبودية فإن أسماءهم الشريفة تذكر، ولكنه وحده صلى الله عليه وآله وسلم الذي لا يحتاج إلى ذكر اسمه في مقام العبودية)؛ وهي تستهدف «إخراجنا من الظلمات إلى النور» فلا بد أنها تكون مما هو إلينا وليس خاصًا به صلى الله عليه وآله وسلم... وعليه، فإنها هنا «آيات القرآن».

- ﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُّبَيِّنَاتٍ وَمَثَلًا مِّنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾[٣].

(١) الفتح: ٢٠.
(٢) الحديد: ٩.
(٣) النور: ٣٤.

وهي «آيات القرآن» لأنها وصفت أنها «مبينة» أي تبين الأمور غير الواضحة، كما أنها «تعطي المثال» للماضين في قصصهم التي ذكرتها «الآيات» أعلاه وغيرها، وفيها «موعظة».

- ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾[١].

فهو الإرسال «البعث» إلى «الأميين» أهل مكة، والرسول «منهم»، وهناك «تلاوة» فهي مما يقرأ، إذًا «آياته» تعني «آيات القرآن».

(أما «الكتاب» فقد ورد فيما سبق، وأما «الحكمة» فسنشير إليها في الفصل القادم).

***

خامسًا: الفُرقان

كلمة "فرقان" من جذر ف ر ق باشتقاق مصدر على وزن فعلان، مثل شكران وغفران وقرآن، ومعناه التفريق بين شيئين أو أشياء؛ كقوله ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي لا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾[٢]، وقوله ﴿قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا

(١) الجمعة:٢.
(٢) المائدة:٢٥.

لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾[١].

إلا أن صيغة «فرقان» هنا هي بمعنى «التفريق بين الحق والباطل» أو «بين الطرق المختلفة عند عدم الوضوح».

وقد وردت مفردة «الفرقان» بمعان متعددة:

١-الذي آتاه موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ ﴿وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾[٢].

«الكتاب» بمعنى كتاب الشريعة و«الفرقان» بمعنى الطريق الواضح بين الحق والباطل.

٢-الذي آتاه موسى وهارون عَلَيْهِمَا السَّلَامُ ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ﴾[٣].

نلاحظ عدم ذكر «الكتاب» عندما ذكر هارون عَلَيْهِ السَّلَامُ مع موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، فلعل مرد ذلك أن «الكتاب» هو «الألواح التي فيها الشريعة في الوصايا العشر المعروفة» والذي نزلت عليه هو موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ وحده عندما ذهب إلى لقاء ربه، في حين أن هارون عَلَيْهِ السَّلَامُ اشترك مع موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ في المعلم الأصلي للدين وهو «الفرقان» بين الحق والباطل، و«الضياء» وهو النور الأصلي الذي يشيع الهدى (لا ننسى أنه قال:

---

(١) الكهف:٧٨.
(٢) البقرة: ٥٣.
(٣) الأنبياء: ٤٨.

﴿جعل الشمس ضياء والقمر نورًا﴾[١]، وضياء الشمس متولد منها بينما نور القمر متولد من انعكاس ضياء الشمس)، ثم «الذكر» بمعناه العام (نتناوله في فصل قادم)... (وألفت نظركم إلى هذه الحالة المشابهة في اقتصار إنزال الكتاب-القرآن على النبي محمد ﷺ وحده بينما كان علي عليه السلام المضطلع بالأمر بعد النبي ﷺ بما عنده من الفرقان والضياء والذكر كونه هارون هذه الأمة بنص النبي ﷺ في الحديث المشهور الذي رواه البخاري «أنت مني بمنزلة هارون من موسى»).

٣-الذي يختلف عن «التوراة والإنجيل» ﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ * مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ...﴾[٢].

صحيح أنه لا يصرح أن «الفرقان» هنا هو «القرآن»، ولكنه ما «أنزل» بعد التوراة والإنجيل، فلا يكون غير القرآن. هنا أيضًا نجده يفرق بين «تنزيل الكتاب عليه ﷺ حصرًا» وبين «إنزال الفرقان عمومًا» (الأمر الذي سنتطرق إليه إن شاء الله في بحث «ويعلمهم الكتاب والحكمة» لأن «الكتاب» نزل عليه ﷺ ثم كان واجبه «التعليم»).

٤-الذي أنزل على الرسول محمد ﷺ ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ

---

(١) يونس:٥.
(٢) آل عمران:٣-٤.

الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾[١].

هذا أيضًا لا يصرح أنه القرآن، ولكن يمكن القول: إنه القرآن، على الأقل في جانب «النذارة». أيضًا لأنه يستخدم الفعل «نزّل» الذي قالوا فيه أنه الوصف الذي يطلق «أثناء عملية التنزيل»، بينما «أنزل» تكون لما قد حصل فعلًا في السابق.

(ولا تنسوا أن عدم ذكر اسم «عبده» الذي سار عليه القرآن الكريم يدل على أنه محمد ﷺ).

وهذا يجعلنا نقول: إن ﴿وأنزل الفرقان﴾[٢] الواردة أعلاه تعني القرآن أيضًا ولو أن الآية نزلت والقرآن لا يزال «يتنزّل» لأن المورد هنا الذكر مع «التوراة والإنجيل» اللذين «أنزلا» كما تنص الآية.

٥-كأحد أقسام «البينات» النازلة مع القرآن ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ﴾[٣].

فهو «جزء من القرآن» أو أن «بيناته» تتصف بصفتي: الهدى والفرقان؛ فهي «تهدي» إلى الصراط المستقيم، كما هي «تفرق» بين الحق والباطل لتعين على عدم السقوط في الباطل.

٦-كاسم لأحد الأيام الخالدة في الإسلام ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ

(١) الفرقان:١.
(٢) آل عمران:٤.
(٣) البقرة:١٨٥.

وَابْنِ السَّبِيلِ إِن كُنتُمْ آمَنتُمْ بِاللّهِ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ وَاللّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[1].

والإجماع على أن «يوم الفرقان» في الآية هو يوم بدر، وسبب التسمية لأن يوم بدر كان يومًا فاصلًا في العديد من الموارد، منها بدء المواجهة العسكرية التي بدأت تطلق عنفوان الإسلام والمسلمين، ومنها أنها حققت النصر للمسلمين في أول مواجهة وهذا بدأ يلفت أنظار القبائل في الجزيرة العربية، ومنها أنها جعلت استمرار المواجهة لا مهرب منه لأن قريشًا ستأتي للثأر قطعًا، وهكذا.

٧-كنتيجة للإيمان والتقوى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إَن تَتَّقُواْ اللّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾[2].

فهو «فرقان» خاص للمؤمنين المتقين، أي ليس هو «توضيح الطريق الأساس للناس جميعًا»، ولكنه «فرقان» ينعم الله به على المسلمين «الذين يفعّلون التقوى منهم»، عندها يعطيهم «أداة فرقان» يتلمسون فيها الطريق باستمرار، إضافة إلى تكفير السيئات وغفران الذنوب.

---

(١) الأنفال:٤١.
(٢) الأنفال:٢٩.

محتويات «الفرقان»

إن مجيء مفردة «الفرقان» متعلقة باليهودية والمسيحية أيضًا جعل البعض يذهب إلى أن هذا يعني أن «الفرقان» يتحدث عن المشتركات بين الأديان الثلاثة من أوامر ونواهٍ، الأمر الذي لا نجد صعوبة في قبوله لأن هذه الديانات تشترك في الكثير من الأحكام.

ولكن هذا الرأي نشكل عليه كما يلي:

أولًا: «الفرقان» الذي «يفرق بين الحق والباطل» يتعلق بالإطار الأعم للاعتقاد وليس بالتفاصيل الشرعية.

ثانيًا: آية سورة الفرقان ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾[١] تعني أن «تنزيل الفرقان» هو «لأجل النذارة»، والنذارة في أصلها هي الإلفات إلى التوحيد واليوم الآخر، وليس الأحكام الشرعية.

ثالثًا: المجتمعات التي يغلب عليها الكفر، بل الإلحاد، تحرم السرقة والقتل وأكل مال اليتيم وغيرها وتنظم لها قوانين تشابه القوانين الدينية، وعليه فليست هذه الأمور خاصة بالمؤمنين من الأديان الثلاثة.

(١) الفرقان: ١.

قرينتان تشيران إلى المقصود بالفرقان:

القرينة الأولى: قوله تعالى في آية الخمس ﴿... وَمَا أَنزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ وَاللّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[(١)].

فهذه تسمي يوم بدر بيوم الفرقان، وهي معركة الحق والباطل، لأنه لم يكن يوم ظهور الإسلام بأحكامه الشرعية، ولا أن القتال كان أصلًا حول هذا، بل كان حول: لا إله إلا الله.

القرينة الثانية: قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إَن تَتَّقُواْ اللّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾[(٢)].

فإنها واضحة أن «جعل الفرقان» يكون لمن تحققت فيهم الصفتان: الإيمان/ الإسلام والتقوى.

وهؤلاء مع غير المتقين مكلفون بالأحكام الشرعية فكيف يكون الفرقان خاصًّا بهم؟

---

(١) الأنفال: ٤١.
(٢) الأنفال: ٢٩.

علاقة «الفرقان» بـ «القرآن»

هنا تهمنا الآيات التي تتعلق بالدين الإسلامي، وهذه تقول:

﴿وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ﴾، ﴿نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ﴾، ﴿أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ﴾

فهي ما بين:

- «الفرقان النازل المنزل» الذي لا مشكلة في أن يكون هو «القرآن النازل المنزل».

- «صفة لما أنزل من القرآن من الهدى والبينات» فهو «جزء من القرآن» أو قل «من أهداف القرآن».

أما آية الخمس ﴿... وَمَا أَنزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ﴾ وآية ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إَن تَتَّقُواْ اللّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا﴾ فإنما تتحدث عن المعنى الأصلي لمفردة «فرقان»، أي «أداة التفريق بين الحق والباطل في ساحة القتال أو التي ينعم الله بها على المؤمنين المتقين».

***

سادسًا: الرُّوح

مفردة «الروح» هي الأخرى جاءت بمعان متعددة، وبحثها عميق والمعاني أوسع مما يرتبط بالقرآن وحسب، ولكنها في بعض الأحيان جاءت متعلقة بالقرآن الكريم:

١-الروح بالمعنى العام ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّن الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾[1]، وهي تقول أن «الروح» ينطلق مما يسميه «أمر ربي»، ثم يردف أن ما عندهم من العلم قليل، وهو فيما يظهر من النص حالة ستستمر إلى يوم القيامة؟

ومن المرجح أنها تتعلق بـ «الروح» المذكور في قوله ﴿تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾[2]، وذلك لجهة ربطه بـ «الملائكة» كما في سورة القدر.

هذه المعية للملائكة كشيء منفصل دون بيان حقيقته نجدها في آية أخرى ﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾[3].

وقد أكد ذلك أمير المؤمنين عليه السلام، ففي رواية يجيب سؤال رجل: «جبرئيل عليه السلام من الملائكة والروح غير جبرئيل»، ولكن الرجل -يبدو من المتعالمين- فقال «لقد قلت عظيمًا من القول!» فقال له

(١) الإسراء: ٨٥.
(٢) المعارج: ٤.
(٣) النبأ: ٣٨.

علي عليه السلام: «إنك ضال تروي عن أهل الضلال! يقول الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وآله وسلم «أتى أمر الله فلا تستعجلوه سبحانه وتعالى عما يشركون. ينزل الملائكة بالروح» والروح غير الملائكة...»[1].

٢-روح يتعلق بالله تعالى ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُ سَاجِدِينَ﴾[2]. ومنه قوله ﴿وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾[3]، فالنفخ من "الروح"، بينما يقول في آية أخرى ﴿فَاتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾[4] ما يشير إلى جبريل عليه السلام.

هناك روايات فرقت بين الاثنين، فقد روي عن الباقر عليه السلام أن «نَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي» أي «من قدرته»[5]، ولكن في غيرها أنه «نسبة إلى الله تعالى كونه شرف الإنسان على المخلوقات»، فإن «فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا» هي «روح» مخلوقة مصطفاة خلق منها عيسى عليه السلام.

٣-جبريل عليه السلام، لقوله تعالى ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ * عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ * بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾[6]، والضمير «هاء» في «به» يتعلق بالقرآن النازل «بلسان عربي مبين»، والمتفق عليه أن النازل بالوحي هو جبريل عليه السلام.

---

(١) الكافي للكليني ج١ ص٢٧٤ رواية ٦.
(٢) الحجر:٢٩.
(٣) الأنبياء:٩١.
(٤) مريم:١٧.
(٥) بحار الأنوار ج٤ ص١٣ رواية ١٤.
(٦) الشعراء:١٩٣-١٩٥.

٤-الروح المرتبط مع التنزيل، وهو ما نريده هنا؛ من ذلك:

- ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَٰكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَنْ نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾(١).

هذا «الروح» الذي نزل التعليم الإلهي للنبي ﷺ يربطه بأمرين:

الأول: الوحي

الثاني: الكتاب

وعليه نستطيع القول: إنه في هذه الآية «يتعلق بالقرآن الكريم».

- ﴿تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ﴾(٢).

وهنا أيضًا «تعلق بالقرآن» بدرجة ما، لأن «تنزل الملائكة والروح» في «ليلة القدر» وهي ليلة «إنزال القرآن أصلًا كان فيها» ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾(٣).

كما أنه يتعلق بنفس التعليم ﴿الروح من أمر ربي﴾(٤) عندما يقول: إن «الملائكة والروح» يتنزلون بالتقادير التي يصفها «من كل أمر».

---

(١) الشورى:٥٢.
(٢) القدر:٤.
(٣) القدر:١.
(٤) الإسراء:٨٥.

- ﴿يُنَزِّلُ الْمَلآئِكَةَ بِالْرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَن يَشَاء مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنذِرُواْ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنَاْ فَاتَّقُونِ﴾[١]، وفيها اختلاف فإن الملائكة هنا ليست مصاحبة للروح، ولكن هي نازلة بـ «الروح من أمره» على الأنبياء والمرسلين عليهم السلام لكي «ينذروا»؛ فهو إذًا يتعلق بـ «الوحي» ومنه الوحي القرآني.

ومثلها ﴿رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَن يَشَاء مِنْ عِبَادِهِ لِيُنذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ﴾[٢]، ولكن مع عدم ذكر «الإنزال بالملائكة».

- ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُواْ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾[٣]، والكلام في سياق آيات عن القرآن، والتنزيل بواسطة «روح القدس»، وكم وردت أن القرآن هو هدى وبشرى، فهذه من تلك.

وبعض الروايات تلقي ضوءًا على هذا «الروح الموحى به»:

«منذ أنزل الله عز وجل ذلك الروح على محمد صلى الله عليه وآله وسلم ما صعد إلى السماء وإنه لفينا»[٤].

«خلق أعظم من جبرئيل وميكائيل كان مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وهو

---

(١) النحل:٢.
(٢) غافر:١٥.
(٣) النحل:١٠٢.
(٤) الكافي ج١ ص٢٧٣ رواية ٢.

مع الأئمة، وهو من الملكوت»[١].

وبالجملة: «الروح» هو شيء من «أمر الله تعالى»، بل الأدق من «أمر الرب سبحانه» لذا فهو يرتبط بالعباد، ما تؤكده آيات سورة القدر وغيرها من إنزال التقادير الدنيوية في ليلة القدر. ولكنه يتعلق بالقرآن الكريم كونه «موحى» به كما في آيات الشورى والنحل وغافر المتقدمة؛ ثم هو يفتح أفقًا أوسع من مجرد النص القرآني الذي ورد بصيغ الكتاب والصحف وغيرها مما هو مكتوب مقروء، فهو إذًا مما جعل النص القرآني يختلط في كيان رسول الله ﷺ بحيث عندما كان ينزل عليه كان يثقل حتى تبرك به الناقة، ويتصبب عرقًا، من أحوال كان يراها الصحابة عندما ينزل الوحي وهو ﷺ بينهم. وهذا هو الذي يجعل من الوحي أوسع من النص القرآني ليشمل بيان النص بالمعاني المباشرة الظاهرة وأيضًا المعاني العميقة وكذلك بالحالات العملية الواقعية... وهذا يقودنا إلى مفردة «النور» في فصل قادم.

(١) نفس المصدر رواية ٣.

الفَصْلُ الثَّالِثُ

من مفردات التنزيل

«الحكمة - الحكم»

الحكمة ـ الحكم

في هذا الفصل، نتناول مفردتي: الحكمة والحكم.

المفردتان من جذر ح ك م ، والمعنى يدور حول «الإحكام، التوصل إلى نتيجة صحيحة مرضية، وما إليه»...

***

سابعًا: الحِكمَة

«الحكمة»، التي معناها «وضع الشيء في نصابه أو مكانه» سواء بالمعنى المادي أو المعنوي - «التصرف الصحيح» -، لا يمكن أن تكون متطابقة مع كامل القرآن، ولكن الآيات التي ذكرت مفردة الحكمة تجعلها تصدق على الأمرين:

الأول: الحكمة التي في القرآن.

الثاني: الحكمة من خارج القرآن.

الثالث: الأول والثاني معًا.

أما دليل الأول فهو: ﴿وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللهِ

﴿وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا﴾[١].

فإنه يقول: إن الذي «يتلى» ليس فقط «آيات الله» ولكن «الحكمة» أيضًا والتي كونها مجرورة فإنه معطوف على «آيات»، وعليه فإن «الحكمة» كانت «تتلى» في «بيوت النبي ﷺ» والتلاوة القراءة، فهي إذا من قراءة القرآن الكريم. أي، لو كانت مما هو خارجه لما كانت «تتلى» بل كانت من التعليم مثلًا الذي جاء في آيات أخرى في الثالث أدناه.

وأما دليل الثاني فهو: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُم مُّلْكًا عَظِيمًا﴾[٢].

﴿وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ﴾[٣].

والتفريق بين «الكتاب» وهو الشريعة، أو العقيدة والشريعة، و«الحكمة» يمكن أن يشير إلى أن «الحكمة» مما آتاه الله آل إبراهيم عليهم السلام «إضافة إلى الكتاب» فهي من خارجه.

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ﴾[٤].

وهذه تقطع بأن «الحكمة» من خارج «الكتاب» لأن لقمان، وإن اختلف في كونه نبيًّا أم لم يكن، قد آتاه الله تعالى «الحكمة فقط» فهي «ليست من ضمن كتاب».

---

(١) الأحزاب: ٣٤.
(٢) البقرة: ٥٤.
(٣) آل عمران: ٤٨.
(٤) لقمان: ١٢.

بل هي مما يمكن أن يؤتاه غير المعصوم:

﴿يُؤتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاء وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾[١].

وكلمة «من يشاء» إذا كانت تعني المرسلين الذين أوتوا «الكتاب» فهي من سنخ ما سبق؛ وإذا كانت تعني أي أحد من الناس -وهو الظاهر من الآية- فهي إذًا قاطعة في أن «الحكمة من خارج الكتاب».

وأما دليل الثالث فهو الآية الآتية: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللّهُ عَلَى الْمُؤمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ﴾[٢].

وذلك لأنه يقول أولًا «يتلو عليهم آياته» وهذه آيات القرآن، ثم بعد ذلك «يعلمهم الكتاب والحكمة»، وبما أن «الكتاب» من الشريعة التي في القرآن فإنه يمكن أن تكون «الحكمة» من القرآن أيضًا كما يمكن أن تكون من خارجه بما أوحاه الله تعالى أو علمه رسوله صلى الله عليه وآله وسلم.

مصدر الحكمة

ذكرنا الآية ﴿يُؤتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاء وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾[٣]، ونستفيد منها (كما من غيرها) أمرين:

الأول: أن «الحكمة» لا يتمتع بها جميع الناس، وهذا نعرفه بالمعايشة

(١) البقرة: ٢٦٩.
(٢) آل عمران: ١٦٤.
(٣) البقرة: ٢٦٩

عندما نصف شخصًا أنه حكيم ولا نصف جميع الناس بذلك.

الثاني: أن «الحكمة» من «نعم الله تعالى» وأنه «يؤتيها من يشاء».

أما لماذا لا يؤتي الله تعالى الحكمة جميع الناس، فجوابه البسيط المباشر هو أن «الحكمة من النعم غير العامة مقابل النعم العامة كنعمة العقل مثلًا التي يحاسب الله تعالى الناس من خلاله».

فهو سبحانه ﴿لا يسأل عما يفعل﴾[(١)]؛ ولكن كونه هو «الحكيم»، بل «مصدر الحكمة»، فإنه لم يفعل ذلك دون حكمة، وبالتالي فربما شاء أن تكون «الحكمة من معايير التمييز بين البشر» من جانب و«من أدوات تسيير الأمور في الدنيا من جانب آخر».

طرق إيتاء الحكمة

١-من المصدر الأول مباشرة كما في آية لقمان.

٢-من خلال المرسلين عليهم السلام، كما في قوله ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾[(٢)].

وهذا نجده واضحًا في «ضم الحكمة إلى الكتاب» في ما ﴿أنزل علينا﴾ ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ

---

(١) الأنبياء:٢٣.
(٢) الجمعة:٢.

﴿الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِ وَاتَّقُواْ اللّهَ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾[١]، فإنه من البديهي أن «الكتاب لم ينزل علينا مباشرة»، وعليه فإن «الحكمة التي نزلت» يمكن أن تكون في بعضها مما جاء عن طريق رسول الله ﷺ الذي تلقى «الكتاب والحكمة» أصلًا ﴿وَأَنزَلَ اللّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾[٢].

٣-من الطريقين معًا؟

هل إن قوله ﴿يُؤتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاء﴾ تشير إلى الطريق الأول - من الله مباشرة - أم الطريق الثاني - من خلال المرسلين عليهم السلام - أم من الطريقين معًا؟

لا يمكن القطع بذلك لأن القرآن يقول: إن هناك «تعليمًا للحكمة» كما في آية الجمعة المارة، كما يقول: إن هناك «إيتاء للحكمة» بشكل عام.

مستويات الحكمة

على أية حال، وكما في غيرها، فإن الناس تختلف في استعدادها لتلقي الفيض الإلهي، فلا شك في أن مستويات الحكمة تختلف. والدليل نتلمسه من الآية المارة ﴿وَأَنزَلَ اللّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ التي تتحدث عن «إنزال الحكمة عليه ﷺ» كما أنزل الكتاب، وهذه الحكمة لا بد أن تكون بمستوى أعلى بكثير من غيرها.

---

(١) البقرة:٢٣١.
(٢) النساء:١١٣.

كما يمكن أن نتلمسه من دعاء إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام بالذرية المسلمة التي تضمنت الدعاء بـ «تعليم الحكمة»:

﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾[(١)]، لأن الحكمة لو كانت مشاعًا وشيئًا واحدًا للجميع لما دعوا عليهما السلام بأن تكون إحدى المهمات الأساسية للرسول المبعوث في الذرية المسلمة تعليم الحكمة.

من مصاديق الحكمة

بعد أن أخبرنا الحق تبارك وتعالى أنه آتى لقمان الحكمة، حدثنا بما وعظ به لقمان ابنه وأورد ذلك اختصارًا:

﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ... وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ... وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا... وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ... إِنَّهَا إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ... أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ... وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا... وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ...﴾[(٢)].

هذه المواعظ، بعضها من العقائد الأساسية - التوحيد وهيمنة

---

(١) البقرة:١٢٩.
(٢) لقمان:١٣-١٩.

الله على الكون؛ وبعضها من أهم العبادات التي تربط الإنسان بخالقه «أقم الصلاة»؛ وبعضها لفت النظر إلى الطريق الواجب الاتباع «واتبع سبيل من أناب إلي»[(١)]؛ وبعضها ممارسات اجتماعية من فروع الدين كالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ وبعضها من الحكمة - معاملة الوالدين، الصبر، التواضع، الهدي من المشي والصوت.

بل يمكن القول: إن «موارد الحكمة» في مواعظ لقمان تمتد إلى جميعها لأنها تعظ بالتعامل بالطريقة الصحيحة المحكمة في جميع هذه الموارد.

الخلاصة: «الحكمة» من مواردها ما هو جزء من القرآن الكريم، فهي «مفردة قرآنية» تتعلق بـ «القرآن» بالتأكيد.

❊❊❊

ثامنًا: الحُكم

يتبادر إلى الذهن عند إطلاق مفردة «الحكم» أنها:

«الحكم الصادر من قاض» أو «السلطة الحاكمة التي تستطيع تنفيذ الأحكام».

وهذا المعنى يجعل المفردة من نوع مفردة «الكتاب» في معانيها

---

(١) أي الذين ينيبون إلى الله تعالى كحالة دائمة - أي كقوله «إنه أوّاب» ص: ٣٠، فيجب أن يلتفت إلى هذا.

التي تتعلق بجزئيات القرآن من أحكام شرعية وغيرها، وبالتالي تندرج في بحثنا عن المفردات التي تتعلق بالقرآن، فنذكرها هنا.

ولكن لأن «المعنى الآخر المتعلق بالقرآن بالتعبير المباشر»، إضافة إلى معان أخرى، وردت أيضًا في القرآن فعلينا التفريق بينها.

القسم الأول: الحُكم بين الخصوم

وهو على أنواع أشير إليها بسرعة:

١-الحكم في شؤون الدين في الدنيا ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُواْ فِيهِ...﴾[١].

٢-الحكم في شؤون الدنيا في الدنيا ﴿وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِالْعَدْلِ﴾[٢].

ومثله فيما يمكن ترتيبه بالتوافق بين المتخاصمين ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُواْ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا إِن يُرِيدَا إِصْلاَحًا...﴾[٣].

٣-الحكم يوم القيامة ﴿... فَاللّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾[٤].

---

(١) البقرة:٢١٣.
(٢) النساء:٥٨.
(٣) النساء:٣٥.
(٤) البقرة:١١٣.

القسم الثاني: بمعنى «التقدير والقضاء»

قول أخي يوسف عليه السلام ﴿فَلَنْ أَبْرَحَ الأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾[1].

﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا نَأْتِي الأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَاللهُ يَحْكُمُ لاَ مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾[2].

﴿وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ﴾[3].

القسم الثالث: الحكم بمعنى «الرأي أو الاعتقاد»

﴿أَفَمَن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لاَّ يَهِدِّيَ إِلاَّ أَن يُهْدَى فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾[4].

﴿يَتَوَارَى مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلاَ سَاء مَا يَحْكُمُونَ﴾[5].

القسم الرابع: «الحكم» الذي بيد المرسلين عليهم السلام

﴿أُوْلَـئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ﴾[6]. بعد أن يعد

---

(١) يوسف: ٨٠.
(٢) الرعد: ٤٢.
(٣) الطور: ٤٨.
(٤) يونس: ٣٥.
(٥) النحل: ٥٩.
(٦) الأنعام: ٨٩.

الأنبياء عليهم السلام في آيات قبلها.

وأحيانًا تأتي «نكرة» فهي غير مستوعبة، ﴿وَلُوطًا آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾[(١)].

* ولكن ما هو هذا «الحكم»؟

ربما نجده في قول موسى عليه السلام ﴿فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾[(٢)].

وكان قد وُهِبَ له بعد أن بلغ أشده ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾[(٣)].

يقول السيد الطباطبائي: «وأما الحكم فالمراد به -كما استظهرناه- إصابة النظر في حقيقة الأمر وإتقان الرأي في العمل به».

وهناك له تفصيل في الذهاب إلى أن موسى عليه السلام أوتي «مراتب الحُكم» بشكل تدريجي. يقول: «والتدبر في متن الجواب ومقابلته الاعتراض يعطي أن قوله: «ففررت منكم لما خفتكم فوهب لي ربي حكمًا» من تمام الجواب عن القتل فيتقابل الحكم والضلال ويتضح حينئذ أن المراد بالضلال الجهل المقابل للحكم والحكم إصابة النظر في حقيقة الأمر وإتقان الرأي في تطبيق العمل عليه فيرجع معناه إلى القضاء الحق في حسن الفعل وقبحه وتطبيق العمل عليه.

(١) الأنبياء: ٧٤.
(٢) القصص: ٢٢.
(٣) القصص: ١٤.

وقوله: «ففررت منكم لما خفتكم فوهب لي ربي حكمًا» متفرع على قصة القتل، والسبب في خوفه وفراره ما أخبر الله به في سورة القصص بقوله: ﴿وجاء رجل من أقصى المدينة يسعى قال يا موسى إن الملا يأتمرون بك ليقتلوك فاخرج إني لك من الناصحين فخرج منها خائفا يترقب﴾[(١)]».

ثم يوضح رحمه الله ما ظاهره التناقض:

«فإن قلت: صريح الآية أن موهبة الحكم كانت بعد واقعة القتل ومفاد آيات سورة القصص أنه عليه السلام أعطي الحكم قبلها، قال تعالى: ﴿ولما بلغ أشده واستوى آتيناه حكما وعلما وكذلك نجزي المحسنين، ودخل المدينة﴾ إلخ[(٢)]، ثم ساق القصة وذكر القتل والفرار. قلت: إنما ورد لفظ الحكم ههنا وفي سورة القصص منكرًا وهو مشعر بمغايرة كل منهما الآخر وقد ورد في خصوص التوراة أنها متضمنة للحكم، قال تعالى: ﴿وعندهم التوراة فيها حكم الله﴾[(٣)]، وقد نزلت التوراة بعد غرق فرعون وإنجاء بني إسرائيل. فمن الممكن أن يقال: إن موسى عليه السلام أعطي مراتب من الحكم بعضها فوق بعض قبل قتل القبطي وبعد الفرار قبل العود إلى مصر وبعد غرق فرعون، وقد خصه الله في كل مرة بمرتبة من الحكم حتى تمت له الحكمة بنزول التوراة...».

(١) القصص: ٢١.
(٢) القصص: ١٥.
(٣) المائدة: ٤٣.

ليخلص إلى القول: «ويظهر بما تقدم عدم استقامة تفسير بعضهم الحكم بالنبوة لعدم دليل عليه من جهة اللفظ ولا المقام».

إذًا:

١- الحكم ليس النبوة.

٢- عندما جاء نكرة، «حكمًا»، فلأنه «جزء من الحكم التام» الذي يتم على مراحل.

القسم الخامس: العلاقة بين «الكتاب» و «الحُكم»

﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللهُ...﴾[1].

فمن غير المعقول التوجه إلى غيره سبحانه ﴿أَفَغَيْرَ اللهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا...﴾[2].

بل هو أمر واجب لا يسع المؤمن التخفف منه ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا﴾[3].

وهذا ليس خيارًا إذا ما دعوا إليه أولًا، فلسان حال المؤمنين هو ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن

---

(١) النساء: ١٠٥.
(٢) الأنعام: ١١٤.
(٣) النساء: ٦٥.

﴿يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[(١)].

لأن هذا «الحكم» هو في الحقيقة من الله، والقرآن ينسبه أحيانًا بشكل مباشر إليه سبحانه:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَوْفُواْ بِالْعُقُودِ أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ الأَنْعَامِ إِلاَّ مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ إِنَّ اللّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ﴾[(٢)].

﴿وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ...﴾[(٣)].

لأن «الحكم هو حصري لله»:

﴿قُلْ إِنِّي عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَكَذَّبْتُم بِهِ... إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلّهِ يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ﴾[(٤)].

﴿... إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلّهِ أَمَرَ أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَـكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ﴾[(٥)].

كما أنه - إضافة إلى أنه حصري لله - يتعلق - هنا على الأقل - بأصل الدين الأول وهو التوحيد، ثم بالأصل الثاني النبوة.

---

(١) النور: ٥١.
(٢) المائدة: ١.
(٣) الشورى: ١٠.
(٤) الأنعام: ٥٧.
(٥) يوسف: ٤٠.

صفة من لا يحكم بما أنزل اللّه

وعليه، فقد نزل التحذير الشديد من الفشل أو الامتناع عن «الحكم بما أنزل الله»، وذلك على شكل إطلاق صفات الكفر والظلم والفسق، وهي الآيات المعروفة في سورة المائدة والتي نختصر ذكرها كما يلي ودون الدخول في تدبر لماذا استخدمت كل صفة من الصفات في تلك الآية وليست الأخرى:

﴿إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُواْ لِلَّذِينَ هَادُواْ وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ... وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللّهُ فَأُوْلَـئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾[(١)].

﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ... وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أنزَلَ اللّهُ فَأُوْلَـئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾[(٢)].

﴿وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الإِنجِيلِ بِمَا أَنزَلَ اللّهُ فِيهِ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللّهُ فَأُوْلَـئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾[(٣)].

ثم تعلن الآيات بعدها أن «الحكم» النازل في «الشريعة الإسلامية» مهيمن على ما سبقه بحيث إذا أراد أتباع الديانات السابقة التحاكم إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم فإن الحكم الإسلامي هو الذي يطبق.

---

(١) المائدة: ٤٤.

(٢) المائدة: ٤٥.

(٣) المائدة: ٤٧.

﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ...﴾[١]، ﴿وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ اللَّهُ...﴾[٢].

القسم السادس: المتعلق بالقرآن مباشرة

﴿وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءهُم بَعْدَ مَا جَاءكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلاَ وَاقٍ﴾[٣].

هل المقصود «الأحكام التي في القرآن كجزء من التنزيل العربي»، أم «الحكم السلطوي»، أم «الدور المميز للعرب في الإسلام»؟

أما الاحتمال الأول -الأحكام التي في القرآن العربي- فهو مشابه لما ذكرناه سابقًا من أن مفردة «الكتاب» تعني فيما تعني «جزءًا من التنزيل القرآني في قسم الأحكام الشرعية»، وبالتالي فإن «حكمًا عربيًّا» تعني «آيات القضاء بين المتخاصمين، في مرجعيتها وفي بعض تفاصيلها، في القرآن العربي نزلت باللغة العربية».

وربما يساعد على هذا الاحتمال ربطه بـ «العلم» بعدها «بعد ما جاءك من العلم»؛ وإن كان يمكن أن يمتد «العلم» إلى مساحات أخرى.

(١) المائدة:٤٨.

(٢) المائدة:٤٩.

(٣) الرعد:٣٧.

الاحتمال مقبول، ولكن التعبير «وكذلك أنزلناه حكمًا عربيًّا» يشي بما هو أبعد من هذا؛ أعني أن التعبير أكبر من جزء «القضاء» على أهميته الكبيرة.

الاحتمال الثاني - الحكم السلطوي - فيه إشكال جعل «العرب» هم الحكام على الناس مطلقًا مع أننا نعلم أن العرب حالهم حال غيرهم من الشعوب، خليط من الأخيار والأشرار، العلماء والجهلة، الصالحين والفاسدين، فعلى أي أساس يكون لهم الحكم على غيرهم؟

نعم، إذا كان القصد الأخيار العلماء الصالحين فإن المسألة يمكن أن تقترب من القبول؟ ولكن أليس في غيرهم الأخيار العلماء الصالحون - فلماذا العرب حكام عليهم؟

ولكن إذا كان هؤلاء الأخيار العلماء الصالحون محددين في جماعة لها مواصفات تجعلها أعلى كعبًا من غيرها، مواصفات تكون قد نزلت في النص الشرعي الصحيح، في القرآن والحديث الصحيح، علاوة على إثباتها على أرض الواقع تميزها المؤهل لها، عندها يمكن قبوله.

وقد جاءت الروايات في هذا، ولكن ليس كلها مما يؤخذ به. فما روي في الحديث أن «الأئمة من قريش» لا يمكن قبوله على إطلاقه، أولًا لأن قريشًا كانت أول الأمر، وفيما بعد، من أشد الناس عداوة للدين، ثانيًا ظهر على يديها من الجرائم والمظالم ما يجعلها

أليق بأن تُحكَم لا أن تَحكُم، ثالثًا لأن أفرادًا من غيرها أثبتوا أنهم أصلح وأعدل وأفضل وبما لا يقاس.

هذه الفكرة - «الأئمة من قريش» - رفضها أبو حنيفة كما رفضها الخوارج، ولكن تمسك بها الآخرون، بحيث أنها اليوم مما يثيره بعض معارضي آل سعود حكام الحجاز على اعتبار أنهم ليسوا من قريش.

وهذه مفارقة من هؤلاء المعارضين المنحرفين عندما نجمعها مع رفضهم التام لرأي أن «الحكم لأئمة أهل البيت عليهم السلام»، خصوصًا وهناك رواية أن «الأئمة من بني هاشم» وليس «من قريش». أي: يقبلون أن يكون الحكم ممكنًا لأي فرد قرشي ولكنه غير مقبول لأي فرد من مجموعة صغيرة من المختارين!

الاحتمال الثالث - الدور المميز للعرب في الإسلام - فيه هو الآخر ما يدعمه كما أن فيه ما يضعفه. فما يدعمه هو ما لا يمكن دفعه وهو:

١- أن القرآن نزل بلغتهم فلا بد أنهم أقدر على فهمه من غيرهم.

٢- أن الرسول الخاتم صلى الله عليه وآله وسلم منهم ومن بيئتهم وعاداتهم.

٣- أنهم شكلوا المجموعة الأولى التي نزلت الدعوة فيها فلا بد أن تكون فيها مواصفات إيجابية لهذا.

٤- أنهم شكلوا الجماعة الأولى التي حملت الدين إلى الناس .

٥- أنهم هم الذين اصطفى الله منهم أئمة الهدى عليهم السلام الذين أنيط بهم حفظ الشريعة بعد النبي صلى الله عليه وآله وسلم.

٦- أنهم - وهذه تتمة لـ ٥ - قدموا المذهب المتميز بتشدده في العربية وهو مذهب أهل البيت عليهم السلام.

* وهنا تجدر ملاحظة: أن الصورة التي تعطى عادة لعرب الجاهلية تخلو من أية حسنة، وهذا ظلم كبير، لأنهم تمتعوا بمزايا جميلة لا شك فيها كالكرم والشجاعة والنجدة وإغاثة المحتاج وحتى نصرة المظلوم إلى درجة إنشاء حلف من أجل ذلك سمي «حلف الفضول»، وهو تحالف صحيح في هدفه بحيث أنه روي أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم ذكره وقال «لو دعيت به في الإسلام لأجبت»[(١)]، ثم كان هو ما هدد بإحيائه الإمام الحسين عليه السلام وعبد الرحمن بن أبي بكر عندما ضغط عليهما معاوية لأخذ البيعة لابنه يزيد. ولا يفوتنا أن نذكر ما يعده الناس اليوم بالخصوص من المزايا الإيجابية عند الأمم، وهو شدة الاهتمام بالشعر والأدب بحيث شكل الشعر عنوانًا واضحًا لهم في جميع مفاصل حياتهم وأحداثهم ووقائعهم، حتى أن «دار الندوة» في مكة كانت النادي الشعري بامتياز، بل وصلوا إلى تعليق سبع قصائد على الكعبة التي كانت أقدس ما عندهم.

(١) الطبقات الكبرى، ج١، ص٣٤٢.

عروبة القرآن هي القدر المتيقن

صفة «عروبة» أو «عربي» إنما تعني «الكلام الفصيح الواضح»، مقابل «العجمة» أو «الأعجمي» التي تعني «الكلام غير الواضح أو المختلط»؛ وعليه فإن صفة «عربي» في «حكمًا عربيًا» تعني أنه واضح الأحكام، كما تعني أنه بهذا الشكل لا مشكلة في تبين تعبيره عند التدبر وأيضًا عند ربطه ببيان الرسول صلى الله عليه وآله وسلم والأئمة عليهم السلام والعلماء العالمين به (وهي نقطة مهمة هي التي أسست إمكانية جعل القرآن الضابطة للحديث الشريف بحيث أمرنا النبي صلى الله عليه وآله وسلم والأئمة عليهم السلام بأن «نعرض الحديث على القرآن لنتبين فيما إذا كان الحديث مقبولًا أم لا»).

هذه الصفة وردت أيضًا ﴿قُرآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾[1]، فعربيته تعني عدم عوجه بالنسبة لمن أنزل عليهم أول مرة.

ولو قرأنا الآية قبلها ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾[2]، فإننا نجده يقول: إن الأمثال المضروبة فيه هي «للناس» وليس «للعرب فقط»، فكيف سيستفيد «الناس» منها إلا بطريقين: (الأول) أن يتعلموا العربية (الثاني) أن ينقل العرب إليهم القرآن إلى لغاتهم.

---

(١) الزمر: ٢٨.
(٢) الزمر: ٢٧.

والطريقان سيجعلان غير العرب متعلقين بالعرب قطعًا، لأن اللغة ليست مركب نقل فحسب، بل هي وسيلة تعبير حضاري وكاشفة لجوانب حضارة أصحاب تلك اللغة.

القسم السابع: هل هو «السلطة» أم «القضاء»؟

ولكن هناك آيات يمكن لها أن تكون بمعنى «السلطة» كما يمكن أن تكون بمعنى «الحكم القضائي» مثلما ورد أعلاه.

ذلك أن القرآن الكريم لم يستخدم كلمة «القضاء» بمعنى «الحكم القضائي» كما نستخدمه اليوم، ولكنه استخدم «الحكم» فحسب، كما في الآيات الواردة أعلاه وغيرها مثلًا ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَقْتُلُواْ الصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ وَمَن قَتَلَهُ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاء مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾[١].

لذا تختلط «الحكم بمعنى القضاء» مع «الحكم بمعنى السلطة» إن كان معناها هكذا فعلًا.

والآية المارة أولًا:

﴿أُوْلَـئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ﴾[٢].

ولكن الآية التالية تتحدث عن القوم جميعًا وليس الأنبياء عليهم السلام:

---

(١) المائدة: ٩٥.
(٢) الأنعام: ٨٩.

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ...﴾[(١)].

فهل إن «إيتاء بني إسرائيل الحكم» أقرب إليه «الحكم القضائي» أم «الحكم السلطوي»؟ لا معنى لإيتاء «الحكم السلطوي» لجميع بني إسرائيل، إذ لا هو منطقي عندما يكونون وحدهم في المجتمع لأن السلطة ليست للجميع، ولا هو يتوافق مع المجتمع المصري الذي كانوا فيه لأن الله تعالى أرسل موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ ليخرج بني إسرائيل من ذلك المجتمع.

وعند المقارنة نجد أن «الحكم الذي بيد الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ لا يمكن أن يكون السلطة على إطلاقه» والدليل قوله تعالى ﴿يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا﴾[(٢)]، لأنه من غير المعقول أن الصبي يولّى الحكم السلطوي لأسباب متعددة لا مجال لبحثها.

القول أن «الحكم» هو «النبوة»

وهذا رأي آخر، وهو أن معنى «الحكم» في هذه الآيات المتعلقة بالأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ هو «النبوة»، وهو ممكن، ولكن يمكن الإشكال عليه أنه ذكر منفصلًا عن «النبوة» في السرد «الكتاب والحكم والنبوة». وقد ذكرنا أن الطباطبائي رفضه.

(١) الجاثية:١٦.
(٢) مريم:١٢.

◆ وماذا عن «المُلك»؟

«الحكم» بمعنى «السلطة» بشكل صريح ورد في القرآن بلفظة «المُلْك»، وذلك في آيات كثيرة، بعضها تجعلها -أي السلطة- جزءًا من «المُلك»، سواء في «مُلْك الله تعالى» أو «مُلْك الناس»:

﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[(١)].

وهذا يصفه بأنه «الملك الحقيقي» لأنه أصيل لم يأتِ من خارج ولا يستطيع أحد أن ينزعه عنه سبحانه:

﴿فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ...﴾[(٢)].

﴿فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ﴾[(٣)].

﴿ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ﴾[(٤)].

هذا «المُلْك الإلهي» الذي منه يأتي «الملك البشري»:

﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[(٥)].

---

(١) الملك:١.
(٢) طه:١١٤.
(٣) المؤمنون:١١٦.
(٤) فاطر:١٣.
(٥) آل عمران:٢٦.

فالملك يؤتيه لأشخاص ليسوا من المصطفين الأخيار:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَآجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رِبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللّهُ الْمُلْكَ﴾[١].

﴿وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ...﴾[٢].

﴿إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾[٣].

أو الملك المنسوب للجماعة:

﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ... يَا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِن بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءنَا﴾[٤].

ولكن الذي يهمنا هو "الملك الذي يؤتيه المصطفين" لربطه مع النبوة والكتاب:

﴿وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ... إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ... وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً... وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ﴾[٥].

﴿وَاتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ...﴾[٦].

(١) البقرة:٢٥٨.
(٢) يوسف:٤٣.
(٣) النمل:٢٣.
(٤) غافر:٢٨-٢٩.
(٥) ص:١٧-٢٠.
(٦) البقرة:١٠٢.

هذا الملك الذي طلبه سليمان عليه السلام فاستجيب له: ﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ... فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ... وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاء وَغَوَّاصٍ. وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ. هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[(١)].

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلإِ مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ مِن بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُواْ لِنَبِيٍّ لَّهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللّهِ... وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوَاْ أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاء وَاللّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ. وَقَالَ لَهُمْ نِبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَن يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَى وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلآئِكَةُ...﴾[(٢)].

فلو كان كل نبي عليه السلام يحكم مجتمعه كتحصيل حاصل لما طلبوا منه عليه السلام شخصًا آخر يأتي كملك عليهم، وقام فعلًا بالطلب واستجاب الله طبعًا.

ثم يقول ﴿فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللّهِ وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ...﴾[(٣)].

ولكنه عندما يأتي إلى يوسف عليه السلام فإن التعبير يصبح جزءًا من المُلك، فيقول يوسف عليه السلام: ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي

(١) ص:٣٠-٣٩.
(٢) البقرة:٢٤٦-٢٤٨.
(٣) البقرة:٢٥١.

﴿مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ...﴾[١]، وذلك لأنه كان وزيرًا أعطاه الملك مسؤوليات محدودة، فهو إذًا «من الملك».

ثم هناك ما نربطه بالأمة الإسلامية:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ هَؤُلاء أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُواْ سَبِيلًا*أُوْلَـئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللّهُ وَمَن يَلْعَنِ اللّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا* أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ الْمُلْكِ فَإِذًا لاَّ يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا * أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللّهُ مِن فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُم مُّلْكًا عَظِيمًا * فَمِنْهُم مَّنْ آمَنَ بِهِ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ وَكَفَى بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا﴾[٢].

قلنا: إن «آية الحسد» واضحة في أن «المحسودين هم آل محمد صلى الله عليه وآله وسلم» لأنهم الذين يوازون آل إبراهيم عليه السلام في أمته، وما يهمنا هنا هو الآتي:

١-أن «الملك» يتضمن «الملك المادي» لقوله «لا يؤتون الناس نقيرًا».

٢-أنه إيتاء من الله تعالى «ما آتاهم الله من فضله».

٣-أنه مربوط بـ«الكتاب» و«الحكمة» «الكتاب والحكمة وآتيناهم

---

(١) يوسف:١٠١.
(٢) النساء:٥١-٥٥.

ملكًا عظيمًا» ما يفرق بين «الكتاب» وهو كتاب العقيدة والشريعة و«الحكمة» وهي وضع الأمور في نصابها عن «الملك العظيم» وهو الملك المادي أو السلطة أو الاثنين معًا، لأنها كلها كانت قد تحققت في آل إبراهيم عليه السلام في الخط الإسحاقي بما نص عليه القرآن من ملك داود وسليمان عليهما السلام وأقل منه في حالة يوسف عليه السلام قبلهما.

٤-أنه يجعل «الإيمان» بجميع ما عند المحسودين وحدة واحدة «فمنهم من آمن به ومنهم من صد عنه»، وعليه فإن «الملك» الذي يؤتاه من أوتي «الكتاب والحكمة» جزء من موارد الاصطفاء لأنه يتعلق بتطبيق ما في «الكتاب والحكمة».

٥-أنه يهدد بالعذاب الأخروي فقط، وبالتالي لا يجبر الناس على قبول هذه الوحدة الواحدة من «الكتاب والحكمة والملك»، أي أن الحرية تبقى للناس بقبوله أو رفضه.

ولكن هل يبقى جانب «السلطة» بشكل ما؟

إذًا: «الحكم» هنا هو في نفس السياق - أي ما تتضمنه المعاني السابقة من كونه «القضاء» من جانب، وكونه «إصابة النظر في حقيقة الأمر وإتقان الرأي في العمل به»[1] كما قال الطباطبائي من جانب آخر.

وأنه لو كان المقصود بـ«الحكم» السلطة لكان عبر عنه بـ«المُلْك».

---

(١) تفسير الميزان، ج١٥، ص٢٦٣.

ولكن يبقى السؤال: كيف يمكن تحقيق «عدم اتباع الأهواء» على أرض الواقع في المجتمع؟ إن التزام بعض الأفراد بهذا لا يشكل ضمانة لالتزام الآخرين به، وإذا ترك الأمر فهذا يعني ضياع الهدف من كل القضية...

وعليه، لا بد من «الأمر بالتنفيذ وترك حرية الاختيار للناس»، فإن أطاعوا ربحوا وإن عصوا خسروا...

الفَصْلُ الرَّابِعُ

من مفردات التنزيل

«النور – الذكر»

النور والذكر

في هذا الفصل نتناول آخر المفردات، وهما: النور والذكر.

***

سابعًا: النُّور

نحن نستخدم مفردة «النور» بالمعنى المادي والمعنى المعنوي المجازي، وقد فعل القرآن الكريم ذلك؛ كما استخدمها بشكل ألصق بالقرآن وما يتعلق به.

«النور» بالاستخدام العام

١- النور بالمعنى المادي، وصف الضوء بالنور ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاء وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُواْ عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾[١] (وإن كنا نحن نقول «نور الشمس» أيضًا).

٢- النور بالمعنى المعنوي المجازي، كما في قوله ﴿أَلر كِتَابٌ

---

(١) يونس: ٥.

﴿أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾[1]، وهي واضحة في «النور المعنوي» يخرجهم «الكتاب المنزل» من «ظلمات الكفر والجهل» المعنوية.

«النور» بمعنى «القرآن» و«ما يتعلق بالقرآن»

وهذا هو المتعلق بالبحث، وقد جاءت فيه آيات متعددة:

١- ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُم بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا﴾[2].

فإذا ما قلنا: إن «أنزلنا» تعني «إنزال القرآن» فإن «نورًا مبينًا» تعني «القرآن المبين» وهو ما وصف به القرآن في آيات ذكرناها فيما مضى.

٢- ﴿فَآمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنزَلْنَا وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾[3].

وهذه تؤيد معنى «القرآن» لمفردة «نور» لأن «النور الذي أنزلنا» كما هو «القرآن الذي أنزلنا».

مع ملاحظة النقطة التي طالما نذكّر بها، المرجعية الرسولية في البيان، فإن الآية تأمر بالإيمان بثلاثة: (١) الله (٢) الرسول (٣)

(١) إبراهيم:١.
(٢) النساء:١٧٤.
(٣) التغابن:٨.

النور المنزل أو القرآن؛ فإن شئت قلت: إن «النور المنزل» هو «نص القرآن» فحسب، وإن شئت قلت: إنه «النص والبيان».

٣- ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ قَدْ جَاءكُم مِّنَ اللهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ﴾[١]، وهو خطاب موجه إلى أهل الكتاب، ولكنه يفرق بين «نور» و«كتاب مبين» ما يشير إلى شيئين، أو إلى وصفين لشيء واحد وهو أضعف. فإذا كان «القرآن هو «كتاب مبين»» فما هو الـ «نور» الذي جاءهم مع الكتاب المبين؟

كما ينبغي ملاحظة الفعل «جاءكم» ورد مرتين، مرة والفاعل «رسولنا» ومرة والفاعل «نور» والمعطوف «كتاب مبين». الأولى تؤكد مرة أخرى أن رسول الله ﷺ «هو المبين»، بل هنا هو المبين ليس فقط للقرآن ولكن أيضًا «لما كانوا يخفون من الكتاب السماوي السابق على القرآن».

٤- ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَآئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلاَلَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُواْ بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُواْ النُّورَ الَّذِيَ أُنزِلَ مَعَهُ أُوْلَـئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[٢].

(١) المائدة: ١٥.
(٢) الأعراف: ١٥٧.

التدبر في هذه الآية المباركة يعطي أمورًا، نلتقط منها:

أولًا: نقطة تذكر بما نلفت إليه مرارًا (ذكرناها من قبل بخصوص المرجعية الرسولية النبوية المحمدية)، وهي أن «يتبعون» لم تقتصر على «الرسول» فقط ليقال أنها تتعلق بالقرآن فقط، بل تمتد إلى «النبي» كما تمتد إلى الصفة البشرية «الأمي»؛ وهذا الاتباع في الواجبات فرض لا يمكن التخفف منه، ولكنه حتى في غير الواجبات سيكون من مصلحة المتبِع.

ثانيًا: أن كلمة «عزروه» تعني النصر كما تعني «التبجيل والتعظيم»، ولما جاءت مفردة «ونصروه» أيضًا علمنا أن المراد من «وعزروه» هو «التبجيل والتعظيم» - وعندها تطلق الآية صفة «المفلحين» على من يفعّل الأمور الأربعة في علاقته مع الرسول ﷺ: الإيمان والتعظيم والنصرة واتباع «النور الذي أنزل معه».

ثالثًا: هل «النور» هو «القرآن» أم ما هو أوسع منه؟ أي كما أشرت قبل قليل.

رابعًا: هذا التعبير «النور الذي أنزل معه» أود فتح باب النظر في التعبير «أنزل معه» بغض النظر عن أن معنى «النور» هو «القرآن»، بنصه فقط أو بنصه وبيانه جميعًا أو حتى ما هو أوسع من هذا، فإنه «منزل من عند الله»، فما معنى القول: إنه «منزل معه» بحيث كأن الرسول ﷺ «منزل» هو الآخر من عند الله تعالى؟ هل هو فقط كناية عن أن «القرآن» «أنزل وصار معه» أم هو كناية عن أن الرسول ﷺ

كان «مذخورًا منذ أول الخلق للاضطلاع بالمهمة الكبرى في حمل الرسالة الخاتمة» (والحديث الذي وصف هو ﷺ نفسه بأنه «أول النبيين ميثاقًا وآخرهم مبعثًا» معروف مشهور؛ بل إن القرآن يشير إلى هذا في أخذه العهد من جميع الأنبياء والمرسلين عليهم السلام ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّيْنَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُواْ أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُواْ وَأَنَاْ مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ﴾[(١)])؟

ولكن كيف يستقيم هذا مع الآية التي ذكرناها في مفردة «الروح» التي تقول: إنه «ما كان يدري ما الكتب ولا الإيمان»، أي الآية التالية فيما يلي؟

٥- قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَنْ نَّشَاء مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[(٢)]، لا يتعارض مطلقًا لأنه لا يوجد تاريخ لهذا الوحي «أوحينا إليك روحًا من أمرنا»، فهو ليس تاريخ «إنزال القرآن» بعد البعثة مثلًا؛ كما أننا قلنا: إن «الروح» شيء أكبر من «القرآن»، وكذلك «الأمر». وعليه، فإن عدم درايته ﷺ بالكتاب والإيمان كان في مبتدأ خلقه وأخذ العهد منه.

رواية عن أبي حمزة يسأل الإمام الصادق عليه السلام عن العلم ثم يأتي إلى هذه الآية المباركة، فيوضحها قائلًا: «بلى قد كان في حال

(١) آل عمران: ٨١.
(٢) الشورى: ٥٢.

لا يدري ما الكتاب ولا الإيمان حتى بعث الله تعالى الروح التي ذكر في الكتاب، فلما أوحاها إليه علم بها العلم والفهم، وهي الروح التي يعطيها الله تعالى من شاء، فإذا أعطاها عبدًا علمه الفهم»[(١)].

على أية حال، يجب أن يكون هناك فرق بين التعبير بكل من الثلاثة:

- «الإنزال إليه» ﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُوا الأَلْبَابِ﴾[(٢)].

- «الإنزال عليه» ﴿هُوَ الَّذِيَ أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ﴾[(٣)].

- «الإنزال معه» «وَاتَّبَعُواْ النُّورَ الَّذِيَ أُنزِلَ مَعَهُ» الآية موضع البحث؛ لأن معنى «مع» غير معنى «إلى» و«على»، فـ «الإنزال إليه أو عليه» تعطي صورة الإنزال من المكان الأعلى إلى حيث وجوده صلى الله عليه وآله وسلم على الأرض في حين أن «الإنزال معه» تعطي صورة الإنزال المشترك - النور والرسول صلى الله عليه وآله وسلم.

وهذا لا يخرج من أحد المعنيين اللذين أشرت إليهما أعلاه: إما كناية عن أن «القرآن» «أنزل وصار معه» أو هو كناية عن أن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم كان «مذخورًا منذ أول الخلق للاضطلاع بالمهمة الكبرى في

---

(١) الكافي ج١ ص٢٧٣ رواية ٥.
(٢) ص:٢٩.
(٣) آل عمران:٧.

حمل الرسالة الخاتمة».

هذا التعبير – «إنزال النور مع الرسول» – ليس غريبًا في القرآن الذي قال ﴿فَاتَّقُوا اللهَ يَا أُوْلِي الْأَلْبَابِ الَّذِينَ آمَنُوا قَدْ أَنزَلَ اللهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا. رَّسُولًا يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللهِ مُبَيِّنَاتٍ...﴾(١)، لأن الرسول هنا هو رسول الله ﷺ بدلالة «يتلو عليكم آيات الله» أي يقرؤها عليكم... فهذا الإنزال من ذلك الإنزال – إنزال النور وإنزال الذكر/ الرسول ﷺ.

«ولكن جعلنا نورًا نهدي به» – فـ «القرآن وبيانه» وربما أيضًا جميع ما يندرج تحت «روحًا من أمرنا» في قوله ﴿أوحينا إليك روحًا من أمرنا﴾(٢) المارة في الفصل السابق.

ولا تنسوا «النفخ الإعجازي» في مريم عليها السلام بحيث جعلها تحمل بعيسى عليه السلام خارج القوانين الطبيعية. فهذا «الروح» هو الذي يفعل فعله بحيث أن القرآن اختلط بكيانه ﷺ كله.

«هو نور الهداية»؛ ثم يعطف ذلك عليه ﷺ فيقول «وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم»، فنور الهداية نزل بالروح من أمره تعالى، واتباع النبي ﷺ يحقق الهداية.

(١) الطلاق: ١٠-١١.
(٢) الشورى: ٥٢.

الخلاصة في «النور»

أنه الجانب المعنوي في الفعل الإلهي الذي يستهدف هدى الناس إلى الصراط المستقيم؛ وهذا مقابل الجانب المادي الخارجي في «الفرقان» الذي «يوضح الفرق بين الحق والباطل» فيعين على «اجتناب الباطل».

***

عاشرًا: الذِّكْر

المفردات من الجذر ذ ك ر كثيرة في القرآن، لا سيما بصيغة الفعل «يذكر، اذكروا» وغيرها «الذكرى، التذكرة». ولكن ما يعنينا هنا ما هو مرتبط بالقرآن الكريم، أشير إليها فيما يلي.

١-الذكر نزل في السابقين

قبل القرآن، ذكرت صفة «الذكر» فيما نزل على الأنبياء عليهم السلام من ضمن أدواتهم التبليغية إلى أقوامهم:

﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ﴾[١].

٢-الذكر كصفة عامة لوظيفة القرآن

(١) الأعراف: ٦٣.

﴿وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ﴾(١).

﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾(٢).

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ﴾(٣).

﴿وَقَالُواْ يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾(٤).

﴿وَإِن يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ * وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ﴾(٥)... وهي ترد على من يقول: إن «الذكر غير القرآن»، لأن «سمعوا الذكر» من «الذين كفروا» يقطع أنه يعني «القرآن»، وإلا أي شيء آخر كان رسول الله ﷺ يقرؤه عليهم ويسمعونه منه؟

جميع هذه الآيات تصفه بصفة «الذكر»، وهي من «التذكير» على كافة أشكاله، وإن كان «التوحيد» يبقى هو الهدف الأسمى الذي تتفرع منه سائر العقائد والمفاهيم.

وهذا يمكن أن نستدل عليه أيضًا من خلال آيات متعددة، منها قوله تعالى:

---

(١) يوسف: ١٠٤.
(٢) الحجر: ٩.
(٣) ص: ٨٧، التكوير: ٢٧.
(٤) الحجر: ٦.
(٥) القلم: ٥١-٥٢.

﴿إِنَّنِي أَنَا اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾[(١)].

ونحن نعلم أن «الصلاة» كلها ذكر الله تعالى، بل إن صلاتنا الإسلامية أحد أركانها السبعة هو «القراءة من القرآن».

٣- «الذكر» كجزء من القرآن

كما في حالة «الكتاب» فإن «الذكر» الذي يساوي «القرآن» حينًا يكون «جزءًا من القرآن» حينًا آخر:

﴿ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ﴾[(٢)]، فهو «ذو ذكر» في داخله.

ومن هذا ما هو من «القصص القرآني»، مثلًا:

﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَن ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا﴾[(٣)].

وهذا «الذكر» يأتي كآيات تنزل بعد الآيات، كل آية أو مجموعة آيات وظيفتها الذكر، فتكون آيات جديدة محدثة لهم: ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾[(٤)].

ولكن لو قال: «قرآن» بدلًا من «ذكر» لكان صحيحًا ولكن ليس دقيقًا، لأن القرآن ينطوي على جميع الآيات التي وظيفتها الذكر، في حين أن الذكر الذي ينزل بين الحين والآخر هو جزء.

---

(١) طه:١٤.

(٢) ص:١.

(٣) الكهف:٨٣.

(٤) الأنبياء:٢.

علمًا أنهم كانوا يستخدمونه فيقولون «قد أنزل عليه قرآن»، وهو غير دقيق دقة القرآن التامة.

٤-الاحتمالان ٢ و٣ معًا

أي «كصفة عامة للقرآن» و«كجزء من القرآن»؛ كما في بعض المفردات السابقة، فإنه يأتي أحيانًا ما يجعل الاحتمالين ممكنين:

﴿ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ﴾[١].

فهل إن «واو العطف» تجعل «الآيات» مختلفة عن «الذكر الحكيم» أو إن الأخير مجرد صفة لهذه الآيات؟

أو قوله تعالى ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ﴾[٢]، الذي يفرق بين «ذكر» و«قرآن مبين» بواو العطف، وهو يصف ما يوحى إليه لينفي عنه «صفة الشعر»، فهل المقصود أن «القرآن هو ذكر وكونه يُقرأ وكونه مبينًا»، أم المقصود هو «ذكر وقرآن مبين» في إشارة إلى بعض الآيات التي فيها «الذكر»؟

ولكن: هل إن هناك آية أو مجموعة آيات ليس فيها ذكر بشكل أو بآخر؟

---

(١) آل عمران:٥٨.
(٢) يس:٦٩.

وظيفة القالب القرآني

﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾[١].

هنا نستفيد منها:

١-يفرق بين «الذكر وهو هدف التنزيل» و «القرآن وهو قالب التنزيل».

٢-أن «القرآن» نزل بأسلوب يجعل «الذكر» ميسرًا؛ ولكن الانتباه إلى أن «ميسّر» لا تعني «يسير»، لأنه من الواضح تمامًا أن آيات القرآن تختلف اختلافًا شديدًا في مدى ظهور معانيها نتيجة اختلاف مواضيعها ومفرداتها وعلاقتها ببعضها. وهذا هو السبب الذي جعل «بيان الذكر» منوطًا برسول الله ﷺ كما في الآية التي ستأتي، وهذا مع أن العرب زمان التنزيل كانوا يتحدثون عربية فصحى سليمة تمامًا والقرآن نزل بمفردات يستخدمونها كل يوم لم يندثر منها ما اندثر عندنا اليوم ولم يتغير منها ما تغير عندنا اليوم؛ فما بالك بزماننا وما بعده؟

معان أخرى للذكر

بخصوص الأمة التي نزل عليها القرآن أولًا، نجد ذكرين آخرين، مع ثالث محتمل المعنى:

(١) القمر: ١٧.

الأول: ذكر النبي ﷺ - ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾[١].

فذكره ﷺ رفعه الله تعالى، وبأشكال متعددة، أولها في هذا الجم الغفير من آيات القرآن التي تذكره ﷺ في جوانبه المختلفة - البشرية والنبوية والرسولية، وعلاقته بالمرسل سبحانه والرسالة إلى الناس كافة؛ ومنها النداء باسمه الشريف بعد اسم المولى عز وجل في الأذان وفي تشهد الصلاة، بل في النطق بالشهادتين وهو عنوان هوية المسلم؛ وتفاصيل أخرى في هيمنة شريعته على ما سبقها، وفي أخذ العهد على الأنبياء والمرسلين عليهم السلام قبله في الإيمان به ونصرته، وغير ذلك مما يضيق على الحصر حقًا.

الثاني: ذكر الأمة التي نزل عليها القرآن - ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾[٢]، فكأنما يريد استثمار ما أنعم به عليهم من ذكرهم في الكتاب من أجل جذبهم إلى هذا الكتاب ومن ثم الدين عمومًا.

الثالث: جمع الاثنين معًا، ولكن على نحو إعلان الشأن بين الأمم - ﴿فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ * وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ﴾[٣]؛ فإنه «ذكر له ﷺ ولهم» أبد الدهور، ما ألمحت إلى شيء منه عند الكلام عن مفردة «الحكم» فيما سبق من وجود تميز للأمة العربية النازل كتاب الله

---

(١) الشرح: ٤.
(٢) الأنبياء: ١٠.
(٣) الزخرف: ٤٣-٤٤.

بلغتها وعليها أولًا لتحمله إلى الناس كافة. ولكن هذه النعمة تستتبع مسؤولية، لهذا ختم بقوله «وسوف تُسألون».

على أن من الروايات ما حصر «القوم» بـ«قريش»، وبعضها بـ«بني هاشم»، وهو ما يمكن قبوله بالتطبيق على آيات القرآن التي تشير إلى الجماعة المصطفاة من أهل هذا البيت عليهم السلام - وهو موضوع آخر.

إلا أن السيد الطباطبائي يرد هذا المعنى المشهور - معنى الشرف والذكر الخالد - ويذهب إلى أن «الذكر» هنا إنما هو نفسه «ذكر الله تعالى» (أي: «إن القرآن تتعاملون به بكافة الطرق على أنه تذكير لكم ومنكم لله تعالى»)، وبالتالي فإن النبي صلى الله عليه وآله وسلم وقومه هم أول المضطلعين بذكر الله تعالى وسيسألون عما فعلوه في خصوصه.

بيان الذكر

﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾[1].

وهي آية شديدة الأهمية، نستفيد منها:

أولًا: أن هدف «الإنزال إليه صلى الله عليه وآله وسلم» هو «للبيان للناس».

ثانيًا: أن هذا «الذكر» هو ما «نزل إلى الناس» من أجل أن «يتفكرون».

(١) النحل: ٤٤.

ثالثًا: هناك «إنزال إليه» و«تنزيل إليهم»، وبما أن الرأي المعقول يقول: إن مفردة «التنزيل» تأتي فيما هو مستمر و«الإنزال» فيما قد تم (إنزال التوراة والإنجيل مقابل تنزيل القرآن حيث كان أثناء زمان التنزيل)، فكأنه «أنزل إليه» مرة واحدة ثم «نزّل إليهم من خلاله نجومًا»، وهو ما ورد في الخبر تفسيرًا لقوله تعالى ﴿وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلًا﴾[1].

* علمًا أن هذا «البيان» «لتبين لهم» لم يكن تعليمه صلى الله عليه وآله وسلم إياه بطريقة واحدة، لأنه كان أحيانًا ينزل الوحي وبعد انقضائه يقوم بتلاوته عليهم مع البيان، بينما في أحيان أخرى يكون جبريل عليه السلام قد علمه بشكل عملي، وغيرها يكون قد أتى بوحي خارج القرآن من رؤيا وغيرها.

عند عدم وضوح الأمر من نسأل؟

سؤال مهم: عندما لا نعرف المقصود من القرآن، ماذا نفعل؟

أُمرنا بسؤال جماعة سماهم «أهل الذكر»: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾[2] وهو ما أمرنا به في آية أخرى قبل أن يبين وظيفة بيان الذكر التي لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم:

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ

(١) الإسراء: ١٠٦.
(٢) الأنبياء: ٧.

﴿إِن كُنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ* بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾[١].

وفي هذا أمور:

١- الرد على من يقول: إن آيات القرآن مبينات مفصلات لا تحتاج إلى سؤال أحد.

٢- أن هناك جماعة سموا «أهل الذكر» هم الذين يجب التوجه إليهم عند عدم المعرفة.

٣- استطرادًا، بما أنه لا يخلو أحد من الخلق ممن لم يسلحهم الله تعالى بعلم القرآن من التوقف في معاني بعض بل الكثير من الآيات الكريمة، فإن جميع الخلق يحتاجون إلى سؤال «أهل الذكر» ما يجعل هؤلاء «مرجعية ثابتة لا بد من التعرف عليها لأن الرجوع إليها لا بد منه».

فمن هم «أهل الذكر»؟

البعض يقول: هم اليهود في المدينة.

وهذا يعني أننا نسأل اليهود عن ديننا! وعلى الرغم من ضحالة هذا التفسير فلا يحتاج إلى جهد للرد، فقد وردت الروايات عن أئمتنا عليهم السلام برد ذلك.

(١) النحل: ٤٣-٤٤.

والبعض الآخر يقول: هم أهل اللسان العربي.

وهـذا يعنـي أن الآية موجهـة في خطابهـا إلى غير العـرب، الأمر الـذي لا دليل عليـه، بل يسـتحيل لأن الخطـاب موجه باللغـة العربية فهـو إلـى العـرب أولًا، وإذا كان غير العـرب يفهمونه عنـد قراءته فهم يعرفـون العربية وطالمـا يفهمونه فـلا يحتاجون إلى السـؤال.

فـإن قيـل: المقصـود مـن السـؤال هـو لمعرفـة المقصـود، قلنـا: نعـم، هـذا هـو الصحيـح، وعندهـا هـل إن كل مـن تكلـم العربيـة يعـرف المقصـود؟

قطعًا لا.

إذًا، المقصـود هـو سـؤال مـن يجمـع الأمريـن: معرفـة العربيـة وفهـم المقصـود مـن الآيـات.

وبمراجعـة آيتـي سـورة الطـلاق ﴿أَعَـدَّ اللـهُ لَهُـمْ عَذَابًـا شَـدِيدًا فَاتَّقُـوا اللـهَ يَـا أُوْلِـي الْأَلْبَـابِ الَّذِيـنَ آمَنُـوا قَـدْ أَنـزَلَ اللـهُ إِلَيْكُـمْ ذِكْـرًا * رَّسُـولًا يَتْلُـو عَلَيْكُـمْ آيَـاتِ اللـهِ مُبَيِّنَـاتٍ لِّيُخْـرِجَ الَّذِيـنَ آمَنُـوا وَعَمِلُـوا الصَّالِحَـاتِ مِـنَ الظُّلُمَـاتِ إِلَـى النُّـورِ وَمَـن يُؤْمِـن بِاللـهِ وَيَعْمَـلْ صَالِحًـا يُدْخِلْـهُ جَنَّـاتٍ تَجْـرِي مِـن تَحْتِهَـا الْأَنْهَـارُ خَالِدِيـنَ فِيهَـا أَبَـدًا قَـدْ أَحْسَـنَ اللـهُ لَـهُ رِزْقًـا﴾[١].

(١) الطلاق: ١٠-١١.

نستفيد ما يلي:

١- الرسول ﷺ والذكر، وفيه رأيان:

الأول: هو بدل عن الذكر وهو القرآن، أي التقدير «ذكرًا، والرسول المرسل بالذكر» لأن بين الاثنين ملابسة؛ وهو ممكن.

الثاني: الرسول هو جبريل عليه السلام؛ وهو مردود لأن الرسول في الآية ١١ موصوف بأنه «يتلو عليكم» فمتى تلا جبريل عليه السلام على الناس؟

طبعًا، لو لم تقل الآية ١١ «يتلو عليكم آيات الله» لكان ممكنًا القول: إن الرسول هو القرآن نفسه، ولكن مع وجود «تلاوة آيات القرآن» ذاته فإنه لا يصح.

أقول:

لماذا لا يوجد التفات إلى كلمة «أَنزَلَ»؟ لماذا لا نقول: إن «الرسول هو الذكر» لأن «القرآن-الذكر» قد «نزل على قلبه» فتلبس به حتى «صار ﷺ التطبيق التام للذكر»؛ عندها كأنه ﷺ تم إنزاله إلى الناس بعد اصطفائه على الخلق؟

راجعوا آية أخذ العهد من النبيين عليهم السلام التي ذكرناها آنفًا بالإيمان به ﷺ ونصرته ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُواْ أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُواْ

﴿وَأَنَا مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ﴾[(١)]، وهو تصديق الرواية عنه ﷺ أنه «أول الأنبياء ميثاقًا وآخرهم مبعثًا»؟

هذه الصفة الرسولية أنه «ذكر» تشابه صفته أنه «بينة»:

﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ. رَسُولٌ مِّنَ اللهِ يَتْلُو صُحُفًا مُّطَهَّرَةً﴾[(٢)].

٢- الالتزام بهذه الملازمة حسب ذلك الرأي، أو بالمكانة العظمى الخلقية لرسول الله ﷺ عند ربه حسب الاحتمال الذي أطرحه، ممن يتصفون بالصفتين: أهل العقول والذين آمنوا (المسلمون)، يمنحهم جائزة «إخراجهم من الظلمات إلى النور»، فهم آمنوا وعملوا الصالحات جزاؤهم جنات تجري...

٣- طالما يصف القرآن رسول الله ﷺ بصفة «الذكر»، فلا أحد يستطيع رد قولنا: إن صفة «أهل الذكر» هي «أهل الرسول»، وعليه فإن آية «فاسألوا أهل الذكر»، التي -كما قلنا- لا يمكن أن يصدق عليها تفسير سؤال أهل الكتاب ولا من يتكلمون اللغة العربية، تعني سؤال أهل بيت الرسول ﷺ. وحتى من يقول: إنها عامة فيمن يعلمون الذكر، فإن أئمة أهل البيت عليهم السلام هم أفضل مصداق لها.

---

(١) آل عمران: ٨١.
(٢) البينة: ١-٢.

استقراء مفردة «أهل» في القرآن

وجدت أن «أهل» مضافة إلى الله وكتاب منزل ومكان وشيء مادي وشيء معنوي وشخص عادي - وهذه كلها لا تصلح معنى لـ «سؤال أشخاص سماهم أهل الذكر».

ويبقى ما نجده من إضافتها إلى «الأنبياء» ﴿وكان يأمر أهله بالصلاة﴾[١]، أو إلى «بيوت الأنبياء» إبراهيم وموسى عليهما السلام ومحمد صلى الله عليه وآله وسلم.

١- مضافة إلى الله تعالى: أَهْلُ التَّقْوَى وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ.

٢- مضافة إلى كتاب منزل سابق: أَهْلِ الْكِتَابِ، أهل الإنجيل، أهل التوراة.

٣- مضافة إلى مكان: أَهْلَ الْقُرَى، أَهْلِ الْمَدِينَةِ،أَهْلَ قَرْيَةٍ، أَهْلِ مَدْيَنَ، هْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ، أَهْلَ يَثْرِب، بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ، أَهْلِ النَّارِ.

٤- مضافة إلى شيء مادي: تُؤدُّواْ الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا.

٥- مضاف إلى شيء معنوي: كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا.

٦- مضافة إلى الشخص: أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ، بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ، حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا، وَلَا إِلَى أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ.

---

(١) مريم:٥٥.

٧- الأنبياء عليهم السلام: فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ، يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ، إِذْ رَأَى نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا.

٨- مضافة إلى بيت نبي: أَهْلَ الْبَيْتِ (إبراهيم عليه السلام)، أَهْلِ بَيْتٍ (موسى عليه السلام)، أَهْلَ الْبَيْتِ (محمد صلى الله عليه وآله وسلم / التطهير).

أما (١) فواضح البطلان لأن الله هو الذي أنزل الذكر ويأمرنا بسؤال أهل الذكر.

وقد رددنا (٢) لأننا لا نسأل اليهود والنصارى عندما لا نعلم.

كما أن «الذكر» ليس مكانًا (٣) ولا شيئًا ماديًا (٤).

أما (٥) فهي تشمل كل من كان «تقيًّا» أو من «أهل كلمة التقوى»، وهو ليس بالضرورة ممن عندهم العلم الذي نطلب.

وأما (٦) فهو أيضًا شامل للناس فلا يصح.

فلا يبقى إلا (٧) و(٨) التي أضيفت إلى الأنبياء عليهم السلام أو بيت الأنبياء عليهم السلام، ومنهم بيت نبينا محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

الفَصْلُ الخَامِسُ

باب مفردات التنزيل

«خاتمة»

خاتمة

وفيها نقطتان:

الأولى: دور رسول الله ﷺ في الدين.

هذه المفردات: النور، الحكم، الحكمة، الذكر، كلها تحوي ليس آيات القرآن في نصها فقط، ولكن تحوي أيضًا «بيان الرسول ﷺ للآيات» و«التعليم الذي آتاه الله تعالى نبيه وصفيه ﷺ ليعلمه من يريد اتباعه حقًا».

الثانية: الخاصية الهائلة للقرآن في تفسير بعضه بعضًا/ «المثاني».

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ﴾[(١)].

البعض ذهب إلى أن «الواو» تفرق بين شيئين مختلفين: «السبع المثاني» و«القرآن»، ولذلك أسسوا عليها نظرية وجود كتابين إلخ. وهو وهم، لأن «واو العطف» لا تعني المغايرة بين المعطوف والمعطوف عليه دائمًا. وهذه الآية بالذات تستخدم «واو العطف» للإشارة إلى شدة أهمية الشيء الآخر.

---

(١) الحجر: ٨٧.

قال صاحب تفسير الميزان في تفسير الآية ما حصيلته:

- الآيـات السـبع المثانـي هـي سـورة الحمـد التـي جعلهـا اللـه قراءتها فرضًا علينا كل يوم عدة مرات، الأمر الذي لم يجعله لغيرها، وبالتالـي لهـا أهميـة مميـزة.

- لتوصيف القرآن بالعظمة.

والدليل عليه أن كلمة «مثاني» وردت في صفة آيات القرآن كله:

﴿اللهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللهِ ذَلِكَ هُدَى اللهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَن يُضْلِلْ اللهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾[(١)]، قال فيها صاحب تفسير الميزان:

«والظاهر أن المثاني «جمع مثنية» اسم مفعول من الثني بمعنى اللوي والعطف والإعادة قال تعالى: ﴿أَلا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُواْ مِنْهُ﴾[(٢)]، وسميت الآيات القرآنية مثاني لأن بعضها يوضح حال البعض ويلوي وينعطف عليه كما يشعر به قوله «كتابًا متشابهًا مثاني» حيث جمع بين كون الكتاب متشابهًا يشبه بعض آياته بعضًا وبين كون آياته مثاني وفي كلام النبي ﷺ في صفة القرآن «يصدق بعضه بعضًا»[(٣)] وعن علي عليه السلام فيه «ينطق بعضه ببعض ويشهد بعضه

---

(١) الزمر:٢٣.

(٢) هود:٥.

(٣) مسند أحمد رواية ٦٧٠٢، ومثله سنن ابن ماجة.

على بعض»[١]، أو هي جمع مثنى بمعنى التكرير والإعادة كناية عن بيان بعض الآيات ببعض».

وهكذا، فإن من صفات القرآن الفرقان والذكر والكتاب وغيرها مما ذكرنا، على اختلاف في سعة وضيق معانيها، فإذا ما أطلقنا كلمة «القرآن» فليس لأننا ننفي المكونات الأخرى، ولكن لأنها:

أولًا: الصفة الجامعة - أي أنه شيء يقرأ.

ثانيًا: لأن الله تعالى سماه كذلك.

---

(١) نهج البلاغة ج٢ الخطبة ١٣٣.

البَابُ الخامِسُ

تطبيقات في تفرّد التعبير القرآني

الفَصْلُ الأوَّلُ

دقة التعبير القرآني

دقة التعبير القرآني

في هـذا الفصـل أشير إلـى دقـة التعبيـر القرآني، تلـك الدقـة الفريدة، فـي مـوارد خمسـة متنوعـة، مـن أجـل أن نسـتمر ونتشـجع علـى تدبـر القـرآن الـذي مـا أن ينظـر فيـه القـارئ بشـيء مـن التدبـر إلا ويخـرج منـه بنتائـج.

١ـ مناسبة الخطاب التنبيهي لكل من الحالَين

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللهِ يَأْتِيكُم بِضِيَاء أَفَلَا تَسْمَعُونَ. قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾[(١)].

١- تبـدأ الآيتـان بكلمـة «قـل» لأنـه بدونهـا لربمـا سـيجيب المخاطبـون مـن المشـركين أن هـذه فرضيـة لا يسـتطيع النبـي ﷺ القيـام بهـا، فـي حيـن أن «قـل» تؤكـد أنـه بـلاغ عـن اللـه الـذي يسـتطيع قلـب هـذه السـنن الكونيـة.

(١) القصص: ٧١-٧٢.

بعدها نجد كلمة «أرأيتم» التي كانت من كلام العرب في حواراتها، فيقول الرجل لصاحبه: «أرأيت لو حصل كذا وكذا» أو «أرأيت كيف أن كذا».

٢- موضع الشاهد هو استخدام الخطاب التنبيهي المناسب للحالة الأولى «إبقاء الليل سرمديًا دون نهار»، وهو «أفلا تسمعون». ذلك أنه لو بقي الليل سرمديًا وحل الظلام فإن النظر في الأمر سيكون «عن طريق السمع» لأنه الحاسة التي تعمل في الحالتين.

بينما استخدم الخطاب التنبيهي المناسب للحالة الثانية «إبقاء النهار سرمديًا دون ليل»، وهو «أفلا تبصرون» لأن البصر يعمل أثناء النهار، بل يكون أقوى وأسرع في التنبيه من السمع، وربما كان التنبيه الوحيد.

٣- وينبغي أن نلتفت إلى استخدام «ضياء» في الأولى مقابل «ليل» في الثانية، لأن المطلوب من الأول هو «الضوء» الذي يستفاد منه في النهار (إضافة إلى الحرارة)، بينما المطلوب من الثاني «ليس الظلام» المفردة المقابلة لـ «الضوء» ولكن الـ «ليل»... وسببه هو النقطة التالية...

٤- «تسكنون فيه»، الجملة التي لم يأت ما يقابلها في الآية الأولى. فالآية الأولى تتحدث عن غياب «الضياء» المعتاد في النهار، حيث الحركة والعمل والإنتاج كما يمكن أن يكون فيه النوم والراحة والسكون - وهو حاصل للكثيرين الذين يحتاجون إلى الراحة في

القيلولة -؛ بينما الآية الثانية تتحدث عن «الليل» وهو وقت السكون والراحة والنوم للغالبية الساحقة من البشر، وهي راحة لا غنى عنها للجميع إذا أرادوا القيام بمقتضيات الحالة الأخرى - حالة النهار والضياء - من حركة وإنتاج وعمل، وإلا انهارت قواهم.

فائدة من الآيتين: ربط السنن الكونية بالخالق/ وهي مهمة قرآنية أولى لأن البشر نتيجة عدم إمكانية التعرف على الخالق ماديًّا في نفس الوقت الذي يعيشون هذه السنن الكونية بشكل مادي كل يوم ودون تخلف فإنهم يسقطون في الغفلة عن خالق هذه السنن الكونية، الذي بيده تبديلها، وبالتالي الغفلة عن نعمه المستمرة من خلال هذه السنن.

٢ـ القتل والرمي يوم بدر

﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَـكِنَّ اللّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَـكِنَّ اللّهَ رَمَى وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلاء حَسَنًا إِنَّ اللّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[١].

في هذه الآية نقطتان تسترعي الانتباه:

النقطة الأولى: مقارنة «لم تقتلوهم» بـ «ما رميت».

صحيح أن «لم تفعل» تشابه «ما فَعَلْتَ»، ولكن:

١- الثانية «أكثر تأكيدًا» من الأولى.

(١) الأنفال ١٧.

٢- «لم تفعل» يمكن أن تكون محصورة في زمن معين بينما «ما فعلت» مستمرة في النفي.

وعليه:

فإن «وما رميت» تؤكد «نفي الرمي» بشكل أشد من «نفي القتل» في «فلم تقتلوهم».

إذًا، المعنى واحد في نفي الفعل عن الفاعل، ولكن بدرجة مختلفة.

ولكن بما أن «القتل» جرى فعلًا من المسلمين، فإن «فلم تقتلوهم» مجازية في جزئها الفاعل من قبل المسلمين، بمواجهتم وجهودهم وسلاحهم وفعلهم الذي قتل المشركين، ولكنها «تذكر» بأمرين:

الأول: أن هذه الأمور المذكورة من جهد وعزيمة وصبر وسلاح إنما هي من الله تعالى أصلًا.

الثاني: أن هناك تدخلًا حقيقيًا لله تعالى «إضافة إلى» هذه، سواء من إلقاء الرعب أو إنزال الملائكة أو غير ذلك.

كذلك، «وما رميت» فإن «الرمي» جرى فعلًا من النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وأكثر الأقوال على أنه «رمي التراب» أو «التحصيب»، فإن هناك (الأول) أن قوته صلى الله عليه وآله وسلم وجهده من الله تعالى أصلًا (الثاني) أن الله يتدخل في التثبيت والعون.

النقطة الثانية: في كلمة «إذ» في قوله «وما رميت إذ رميت».

لم يقل «فلم تقتلوهم إذ قتلتموهم» ولكنه قال «وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى»، وهذه الزيادة «إذ رميت» تشير تأكيدًا على «حال الرمي» في «لحظات الرمي»، تؤكد على أن المقصود من «وما رميت... ولكن الله رمى» إنما هو تلك الحال في تلك اللحظات «إذ رميت» عندما أخذت من التراب ورميت به القوم فأصابهم بأجمعهم، في وجوههم وعيونهم، ما أثر على قدراتهم القتالية، وهذا يستحيل أن يحصل لأي إنسان أن يرمي بحفنة من تراب فتطير عشرات الأمتار طولًا وعشرات وربما مئات الأمتار عرضًا (لأنهم كانوا نحو ٩٥٠ موزعين على صفوف متعددة) ثم تصيب أهدافها بهذا الشكل المعجز؛ وعليه فإنه المولى عز وجل، القوي العزيز، الذي كان هو الرامي لتلك الرمية.

أي أن قوة ذراع النبي ﷺ، ودقة الرمية، كانت مضافة من الله تعالى. كما أن ما أعقبها من انتشار طويل عريض وإصابة لأهدافها إنما هو من عنده عز وجل.

لهذا كان التأكيد الدقيق بكلمة «إذ رميت».

* ولهذا التوكيد الدقيق أمثلة في القرآن مهمة جدًّا في التدبر كما في قوله في بيعة الشجرة ﴿لقد رضي الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة﴾[1]، فإن الرضوان منحصر في حالة بيعتهم

(١) الفتح: ١٨.

تحت الشجرة، وليس مستغرقًا للزمن كله فيما بعده كما يحاول قسر القرآن الكريم على ما يريده هو لا ما يريده الله تعالى.

فائدة من الآية: التذكير بالمحرك الأصيل في الكون والتدخل المعجز/ فالأول مشابه لما قلناه في مورد آيتي الليل والنهار، والثاني فيه بث الأمل في نفوس المؤمنين أنهم إذا اصطدموا بأمر أقوى من إمكانياتهم المادية فإنهم يجب أن لا يغفلوا أن معهم من يستطيع تغيير المعادلة في لحظة واحدة؛ وهذه الحالة تجدها كل يوم في الخطاب المقاوم المؤمن بالظهير الأعلى الله تعالى، مقابل الخطاب الخائر المنهزم ممن يشيعون الخوف من العدو حتى قبل انطلاق المعركة.

٣ـ إعطاء معلومة بطريقة غير مباشرة

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾(١).

لا ثمرة نستفيدها من معرفة اسم أبي إبراهيم عليه السلام، وبالتالي لا فرق في الفائدة لو جاءت الآية دون ذكر اسم «آزر»، فلماذا ورد؟

لم يأت الاسم في آية أخرى، حتى في الآيات التي تذكره في محاورة إبراهيم عليه السلام إياه ومحاولة الأخير هدايته ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ۞ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا ۞ يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا

---

(١) الأنعام: ٧٤.

لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا* يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا* يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا﴾[١]، وغيرها ولم يكن هناك نقص في القصة، فلماذا هنا؟

أجمع أئمة الهدى عليهم السلام على أن سلسلة آباء النبي صلى الله عليه وآله وسلم كلهم من المؤمنين حتى آدم عليه السلام. وقد رويت الروايات، ومنها في كتب أهل السنة قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «لم يزل ينقلني الله من أصلاب الطاهرين إلى أرحام المطهّرات، حتى أخرجني في عالمكم هذا، لم يدنّسني بدنس الجاهلية»[٢]...

وقد أورد بعض علماء أهل السنة القدماء ذلك كالرازي في تفسيره، وفيما بعد كالعلامة الآلوسي في تفسيره، ومن المعاصرين مثل الشيخ محمد متولي الشعراوي رحمه الله تعالى الذي وافق قول أهل البيت عليهم السلام في المسألة.

اسم والد إبراهيم عليه السلام في النصوص التاريخية والتوراتية كان «تارخ» وليس آزر. كما قيل أن «آزر» اسم صنم، أو أنه صفة، فكأن إبراهيم عليه السلام يقول له «آزر» أي «يا مخطئ»...

وقد سمى القرآن الكريم العمَّ أبًا ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَـٰهَكَ وَإِلَـٰهَ

(١) مريم: ٤١-٤٥.
(٢) تصحيح الاعتقادات للمفيد ص٧، ومجمع البيان للطبرسي ج٤ ص٧٨.

﴿آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾[(١)]، إسحق عليه السلام كان أبا يعقوب عليه السلام ولكن إسماعيل عليه السلام كان عمه.

وعليه، فإن النظر في ما قاله أئمة الهدى عليهم السلام في هذه اللقطة القرآنية الدقيقة أعطى لنا معلومة هي أن «آزر» لم يكن والد إبراهيم عليه السلام ولكن كان عمه الذي تربى في بيته وبالتالي فقد كان له الحق العظيم على إبراهيم عليه السلام أن يسعى كل السعي من أجل هدايته إلى الحق.

حتى الآيات الأخرى التي تربط الكلام بين إبراهيم عليه السلام وآزر فإنها لا تسمي الأخير «والدًا» بل «أبًا» ﴿قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا﴾[(٢)]، ثم ﴿وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾[(٣)].

ذكر الموعدة من إبراهيم عليه السلام لأن هناك نهيًا عن الاستغفار للمشركين ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُواْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُواْ أُوْلِي قُرْبَى مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾[(٤)]، فلا يمكن لإبراهيم عليه السلام أن يستغفر لآزر «الموصوف بأنه أب»...

في حين أننا نجده يستغفر «للوالد» في دعائه بعد بناء البيت

---

(١) البقرة: ١٣٣.
(٢) مريم: ٤٧.
(٣) التوبة: ١١٤.
(٤) التوبة: ١١٣.

العتيق ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاء. رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلاَةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاء. رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ﴾[(١)].

طبعًا، لو راجعتم بعض فتاوى لجان الفتوى في دول مهمة لوجدتموهم استفادوا العكس: قالوا عن الآية الكريمة «وهذا نص قطعي صريح لا يحتاج إلى اجتهاد» فتوى رقم ٦٦١٢ فتاوى اللجنة الدائمة، الرئاسة العامة للبحوث العلمية والإفتاء في السعودية؛ وما ذلك إلا لأن البون شاسع بين قراءة القرآن وتدبر القرآن.

فائدة من الآية: حسم نقطة خلاف عقائدية/ يعتقد أتباع أهل البيت عليهم السلام أن جميع الأنبياء والمرسلين عليهم السلام لم يكن في سلسلة آبائهم أحد من المشركين، وبالتأكيد نبينا محمد صلى الله عليه وآله وسلم، بينما لا يجد غيرهم من المسلمين ذلك. ولعل الباحث لن يغفل عن أن زيادة الاهتمام بهذه النقطة لأجل امتداد هذا الأمر في أئمة أهل البيت عليهم السلام حيث لا يقبل الشيعة أن يكونوا عليهم السلام قد ولدوا من مشركين حتى آدم عليه السلام فيقابلهم معارضة ذلك من المخالفين، وينتشر الأمر في أبي طالب عليه السلام لأنه هو الوالد لعلي عليه السلام والأئمة من ولده عليهم السلام، فيثبت الشيعة إيمانه (من مواقفه وشعره وموقف النبي صلى الله عليه وآله وسلم منه) ويثبت أهل السنة كفره.

---

(١) إبراهيم: ٣٩-٤١.

٤ـ التفريق عن طريق التوكيد

﴿يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾[(١)].

﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ * وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ * وَلَمَنِ انتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُوْلَئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ * إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُوْلَئِكَ لَهُم عَذَابٌ أَلِيمٌ * وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾[(٢)].

آية سورة لقمان تتحدث عن الصبر عند المصائب عمومًا «واصبر على ما أصابك»، بينما آيات سورة الشورى تتحدث عما يصيب الإنسان من ظلم أخيه الإنسان بالخصوص «أصابهم البغي... جزاء سيئة سيئة مثلها... انتصر بعد ظلمه... الذين يظلمون الناس ويبغون في الأرض بغير الحق...» - فأين الفارق؟ ولماذا؟

◆ الفارق:

في آخر آية سورة لقمان «واصبر على ما أصابك، إن ذلك من عزم الأمور».

آية ٤٣ من سورة الشورى «ولمن صبر وغفر إن ذلك لمن عزم

(١) لقمان: ١٧.
(٢) الشورى: ٣٩-٤٣.

الأمـور».

حـرف واحـد فقـط - حـرف الـلام المضـاف إلـى حـرف الجـر «مـن» فـي الثانيـة.

◆ **لماذا هذا الفارق؟:**

آيـة سـورة لقمـان تتحـدث عـن الصبـر عنـد المصائـب العامـة ممـا يصيـب الإنسـان: (١) مـن السـنن الشـاملة للبشـر وهـي مصيبـة المـرض ومصيبـة المـوت (٢) مـن الكـوارث الطبيعيـة التـي تنـزل بالكثيريـن كالفيضانـات والبراكيـن والـزلازل (٣) مـا يصيبـه كجـزء مـن الابتـلاء كالمـرض والمـوت والفقـر وخسـارة التجـارة وأمثالهـا ممـا لا دخـل لشـخص آخـر معيـن فيهـا فتبـدو أنهـا مـن الابتـلاء.

هـذه المصائـب تأتـي مـن خـارج دائـرة إمكانيـة الـرد بطلـب القصاص أو التعويـض أو حتـى الانتقـام بطريقـة أو بأخـرى. وعليـه، فـإن الإنسـان المصـاب ليـس فـي يـده حيلـة معهـا علـى أيـة حـال، وبالتالـي فـإن أمامـه أمريـن لا ثالـث لهمـا: الصبـر، أو الجـزع.

فـإذا جـزع فإنـه لا ينـال مـن جزعـه فائـدة، حتـى ورد فـي الروايـات أن المصيبـة أصابتـه ولكنـه بجزعـه خسـر أجـر الصبـر، بينمـا الصابـر أصابتـه نفـس المصيبـة ولكنـه بصبـره ربـح أجـر الصبـر.

وأمـا إذا صبـر، فهـو قـد أخـذ الأمـر بعزيمـة ومسـؤولية «مـن عـزم الأمـور».

أما آية سورة الشورى فإنها تتحدث عن الصبر على مصائب تسبب فيها ناس آخرون، وبالتالي فإن هناك ثلاث خيارات وليس اثنين: الصبر، الجزع، الرد على الإصابة.

فإذا رد على الإصابة فعليه بالرد المناسب فحسب ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾.

ولكن إذا اختار أن يغض الطرف فإنه يحصل على الأجر ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللهِ﴾.

أما إذا جزع، فقد أضاع الاثنين - لا هو رد فشفى صدره، ولا هو عفا وحصل على الأجر.

الفارق مع آية سورة لقمان أنه إذا «عفا وأصلح» فإنه هنا عفا في الوقت الذي كان يمكن له أن لا يعفو بل أن يرد ويطالب بالتعويض أو الانتقام، وربما عفا وظل يرى من ظلمه يمشي أمامه في الطرقات فيتذكر ظلامته، وهذا لا شك أشق على النفس من تحمل المصائب النازلة من السماء أو كوارث الأرض، لهذا فإن الصبر عليها أشد، فجاء توصيف عزيمة هذا الصابر مؤكدة بلام التوكيد فقال «لمن عزم الأمور».

فائدة من الآيات: تشجيع على التفضل والإحسان/ لأن الإسلام دين واقعي فإنه يعلم أن كثيرًا من الناس لا تستطيع تجاوز ظلامتها إلا بالعدل المعجل دنيويًّا، سواء بالقصاص أو التعويض أو كليهما، فهو يبقي الباب مفتوحًا لهذا؛ ولكن لأنه يريد إشاعة روح المحبة

من جانب ورفع الإنسان من ضيق المادة إلى سعة الروح فإنه يشجعه على التغاضي والعفو والصفح ولا يبخسه حقه من الثواب في الآخرة... هذه الآيات في هذا الاتجاه.

٥ـ النحل والعسل

﴿وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ. ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِن بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾(١).

الآية الأولى تخبرنا أن هذا الأمر الإلهي إلى النحل باتخاذ البيوت في الجبال والشجر والعرائش ثم الأكل من الثمرات حتى يخرج الشراب جاء بطريقة «الوحي». لم تقل الآية «قال ربك» مثلًا، لأنها لو قالت ذلك لكان مجازًا لأن الخطاب بين المولى عز وجل وخلقه ليس قولًا كما هو القول الذي نعرف. المهم هو أن هذا «الوحي» يعني أن الأمر الإلهي نزل بشكل سُنَنِي في هذا المخلوق - النحلة، فإنه لا يكون الوحي في كل مرة وكل موسم، ولكنه سنة أي جزء من خلقه، أو هو جزء من الأمر الإلهي النازل إلى الخلق في فيضه تعالى عليهم، فتقوم النحلة بعمل البيوت والطيران لامتصاص رحيق الأزهار وحتى خروج الشراب من بطونها.

---

(١) النحل: ٦٨-٦٩.

ولعل الوحي إلى «النحل» بالجمع إشارة إلى أن العمل الجماعي للنحل في بناء البيوت والعمل الدؤوب في جمع الطعام من الثمرات في بطونها.

كما أن التعبير بـ «اتخذي» بفعل الأمر بالمؤنث وليس بالجمع لأن عمل البيوت تقوم به إناث النحل، وجمع الرحيق كذلك. نعم، الملكة والذكر مسؤولان عن التكاثر، ولكن الآيتين تتحدثان عن الشراب الناتج من البطون من الرحيق وليس التكاثر.

ثم تشير الآية إلى تفاضل من «الجبال» فـ «الشجر» فـ «العرائش». ذلك أن «الجبال» أعلى من سطح معيشة الناس بتلوثها في التنفس والنار التي يوقدون والفضلات والجراثيم وغيرها، فالأزهار والنباتات المتوفرة فوقها عظيمة المحتوى عديمة التلوث وبالتالي فهي أفضل طعام للنحل في عملية صناعة العسل.

أيضًا، علو الجبال، ومكامنها الآمنة للنحل، يوفر بيئة آمنة مطمئنة لبيوت النحل، غير مهددة بالهجوم من الإنسان أو الكثير من الحيوانات.

ثم «الشجر»، وهو يوفر ارتفاعًا جيدًا، وإن لم يكن كارتفاع الجبال؛ كما يوفر مكامن جيدة فيها من التغطية بورق الأشجار وأغصانها ما يحمي بيوت النحل من المهاجمين. ولكنها طبعًا أقرب إلى الحيوانات على الأرض وأقرب إلى الإنسان ومعيشته التي تنتج أنواع الملوثات، فتكون ذات نوعية أقل من الجبال.

أخيرًا «العرائش التي يصنعها الناس» «مما يعرشون»، فإنها تحت يد الإنسان وضمن معيشته وتحت رحمة يده والحيوانات المختلفة، فهي ذات نوعية أقل من الشجر.

جمال التعبير منه «مما يعرشون» بدلًا من «العرائش» إذا ما استمر السرد مشابها لـ «الجبال... الشجر»، لأن هذه «العرائش» من صنع الإنسان، فتمتزج صفة دنوها من مصادر الخطر والتلوث مع صفة كونها ليست من صنع الله تعالى المباشر، لتأتي ثالثة بعد الجبال والشجر...

وهذا بدوره يلفتنا إلى حتمية أن يكون «ناتج البيوت» - ذلك الـ «شراب مختلف ألوانه» - مختلفًا في النوعية، أفضلها ما نتج عن بيوت الجبال، ثم ما نتج عن بيوت الشجر، ثم آخرها ما نتج عن عرائش الناس. لهذا نجد أن عسل الجبال أغلى بكثير جدًّا من العسل العادي، بعد أن أكدت التحليلات - ولا شك أنها تؤكد - هذا التفاضل في السرد القرآني.

الآية الثانية تقول أن الوحي هو لتناول الطعام من «كل الثمرات» وبالتالي المجال مفتوح أمام النحل أولًا، ولأن الطعام من ثمرات مختلفة فإن الناتج سيكون «مختلف ألوانه» ثانيًا.

أما القول «فاسلكي سبل ربك ذللًا» ففيه إلفات إلى العجائب من حياة هذا المخلوق المنتج. تطير النحلات العاملات كما تشاء لا يصدها شيء. بعض العاملات مهمتها استكشافية، تطير وتحدد

مواقع الأزهار والثمرات ثم تعود لتخبر النحلات الجامعات، فتطير هذه إلى تلك الأماكن بدقة عجيبة لتأكل من تلك الثمرات. الخلايا محروسة بدقة، وبيت النحل كله محروس بدقة وشراسة (المتحدث له تجربة قاسية في الصغر!) كل هذا تذليل من الخالق العظيم.

ويستمر التعبير الدقيق بكلمة «يَخرُجُ» وليس «يُخرِج»، لأنه لو قال الثاني فكأن العملية تحتاج إلى تدخل خارج الآلية الموجودة في سنن النحل، ولكن «يخرُج» تعني خروجه دون تدخل.

من أين يخرج؟ ليس من الجلد أو الأجنحة أو مكان مخصص له، ولكن «من بطونها»، فتصوروا من البطون نتيجة عملية «هضم» يخرج شراب فيه شفاء بدلًا من أن يخرج ناتج هضم فيه سموم. عملية هضم لا يمكن إلا أن تكون من خالق مدبر بديع، سبحانه وتعالى.

أما كونه «شراب مختلف ألوانه» فهذا معروف بالمشاهدة للجميع .

ثم تستمر الدقة في قوله تعالى «فيه شفاء»، فلم يقل «فيه الشفاء» أو «هو الشفاء»، لأنه لو قال ذلك لظننا أن في العسل شفاءً من كل داء – الأمر الذي حصل فعلًا للكثير من الناس، حيث نجد الكثيرين يتحدثون عن العسل وكأنه دواء كل شيء. كلا، الآية واضحة أن العسل «فيه شفاء»، فهو قطعًا فيه شفاء ولكن ليس الشفاء من كل شيء.

وتختم الآية بأن هذا الخلق وهذا العمل وهذا الناتج هو «آية»

ولكن لمن؟ «لقوم يتفكرون»، أي يعملون الفكر في هذا كله عسى أن يزيلوا حجب البعد عن المصدر الحقيقي الوحيد للوجود، الله تعالى.

فائدة من الآيتين: فائدة علمية ينبغي الاستفادة منها في عكس النظر في مادة العلوم البحتة في القرآن/ حيث النزوع هو دائمًا إلى الانتظار حتى يأتي علماء الحضارة القائدة اليوم باكتشاف نجد فيه توافقًا ما مع القرآن فنسرع إلى حمل الآية أو الآيات لنقول «انظروا، القرآن، قال: هذا»، وهذه الطريقة فيها مجازفة كبيرة لأن العلوم التطبيقية أو البحتة ليست قاطعة في الكثير منها فالقطع بالقول بالتوافق مع آية ربما يضعف الإيمان عندما تنهار النظرية العلمية أو الاكتشاف؛ كما أن هذا يعني أننا لا نستلهم من كتاب الله ما ينفعنا في دنيانا وذلك من خلال استنطاق آياته المتعلقة بالطبيعة ثم نذهب بها إلى علماء الطبيعة لينظروا فيها ويحللوا عسى أن يتوصلوا إلى نتائج فيها فوائد للبشر عسى أن يبدأ المسلمون بإشاعة الفائدة العلمية كما فعلوا قديمًا بدلًا من أن يكونوا مستهلكين مقلدين وحسب.

الفَصْلُ الثَّانِي

الحجة القرآنية

«المختصر المفيد الحاسم»

الحجة القرآنية ـ المختصر المفيد الحاسم

في هذا الفصل نتدبر بعض الآيات المباركة التي تمتد إلى عدد من المواضيع ولكن يجمعها هدف هذا الفصل: إقامة الحجة على المخاطبين في كل آية بشكل مختصر حاسم.

١ـ القرآن المنزل من عند الله

﴿أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ * فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِن كَانُوا صَادِقِينَ﴾[١].

تعرضنا إلى حجة القرآن بخصوص القرآن نفسه، وهاتان الآيتان من ذلك القسم.

هنا نجد الحجة الحاسمة في اختصار رائع:

إنكم تقولون: إنه ﷺ إنما يدعي نزوله عليه وهو من إنشائه، وبما أنه بشر مثلكم، ومن قومكم، ومن بيئتكم، ويتكلم لغتكم، فما عليكم سوى أن تأتوا بحديث مثل ما يزعم أنه نزل عليه لتثبتوا زعمكم واتهامكم إياه بالادعاء الباطل.

---

(١) الطور:٣٣-٣٤.

وبما أن هذا لم يحصل منهم، علمنا أن الحجة أقيمت عليهم وبان بطلانها.

ولكن ربما يأتي شخص بعدهم، وحتى اليوم، ويقول: إنهم فشلوا لأنهم هم لم يتمكنوا من الإتيان بحديث مثله، ولكني أستطيع ذلك، أو أعرف شخصًا يستطيع ذلك...

عندها نقول له: أهلًا وسهلًا «فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين»!

ولا تقولوا: لا يوجد مثل هؤلاء، فإذا كان طالبًا في الدراسة الثانوية معنا، قال: هذا لمعلم درس الدين، فإنه مؤكد أن غيره ممن يظن بنفسه الكثير ربما يقول هذا...

على أية حال، الحجة باقية، بيدنا - نحن الذين نؤمن بهذا الكتاب المعجز - فليتفضل من يريد معارضته.

***

٢ـ الخلق والخالق ـ الحجة على الملحدين

﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ * أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَل لَّا يُوقِنُونَ﴾[١].

هاتان الآيتان بعد تلك الآيتين من سورة الطور تخص السؤال

(١) الطور:٣٥-٣٦.

الأول الأساس في الفلسفة: الخلق، ومن خلقه؟

كتب أحد الإخوة المشتركين في مجموعة حوارية ما يلي تعقيبًا على إيرادي هذه الآية المباركة، نأخذ منها موضع الشاهد (جعلت لها ترقيمًا بالحروف لتسهيل متابعة الجواب):

«(أ) لا لم يخلقوا من غير شيء؛ خلقوا من عناصر الأرض بسلسلة طويلة عريضة من عمليات النشوء والارتقاء.

(ب) والاعتقاد بأن الإنسان خلق مرة واحدة بشكله الحالي لا تدعمه العلوم الحديثة.

(ت) والجواب عند البعض بأن الله خلق كل شيء هو هروب مؤقت من سؤال عويص حيث سيتبادر السؤال: ومن خلق الخالق؟ إلى ما لا نهاية وبهذا نعود إلى المربع الأول.

(ث) وإذا قبلنا أن الله خلق نفسه بنفسه ولا نعلم نحن البشر كيف فما هو الفرق عن القول بأن الكون خلق نفسه بنفسه ولحد الآن لا نعلم كيف؟»

(ج) ثم يعقب على قولي: «فنسأله: هل يتصور هو، أو أي أحد عاقل، أنه يمكن أن يكون قد خرج بفرقعة بُم بُم؟»

قال: «ببساطة شديدة.... نعم. ولكن هذا تبسيط شديد لعلوم فيزياء الكون الحديثة...» انتهى.

أجبته كالآتي:

(أ) لو أن القرآن قصد من «أم خلقوا من غير شيء» أنها العناصر التي خلقوا منها فأي حجة في هذا على الناس؟! كل إنسان، حتى عرب الجاهلية الذين نزل عليهم القرآن، يعلمون أنهم من عناصر مختلفة وأن أمهاتهم حملت بهم ثم كبروا ثم خرجوا ثم كبروا في مسلسل يعيشونه دائمًا. قطعًا لا، القصد هو «هل إنهم خلقوا دون مسبب» وهذا معنى «من غير شيء» أي من غير آلية لذلك، وهو واضح.

(ب) أما النشوء والارتقاء، نظرية دارون.

فأولًا: لا تزال تسمى «نظرية» لأن العلماء يعلمون أنها لم ترق إلى مستوى «قانون» بسبب وجود الخلل في مفاصل عدة منها.

ثانيًا: هناك شك علمي كبير في المدة الزمنية للحياة على الأرض والمدة الزمنية لكوكب الأرض، وهذه المدة المتطاولة التي يصر عليها أنصار نظرية دارون ليس حبًّا فيها ولكن لأنهم يحتاجون إليها من أجل جعل قبول التطور الهائل من خلية واحدة في البحر في مكان ما من العالم إلى هذه الكائنات شديدة التعقيد أمرًا ممكنًا وإلا لانهارت نظريتهم.

ثالثًا: إشكال مهم جدًّا: طالما أن القضية هي تطور وارتقاء مستمر، لماذا يا ترى لا نجد أنواعًا كثيرة جدًّا مما هي تقع بين الأصناف المعروفة المحددة من اللبائن والطيور والزواحف والبرمائيات

والأسماك؟ ينبغي أن يكون هناك إنسان مثل الطائر وثعبان مثل القرد وسمكة مثل الدجاجة، يتشابهون في أشياء ويختلفون في أشياء أخرى.

رابعًا: اليوم لم يعد هناك من يؤمن فقط بالسلالة الواحدة، بل إن نظرية «تعدد السلالات» هي الأقوى وبالتالي فإن إنسان نياندرتال مثلًا ليس بالضرورة من أجدادنا، وبالتالي القرود وغيرها.

(ت) الله خالق كل شيء ليس هروبًا من سؤال «من خلق الله؟»، بل الجواب على هذا! السؤال «من خلق الله؟» فيه نقطتان:

الأولى: خطأ في أصل السؤال، لأنه -كما أشار الأخ المحاور- سيعيدنا إلى الدور وهو باطل فلسفيًّا؛ كما أننا نفصل بين المخلوق الذي شاء الله أن يخلقه وبين الخالق الذي لم يزل موجودًا فلم تمر لحظة دون أن يكون موجودًا، وبالتالي ينتفي سؤال «من خلقه».

الثانية: ازدواجية في المعايير، فبينما تنفي وجود الله -كما أفهم من الكلام- وهو الموجود الأزلي فإنك تقبل بالمادة الأزلية؛ فكيف يمكنك القبول بموجود أزلي أعجم لا عقل ولا إرادة له بينما لا تقبل بموجود عالم قادر مريد؟

فإن قلت: إنك لا تؤمن بالمادة الأزلية عندها أسألك: فكيف وجدت هذه المادة؟

فإن قلت: إنها جاءت على طريقة «بُم بُم» عندها أسألك: وماذا

قبل هذا؟ وكيف حصل «بُم بُم»؟ وأين كان الكون؟ وأسئلة عن أصل الوجود لا يمكن الجواب عليها دون القول بالخالق المنفصل عن خلقه العليم المقتدر.

الثالثة: من هذا يتضح خطأ قولك «الله خلق نفسه بنفسه» لأنه لم يزل موجودًا فلم يخلق نفسه بنفسه.

الرابعة: وجدتك أهملت الشطر الثاني من الآية «أم هم الخالقون» مع أنه يمثل الحد الثاني من الحجة على منكري الخالق، لأنه يقول لهم: لندع كيف خلقتم «أم خلقوا من غير شيء»، هل إنتم خلقتم أنفسكم؟ ومؤكد فإنه لا جواب على هذا.

الحجة الحاسمة:

وهكذا نجد الآية المباركة تقدم الاحتمالين العقليين الباقيين بعيدًا عن الخالق المنفصل المريد:

الاحتمال الأول: جاء الخلق (١) دون سبب و(٢) دون مادة و(٣) دون آلية، أي واحد أو أكثر من هذه الثلاثة/ وهذا مستحيل عقلًا لأننا عقلًا نوقن أنه ما من شيء إلا وله سبب، أيضًا ما من شيء مادي إلا وله مادة أصل، كذلك ما من شيء إلا وهناك آلية جاءت به إلى الوجود.

الاحتمال الثاني: الخلق خلق نفسه/ وهذا مستحيل عقلًا لأنه قبل أن يخلق كان معدومًا، وعليه فلا يمكن أن تكون للمعدوم القدرة

والآليـة والعلـم علـى فعـل شـيء، ومنـه خلـق نفسـه.

بانهيار هذين الاحتمالين، لا يبقى سوى:

الخالق المنفصل عن الخلق، والعالم، والقدير، والمريد -

فهـو موجـود منفصـل عـن الخلـق قبـل الخلـق، والعالـم بمـادة وآليـة الخلـق، والقديـر علـى تفعيـل الآليـة للخلـق، والمريد/ يريـد أن يخلـق الخلـق.

سبحانه وتعالى.

***

٣ـ عيسى عليه السلام ـ الحجة على المسيحيين

الحجة الأولى:

﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِندَ اللهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثِمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾[١].

أولًا: «مثـل... كمثـل» ولـم يقـل «إن عيسـى كآدم»، والمثـل، أي المماثلـة، وهـي متعـددة، هنـا:

(١) «خلقه» كما خلقه.

(٢) «من تراب» في الحالتين.

(١) آل عمران:٥٩.

(٣) «كن فيكون» بالنفخة في الحالتين.

(٤) وجدوا أن ذكر كل منهما عليهما السلام ٢٥ في القرآن!

ثانيًا: حرف العطف «ثُمَّ» يفيد التراخي أو الحصول بعد زمن ما، وهذا جميل في استيعاب الخلق من خلال أدوار الحمل في بطن أمه مريم عليها السلام التي تستغرق تسعة أشهر كغيره من البشر.

ثالثًا: نقطة «ثم قال له كن فيكون» ربما أشكل البعض عليها استخدام المضارع «يكون» وليس الماضي «كان» على اعتبار أن الأمر قد حصل قبل نزول القرآن بقرون. ولكن النكتة في:

(١) أن المتكلم هو الله تعالى الذي يتساوى عنده الزمن الماضي والمضارع.

(٢) أنه يريد تثبيت العقيدة في أن أمره تعالى لا يتخلف بحيث عندما يقول لشيء «كُن» فإنه «يكون»، وهو ما تجعله الآية ﴿إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون﴾[١] عامًّا في جميع أمره تعالى.

الحجة الثانية:

بعد آيات تصف بالكفر من يعتقد بألوهية المسيح عليه السلام، ومن يعتقد أنه ثالث الأقانيم الثلاثة، تأتي الحجة القرآنية التي تلفت إلى طبيعة المسيح عليه السلام:

---

(١) يس: ٨٢.

﴿مَّا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ انظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الآيَاتِ ثُمَّ انظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾[1].

يقول لهم:

إن مجرد كونه عليه السلام كان «يأكل الطعام» دليل قاطع على بشريته، وإلا هل هناك من يعتقد - وهم من ضمنهم - أن الإله يأكل الطعام؟

ولكن ربما يأتي من يقول: وما يدريك أن المسيح عليه السلام كان يأكل الطعام؟

أو: من قال: إن النصوص المقدسة عند المسيحيين تثبت تناوله عليه السلام للطعام؟

الجواب يسير:

ينص الكتاب المقدس على أن المسيح عليه السلام تناول الطعام والشراب في «العشاء الأخير» مع الحواريين، وفي هذا الكفاية.

والعجيب أن الكتاب المقدس كما يذكر المسيح عليه السلام بصفة «ابن الإنسان»، مع ذلك تختلط القضية ما بين «إله» أو «ابن الإله».

***

(١) المائدة: ٧٥.

٤ـ محمد ﷺ ـ الحجة على المسلمين

﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللهُ الشَّاكِرِينَ﴾[١].

(أ) يذكره ﷺ باسمه الشريف «محمد»، ليؤكد حقيقة كونه رجلًا من البشر منهم، وبالتالي فإنه لم يقل أحد أن الموت لن يتطرق إليه.

(ب) ثم يقول أنه «رسول»، الفارق بينكم وبينه ﷺ، ولكن حتى هذا فإنه ليس جديدًا لأنه قد سبقه ﷺ رسل عليهم السلام، وهؤلاء عليهم السلام ماتوا أو قتلوا وفي الحالتين ما كان مقبولًا أن تنقلب أقوامهم بعد موتهم أو قتلهم عليهم السلام، وأنتم كذلك.

هذا بعد إشاعة «القتل» في أحد، فلماذا تضم الآية إليها «الموت»؟ لأنها تحذرهم من الانقلاب بعد موته ﷺ.

(ت) ما معنى «الانقلاب على الأعقاب»؟ لماذا ليس الانقلاب على «الدين» مثلًا؟

كأنه يريد القول: إنكم أدرتم ظهوركم للموضوع بأسره، وهرولتم بعيدًا عنه ﷺ وعن الرسالة كلها، وعن العلاقة بالله تعالى التي هي الهدف من الرسالة... وهذا يقويه ما بعده...

---

(١) آل عمران: ١٤٤.

(ث) وهي النقطة المهمة «فلن يضر الله شيئًا»، التي تلفت نظرهم إلى الحقيقة وهي أن الارتباط هو بالله تعالى وليس بالرسول ﷺ الذي هو مبلغ عن الله، وبالتالي فإن من «ينقلب» أو يفعل أي شيء مخالف إنما هو موجه نحو الله تعالى والذي هو لن يضره شيئًا كونه مستحيلًا؛ ولعل الاستطراد هو أن كل مخالفة للحق لا بد أن تأتي بنتيجة سلبية، وبما أن الطرف الآخر من العلاقة - الله تعالى - لا يمكن أن تصيبه النتيجة السلبية هذه، فإنها تصيب «تضر» الطرف الآخر وهو الإنسان المنقلب.

(ج) «سيجزي الله الشاكرين»/ فيها:

أولًا: الوعد من «الله» وليس «الرب»، لأن:

(١) فعل العبد المطيع «الشاكرين» ثبات على العهد مع الله تعالى بغض النظر عن نعم الربوبية.

(٢) ربما لأن الثبات على العهد هنا - موت النبي ﷺ أو قتله - يتم في حال صعبة لا ترتبط بالنعم عادة، فيكون الجزاء من الله أليق بالحال...

ثانيًا: «الشاكرين» عجيبة، فهو لم يقل «الثابتين» أو «الحافظين للعهد» أو «المؤمنين حقًّا» أو غيرها مما هو يصف حالهم، ففيه إلفات مهم جدًّا إلى أن المؤمن إذا كان «شاكرًا حقًّا لنعم الله تعالى» فإن ذلك سيظهر من موقفه، فكيف إذا كانت النعمة هي «نعمة الإيمان بالرسالة الخاتمة»، عندها يكون «الثبات/ عدم

الانقلاب» هو المصداق الأعظم لـ «شكر هذه النعمة». لأن «الشكر» (كما سأبينه في فصل قادم بعنوان «نعمتا الذكر والشكر») درجات عديدة.

(ح) أخيرًا، نلاحظ أن الآية نزلت بعد أُحُد والإشاعة أثناءها أن النبي ﷺ قُتِل وما اتفقت عليه الروايات كلها من هزيمة معظم المسلمين بحيث لم يبق غير علي عليه السلام وأبي دُجانة الأنصاري (رض) اللذين كان كل منهما يقاتل «من وجه» كما عبر الرواة؛ كما ذكروا أم عمارة نسيبة بنت كعب الأنصارية وكيف أنها قاتلت مع زوجها وولدها عمارة وأخيه حتى انطلقت دعوة النبي ﷺ لهم بالجنة، بينما الآية لا تقتصر على القتل بل تمتد إلى «الموت» الذي هو ليس إشاعة ولكنها كائن حتمًا في مستقبل الأيام ﴿إنك ميتٌ وإنهم ميتون﴾[1]، فما السبب؟

أجد أن المسألة تتعلق بقضيتين:

الأولى: ذكرناها، وهي أن النقطة الهامة هي العلاقة بالله تعالى وليس بالرسول ﷺ، فحتى لو مات الرسول ﷺ فإنهم يجب أن يثبتوا على الدين، الأمر الذي قاله أنس بن النضر (رض) لبعض المنهزمين الجالسين - قال لهم «فماذا تصنعون بالحياة بعده؟ قوموا فموتوا على ما مات عليه رسول الله»، وقال أنصاري آخر «إن كان رسول الله قد قتل فقد بلّغ، قوموا فموتوا على ما مات

(١) الزمر: ٣٠.

عليه» ولعل آخر قال لهم «قوموا فدافعوا عن دينكم».

الثانية: هي التحذير قبل موت النبي ﷺ من هذه الحالة أن تحصل عند موته ﷺ، فإن حصلت من أحد فإنه «لن يضر الله شيئًا»، أما الثابتون على العهد «وسيجزي الله الشاكرين».

البَابُ السَّادِسُ

تطبيقات في الأمة المسلمة

«من دعاء إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام إلى يوم الغدير»

تقديم

هـذا البـاب يتضمـن فصليـن اثنيـن، يمثـلان - حسـب النـص القرآنـي - الحديـن التاريخيين للصفـوة المختـارة لقيـادة النـاس وفـق الكتـاب العزيـز.

فأولهمـا - الفصـل ٢٢ - يتنـاول النـص المتعلـق باختيـار هـذه الصفـوة قبـل آلاف السـنين مـن إخراجهـا للنـاس مـع إنـزال القـرآن العظيـم، أي بدعـاء إبراهيـم وإسـماعيل عليهما السلام وهمـا يرفعـان القواعـد مـن البيـت الحـرام... هـذا، بغـض النظـر عـن أن الاختيـار الأصلـي كان قبـل الخلـق، لأن القـرآن يخبرنـا أن الإشـهاد عليـه تعالـى تـم فـي عالـم الـذر قبـل الخلـق تمامًـا، كذلـك أخـذ الميثـاق مـن الأنبيـاء عليهم السلام جميعًـا علـى نبوتهـم كمـا علـى نبـوة خاتمهـم محمـد صلى الله عليه وآله وسلم قـد أخـذت قبـل البعثـات كلهـا... المهـم هنـا هـو فـي تشـخيص هـؤلاء الصفـوة، فـي النـص القرآنـي، بدعـاء النبييـن الكريميـن عليهما السلام وهمـا يعيـدان بنـاء البيـت الحـرام.

وأمـا الثانـي - الفصـل ٢٣ - فيتنـاول الحـد الأخيـر مـن الأمـر الإلهـي للنـاس بإمامـة تلـك الصفـوة بعـد الوفـاة الوشـيكة للنبـي الخاتـم صلى الله عليه وآله وسلم، وهـو الإعـلان العـام فـي غديـر خُـم بعـد حجـة الـوداع

في أواخر السنة العاشرة للهجرة (والذي تم تدبر آياته في فصل سابق).

فهذان الحدان يلخصان الأمر الإلهي من خلال أنبيائه: إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام والخاتم محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

الفَصْلُ الأَوَّلُ

الأمة المسلمة في دعاء إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام

الأمة المسلمة في دعاء إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام

هـذا الفصـل يعـرض واحـدة مـن دقائـق آيـات الكتـاب العزيـز، ودقائقـه مبثوثـة فيـه كلـه، مـن أجـل أن تتـم الحجـة علـى النـاس عبـر القـرون: منـذ زمـان النـزول حتـى يـوم الديـن.

هنـا أعـرض آيـات «ويعلمهم/ ويعلمكـم الكتـاب والحكمـة» وعددهـا أربـع آيـات وردت فـي سـور مباركـة متعـددة (وهـي منطلـق بحـوث الأمـة المسـلمة مـن ذريـة إبراهيـم وإسـماعيل عليهما السلام الـواردة فـي دعائهمـا عليهما السلام عندمـا كانـا يبنيـان البيـت الحـرام، والتـي طبعـت فـي كتـاب بـذات الاسـم).

***

دعـاء إبراهيـم وإسـماعيل عليهما السلام هـو مجموعـة آيـات فيهـا هـذه الآيـة المباركـة نقرأهـا ثـم نقـرأ ثـلاث آيـات مشـابهة لهـا، مشـابهة جدًّا، ولكنهـا غيـر متطابقـة.

﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ* رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ*

﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾[١].

يجمع هذه الآيات الثلاث جامع، ولكن تختلف عن هذه الآية أعلاه:

ففي دعاء إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام أعلاه في سورة البقرة:١٢٩:
﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾.

هناك ثلاث آيات أخريات مشابهة –

في سورة البقرة:١٥١: ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾؛

وفي سورة آل عمران:١٦٤: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾؛

تشبهها أيضًا في سورة الجمعة:٢: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾.

هذه الآيات المباركات الأربع، آية دعاء إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام ثم الثلاث آيات.

---

(١) البقرة:١٢٧-١٢٩.

لتوضيح الدقة القرآنية هنا ما يتعلق بموضوع الأمة المسلمة سأفصّل كل آية إلى أقسامها الثلاثة ثم أضع هذه الأقسام الثلاثة مع بعض لكي يتبين الفرق.

فالآية ١٢٩ من سورة البقرة التي فيها دعاء إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام: ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾.

ثم الآية ١٥١ من سورة البقرة: ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾.

وآية آل عمران ١٦٤: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾.

ثم تأتي أخيرًا الآية ٢ من سورة الجمعة: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾.

***

كي يتوضح الفرق بين كل قسم من هذه الأقسام الثلاثة في كل من الآيات سنضعها مع بعض:

فالقسم الأول في أربع آيات.

﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولا مِنْهُمْ﴾ مقابل --

﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولا مِنكُمْ﴾.

و ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولا مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾.

و ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولا مِنْهُمْ﴾.

الفارق بين آية دعاء إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام والآيات الباقية أن دعاء إبراهيم وإسماعيل موجه مخصص في الأمة المسلمة من ذرية إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام أما هذه الثلاث فواحدة منها ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولا مِنكُمْ﴾ يتكلم مع الأمة الإسلامية كلها، مع كل المسلمين.

وآية آل عمران ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولا مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ إذًا تتحدث هنا مع المؤمنين من المسلمين (لأننا نعلم أن المسلمين فيهم المؤمنون وفيهم المنافقون والذين في قلوبهم مرض والذين في قلوبهم زيغ، كما نعلم أنه ﴿لا تقولوا آمنا بل قولوا أسلمنا ولما يدخل الإيمان في قلوبكم﴾[1]) إذًا هنا الآية من آل عمران ١٦٤ تتحدث مع المؤمنين في المسلمين.

وأخيرًا آية الجمعة ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولا مِنْهُمْ﴾ تتحدث مع الأميين، والأميون هنا هم أهل مكة أو أهل مكة والمدينة أهل الحجاز عمومًا أو الجزيرة العربية، وهذا الرأي موجود ليس

---

(١) الحجرات: ١٤.

جديدًا من المفسرين (ولكن البعض يذهب إلى الرأي الآخر بأن الأميين هم الذين لا يعرفون القراءة والكتابة وهو رأي باطل بدليل أنه الرسول النبي الأمي، أي نحن لا نعتقد أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كان لا يقرأ ولا يكتب ولكن لم يكن يمارس ذلك من أجل إحاطته من الله تعالى بجميع ما يرد الافتراءات والشبهات عليه ﴿وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ﴾[1] حتى لا يقولوا: إنك أنت كنت تكتب)، ولكن أمّي من الأمّيّين، أي هم أهل الحجاز، ومنهم أهل مكة، أو الحجاز عمومًا، أو الجزيرة، أي العربية العرب عمومًا، عندما نزل الكتاب المبين...

فإذًا الآيات الثلاث تستوعب الأمة الإسلامية كما تستوعب المؤمنين فيها المسلمين الذين نزل فيهم عندما نزل الكتاب وهم الأميّون. بينما الآية الأولى في دعاء إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام هي قطعًا الذرية المسلمة التي ستكون على المستوى الأعلى من الإسلام حسب دعاء إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام.

القسم الثاني من كل من هذه الآيات هو الشاهد موضع الدقة في التعبير القرآني في هذا القسم.

فنجد أن الآيات الثلاث (ليست آيات دعاء إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام).

فيبدأ بـ"يتلو عليهم الآيات"، ثم "يزكيهم"، ثم ليأتي بعد ذلك

(١) العنكبوت:٤٨.

"التعليم والكتاب والحكمة".

ونجد «يتلو عليكم آياتنا ويزكيكم» عندما يتكلم مع الأمة الإسلامية، «يتلو عليكم آياتنا ويزكيكم ويعلمكم الكتاب والحكمة» يتحدث عن المؤمنين و«يتلو عليهم آياته ويزكيهم ثم يعلمهم الكتاب والحكمة» يتحدث عن الأميين «يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة»..

لكن عندما نأتي إلى دعاء إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام عن الأمة المسلمة ماذا يقول؟ يقول:

«يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم» والفرق واضح الآن إن شاء الله:

﴿يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ﴾(١)

﴿يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾(٢)

﴿يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾(٣)

﴿يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾(٤)

إن «تلاوة الآيات، تلاوة القرآن» موجودة في جميعها في البداية،

---

(١) البقرة ١٢٩.
(٢) البقرة ١٥١.
(٣) آل عمران ١٦٤.
(٤) الجمعة ٢.

لكن الفارق هو في «تعليم الكتاب والحكمة»:

مع آيات الذرية المسلمة يأتي مباشرة قبل "ويزكيهم"، مع الآخرين يأتي بعد التزكية، فما معنى هذا؟

عندما نزل القرآن في الأميين ثم بعد ذلك عندما يخاطب المؤمنين الذين آمنوا وتمثلوا الإيمان ويصدق عليهم صفة المؤمنين أو عندما يتحدث مع المسلمين الآن ويقرأ، أول شيء لكي يدخل الإنسان في الإسلام، فأول شيء أنه يستمع إلى آيات القرآن، وآيات القرآن وتلاوة الآيات مشتركة بين الآيات الثلاث مع آية دعاء إبراهيم عليه السلام لأن الطريق إلى آيات القرآن هي من رسول الله محمد صلى الله عليه وآله وسلم، وهو الذي أوحي إليه بها فمن عنده توصل إلى الآخرين؛ إذًا في هذه الحالات كلها يتلو الآيات أولًا.

عندما يأتي ويتلو آيات القرآن على الشخص أو الجماعة وعندما كان يعرض عليهم الإسلام، وأول شيء يتلو عليهم القرآن، ويقول: إني قد أوحي إليّ، وهناك احتمالان:

الاحتمال الأول: أن هذا الشخص المستمع إما يقبل هذه الآيات وإما يرفض، وإذا رفض هذه الآيات يبقى على كفره بالإسلام، وربما يدعوه النبي صلى الله عليه وآله وسلم مرة أخرى، ولكن هذا عندما لا يستجيب يبقى على ما هو عليه، وهذا لا يمكن فإن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يفعل معه أي شيء آخر، يعني أنه لا يأتي إليه ويقول: تعال أعلمك الكتاب والحكمة، وهو أصلًا رافض لهذا.

الاحتمال الثاني: عندما يقبل يقول له: إني أصدقك في هذا، ماذا أفعل؟ فيقول له تدخل الإسلام، يقول كيف؟ يقول له تتشهد الشهادتين، فيقول «أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدًا رسول الله»، وبعد ذلك يقول: ماذا أفعل، فيقول: أعلمك الآن، فيعلمه العقائد، طبعًا في البداية يعلمه المبادئ الأساسية: لا تشرك بالله شيئًا، تؤمن بالمعاد تؤمن بالرسالة، والأحكام الفقهية حسبما تتنزل، (واليوم كذلك إذا جاء شخص أول ما يدخل إلى الإسلام نقول له تشهد الشهادتين، وبعد ذلك نعلمه الكتاب والحكمة، والكتاب هو هنا الأحكام، كتاب يعني الدين بالعقيدة وفي الأحكام الشرعية في الفقه لأن الكتاب في القرآن، وللمفردة معاني متعددة، وهنا نعلمهم الكتاب بعد تلاوة الآيات والحكمة هي وضع الشيء في موضعه وهنا يتعلق بالهدي، يعني ليس بالضرورة الأمور التي من الواجب والحرام، إفعل ولا تفعل، ولكن أيضًا الأمور الأخرى).

إذًا، ما الذي حصل في هذه الآيات الثلاث مع الأميين، مع المسلمين، مع المؤمنين في المسلمين؟

إنه تُليت عليهم آيات القرآن ثم تم تعليمهم الكتاب والحكمة في المرحلة الثالثة، وهناك شيء حصل في الوسط، وهو أنهم تشهدوا الشهادتين فقط، وهذا يحتاج أن يتشهد الشهادتين مع انعقاد النيّة والصدق في ذلك، وبعد ذلك مباشرة يصبحون جاهزين لتعليم الكتاب والحكمة، إذًا هذا الشيء وهو النطق بالشهادتين يزكيهم، أو يزكيكم حسب التعبير،بالمخاطب أو الغائب. فما معنى هذه التزكية؟

معناها التزكية من الشرك، إذًا هو طهركم، وزكيتم أنتم من نجاسة الشرك إلى طهارة الإيمان والإسلام لله، (ومعنى الزكاة هذا، وحتى زكاة المال هي ضريبة، لكنها سميت زكاة لأنها تزكي المال وتطهره من النجاسة التي فيه، كأنما المال إلى أن يخرج منه حق الله تعالى هو مختلط وليس نظيفًا تمامًا، أخرجت منه حق الله تعالى وصار زاكيًا وصار طاهرًا، وأصبح جميعه حلالًا لك).

إذا هذه الآيات الثلاث وتلاوة القرآن بعد تلك التزكية هي في الدخول في الإسلام بالنطق بالشهادتين مع انعقاد النية على ذلك، وبعد ذلك تعليم الكتاب والحكمة.

ولكن آية الذرية والأمة المسلمة من ذرية إبراهيم وإسماعيل تقدم التعليم، تعليم الكتاب والحكمة على التزكية، لماذا؟ إن هذه الذرية المسلمة هي في الأصل مسلمة، لم يخالطها الشرك والكفر مطلقًا، فإن إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام دعوا الله تعالى أن يجعل من ذريتهما هذه الأمة المسلمة وفي أرقى درجات الإسلام، فهذه الجامعة من الذرية، ذرية إبراهيم وإسماعيل تلبست في الإسلام منذ اللحظة الأولى، لم يخالطها الشك أصلًا، فلا تحتاج أن تأتي وتزكى من الشرك بعد تلاوة الآيات بأن تتشهد الشهادتين، (نعم الجميع يتشهدون الشهادتين لتأكيد ذلك كل يوم، فرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عندما كان يصلي يتشهد الشهادتين وهو من هو).

فإذًا هذه الذرية، وهي الأمة المسلمة من الذرية يتلو عليهم

آياتك مباشرة ويعلمهم الكتاب والحكمة لأنهم جاهزون لذلك، فأول ما تلي الكتاب هم مسلمون، فطالما كانوا مسلمين منذ البدء و(ربما تشير إلى هذا في آية سورة الحج ﴿ملة أبيكم إبراهيم، هو سماكم المسلمين من قبل﴾[١]).

إن تعليم الكتاب والحكمة مباشرة لأنه لا يحتاج إلى التزكية من الشرك، إذًا ما معنى كلمة "يزكيهم" في آخر الكلام؟ لا يتبقى إلا معنى التزكية فإنه يقدمهم إلى الناس ويقول: هؤلاء أزكيهم من النقص ومن الشرك ومن الجهل ومن الظلم بعد أن أعددتهم بتعليم الكتاب والحكمة.

وإلا من غير المعقول أن يكون هنا الذرية المسلمة التي هي الأعلى ويأتي فيعلمها الكتاب والحكمة وبعد ذلك يزكيها بالشهادتين، فهي أساسًا متلبسة بالشهادتين ومقتضياتهما أصلًا، منذ دعاء إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام واستجابة الله تعالى لهما.

فهذا هو الفارق المهم جدًّا بين هذه الآيات والآيات الأخرى، ما يثبت أن الأمة المسلمة هي ليست ما يُظن من الفهم السائد أنها الأمة الإسلامية جميعًا.

أولًا: أنها ليست جميعها من ذرية إبراهيم عليه السلام (آية الحج أعلاه أيضًا «ملة أبيكم إبراهيم»).

وثانيًا: لهذه النكتة الدقيقة في كتاب الله تعالى، وإتمامًا لذلك

(١) الحج:٧٨.

نجد أن دعاء إبراهيم وإسماعيل يقول ﴿إنك أنت العزيز الحكيم﴾، بينما الآيات الأخرى، واحدة تقول ﴿ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون﴾، وآيتان تقولان ﴿وإن كنتم من قبل لفي ضلال مبين﴾، ضلال مبين، ضالين عن الهدى، ضالين عن الإيمان؛ لأنكم كنتم من المشركين ومن الكافرين، يعلمكم ما لم تكونوا تعلمون، وتحتمل هذا وذاك، ولكن بالتأكيد آية الذرية هي ﴿إنك أنت العزيز الحكيم﴾ ولا يذكر أنهم كانوا في ضلال أو في جهل أبدًا.

***

فهذا الجزء من بحوث الأمة المسلمة يؤكد أن هذه الأمة المسلمة ليست فقط من ذرية إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، وليس فقط أنها جماعة مخصصة، ليست الأمة الإسلامية كلها، وأيضًا أن هذه الجماعة لها دور كبير خطير مهم بحيث أن الرسول المبعوث فيهم صلى الله عليه وآله وسلم يهيئهم ثم يطلقهم إلى الناس ويزكيهم إلى الناس، أن هؤلاء أنا أزكيهم، إنهم لا شائبة فيهم من شرك ومن جهل ومن ضلال ومن ظلم.

الفَصْلُ الثَّانِي

يوم الغدير

«قراءة في آية البلاغ»

يوم الغدير ـ قراءة في آية البلاغ

تعد «آية البلاغ» الآية الأولى من الآيات القرآنية المتعلقة بيوم الغدير السعيد، وهي الآية الأهم كونها التي تذكر الأمر الإلهي الذي أطلق يوم الغدير، كما تذكر الملابسات المحيطة بالموضوع في يومه، كما تستشرف ما بعده. أقدم قراءتي لهذه الآية المباركة بتدبر كلماتها وجملها بما يرسم صورة صحيحة لما يفهم منها.

***

قراءة في آية البلاغ الآية ٦٧ من سورة المائدة المباركة: ﴿يا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾.

ولكن لنقرأ أولًا الآيات ٦٤ إلى ٦٩: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُواْ بِمَا قَالُواْ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاء وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاء إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ كُلَّمَا أَوْقَدُواْ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللّهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَادًا وَاللّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾

﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُواْ وَاتَّقَوْاْ لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلأدْخَلْنَاهُمْ

جنَّاتِ النَّعِيمِ﴾

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُواْ التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيهِم مِّن رَّبِّهِمْ لأكَلُواْ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَاء مَا يَعْمَلُونَ﴾

﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾... الآية ٦٧ موضع البحث.

﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّىَ تُقِيمُواْ التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا فَلاَ تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَالَّذِينَ هَادُواْ وَالصَّابِؤُونَ وَالنَّصَارَى مَنْ آمَنَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وعَمِلَ صَالِحًا فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

ملاحظات:

(١) الآية في وسط آيات الحديث عن أهل الكتاب، ونصها واضح أنه منفصل عنهما تمامًا[١].

(٢) فإذا أردنا الربط بين محتواها والآيات التي هي في وسطها، وجدنا أنها:

(١) حالها حال آية إكمال الدين في نفس السورة، المائدة آية ٣، وآيتي الولاية ٥٥ و٥٦ من المائدة أيضًا.

(أ) تتحدث عما أنزل إليه ﷺ أو أنزل إليهم (اليهود) من الرب، أي المنعم من جانب الربوبية وفيها الرازقية والواهبية والرحمانية، وليس الألوهية.

(ب) تصف المعارضين للتنزيل بالكفر، وأن الكفر هو رفضهم لذلك التنزيل.

(٣) المقطع الأول، تأمر الآية النبي ﷺ بصفته الرسولية ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ﴾.

(أما الخطاب بصفة النبوة ﴿يا أيها النبي﴾ فيتحدث عن الإجراءات الإدارية في الدولة أو الحياة الشخصية، من قبيل:

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ﴾[(١)]، ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّمَن فِي أَيْدِيكُم مِّنَ الأَسْرَى﴾[(٢)]، ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ﴾[(٣)]، ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ﴾[(٤)]، ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ﴾[(٥)]، ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ﴾[(٦)]).

(٤) هذه الصيغة «يا أيها الرسول» وردت مرتين كلاهما في

---

(١) الأنفال: ٦٥.
(٢) الأنفال: ٧٠.
(٣) التحريم: ٩.
(٤) الأحزاب: ٥٩.
(٥) الممتحنة: ١٢.
(٦) الطلاق: ١.

سـورة المائـدة.

الآيـة ٤١ ﴿يا أَيُّهَا الرَّسُولُ لاَ يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُواْ آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ وَمِنَ الَّذِينَ هِادُواْ سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِن بَعْدِ مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَـذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُواْ وَمَن يُرِدِ اللّهُ فِتْنَتَهُ فَلَن تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللّهِ شَيْئًا أُوْلَـئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾

والتـي نلاحـظ فيهـا أنـه مـع وصفهـم بصفـة النفـاق ﴿مِنَ الَّذِينَ قَالُواْ آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ﴾ لـم يسـمهم "منافقيـن"، بـل قـال ﴿الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ﴾، ومـا ذلـك إلا لمشـكلة فـي دواخـل نفوسـهم ﴿أُوْلَـئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ﴾.

وآيـة البـلاغ الآيـة ٦٧ ﴿يا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾.

هنـا أيضًـا، يصـف الذيـن يتوجـس النبـي ﷺ منهـم بالكفـر ﴿لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾.

(٥) أن الآيتين تقطعان أي أمل في هدايتهم.

(٦) المقطـع الثانـي، ﴿بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ هـل إن الرسـول ﷺ أحجـم عـن البـلاغ عنـادًا؟! هـذا مسـتحيل عليـه..

هل أحجم خوفًا بالمعنى المعروف للخوف؟ لا يمكن لأنه من الرسل الكرام، بل أكرمهم وأطوعهم لله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا﴾[(١)].

حتى في الجانب القتالي وجدناه في حنين بعد هروب الجيش ينزل إلى الميدان ويضرب الأعداء وفي نفس الوقت في تمام السيطرة في الأداء بحيث يقاتلهم وهو يقول «أنا النبي لا كذب أنا بن عبد المطلب»[(٢)] ليعلن عن نبوته ومكانته.

(٧) هل إن الآية تتحدث «ما أنزل إليك من ربك» عن الرسالة الإسلامية كلها؟ قطعًا لا، لأنه من غير المعقول بعد كل هذا الالتزام الرسولي بالمهمة، يجاهد في سبيل تبليغ ما نزل عليه وإليه صلى الله عليه وآله وسلم، فـ١٣ سنة في مكة وسنوات طويلة في المدينة، إذا بالله تعالى يطلب منه البلاغ!

(٨) المقطع الثالث ﴿وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ﴾، لا يمكن أن تعني كلمة «رسالته» الرسالة الإسلامية كلها، لأن القرآن يكون عندها يتكلم هذرًا والعياذ بالله - يقول: «إن لم تبلغ الرسالة الإسلامية فإنك لم تبلغ الرسالة الإسلامية»! أو كقول الشاعر: الماء ماءٌ والهواء هواءُ، والأرض أرضٌ والسماء سماءُ!

---

(١) الأحزاب:٣٩.
(٢) البخاري ومسلم وغيرهما.

إذًا، يجب أن يكون المعنى محيطًا بالتنزيل الذي جاءه ﷺ في تلك الأيام أو الساعات، والذي هو قطعًا جزء من الرسالة وليس كلها، ولكن الذي هو من الأهمية المفصلية الحاسمة بمكان بحيث أن عدم تبليغ هذا الجزء «وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ» يطيح بالكل «فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ». أي أن «وإن لم تفعل فما بلغت رسالته» ليس وصفًا لعدم البلاغ ولكنه وصف لنتيجة عدم وصول ما أنزل إلى الناس.

(٩) المقطع الرابع، تمضي الآية بكلماتها الهامة جدًّا «وَاللّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ»:

أولًا: تؤكد على أن النبي ﷺ إنما أحجم مؤقتًا عن التبليغ خشية من «الناس». و«الناس» هنا يمكن أن تعني جميع الخلق، وهذا مردود لوجود المؤمنين. أو تعني شخصًا واحدًا كما في ﴿الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم﴾[1] فعنى بكلمة «الناس» الأولى شخصًا واحدًا هو نعيم بن مسعود الأشجعي في القصة المعروفة لغزوة الأحزاب، وهذا مردود لأننا لا نعلم شخصًا واحدًا كان له ذلك التأثير بحيث أن النبي ﷺ يطلب العصمة من الله خشية منه؛ وعليه فإن «الناس» تعني جماعة من الناس.

ثانيًا: تؤكد على أن هؤلاء «الناس» المعارضين لن يستطيعوا الإطاحة بهذه الجزئية المفصلية الحاسمة في الدين لأن الله تعالى قد عصم رسوله ﷺ منهم، أي عصمه ﷺ في التبليغ وفي أثر

(١) آل عمران: ١٧٣.

التبليغ بحيث لن تحصل «فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ».

ونستطيع هنا أن نرد ما قالوه من أن هذه العصمة كانت ضد السحرة أو ضد معارضي الإسلام لأن التجربة الطويلة أثبتت أن الله قد عصمه ﷺ في تبليغ الدين، فهل كان غير معصوم من الناس طيلة تلك المدة ثم جاءته العصمة بعد أن أنهى كل شيء؟!

ونستطيع أن نقول هنا: إن «الناس» المقصودين هنا ليسوا من خارج الأمة لأن هؤلاء قد انتصر النبي ﷺ عليهم وأخضعهم للدين، رغبة أو رهبة، سواء كانوا قريشًا الكافرة وحلفاءها من العرب أو اليهود... إذًا، المقصودون هم من داخل الأمة... وهذا أثبتته الآيات أعلاه ﴿مِنَ الَّذِينَ قَالُواْ آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ﴾ ﴿الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ﴾.

كما تشير إليه آيات أخرى تحيط كلها - في هذا الكتاب العبقري المعجز - بظروف يوم الغدير... وإن شئتم فاقرأوا الآيات ٥٩ إلى ٦٥ من سورة النساء:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَطِيعُواْ اللّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً﴾.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُواْ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ

مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُواْ إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُواْ أَن يَكْفُرُواْ بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلاَلاً بَعِيدًا﴾.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَى مَا أَنزَلَ اللّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا﴾.

﴿فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَآؤُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلاَّ إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا﴾.

﴿أُولَـئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِي أَنفُسِهِمْ قَوْلاً بَلِيغًا﴾.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُواْ أَنفُسَهُمْ جَآؤُوكَ فَاسْتَغْفَرُواْ اللّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُواْ اللّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾.

﴿فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّىَ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُواْ فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا﴾.

***

إضافة: حول كلمة «الغدير»

غَـدَرَ: نقـض العهـد، إخـلاف العهـد/ غَـدِرَ: شـرب مـن المـاء/ غَـدِير هـو مـا تخلـف مـن مـاء النهـر.

وعليـه فقـد اجتمعـت علـى هـذه المفـردة مـا نظمتـه شـعرًا قبـل سـنوات:

عجبتُ ليومٍ، بل عجبتُ لإسمِهِ تلقّتْهُ أيدٍ بالمحرَّفِ والنُّكْرِ

(البعـض ينكـره أصـلًا، والبعـض الآخـر يحـرف معنـى كلمـة «مولـى» عـن معناهـا الواضـح)

يقولونَ «مولىً» ليسَ تعني خليفةً أمعذرةً كانتْ؟ فيا بِئسَ مـــن عُذرِ

أوائلُهُمْ هَنَّتْ، ومن ثَمَّ بَخْبَخَتْ ثُمَّ بليلٍ دَبَّرتْ غـــادِرَ الأمــرِ

ألا ليتَ شعري: هلْ غديرٌ لــمائِهِ وليسَ اشتقاقًا للَّذي كانَ من غَدرِ؟!

الوجه الآخر المفرح

ولكـن الوجـه الآخـر لهـذا الغـدر هـو مـا مـن اللـه بـه علينـا مـن البخـوع لمـا أمـر اللـه ورسـوله صلى الله عليه وآله وسلم بـه مـن اتخـاذ علـي بـن أبـي طالـب عليه السلام إمامًـا، والـذي صـار يبـدو أجمـل وأحسـن وأفضـل لمـا ابتعـد عنـه الأكثـرون - إمـا جهـلًا أو تجاهـلًا -، فحـق لنـا أن نفـرح بهـذا الموقـف وللـه الفضـل والمنـة...

كيف لا وأن هذا الموقف هو الذي يندرج بشكل كامل غير منقوص تحت ما أعلنته آية الغدير الثانية والتي نزلت بعد البلاغ، وهي ﴿اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينا﴾[(١)]...

فالحمد الله على إكمال الدين وإتمام النعمة ورضا الله تعالى بالإسلام دينًا، قد أتم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم البلاغ والبيان على الوجه الأكمل فتم الوحي، ثم عين خزان العلم وحراس العقيدة وهو لما يزل على قيد الحياة بحيث لا تنقطع قوامة المصطفين الأخيار على هداية الناس لحظة واحدة، عندما جعل لعلي عليه السلام نفس ولايته على المسلمين التي هي متقدمة على ولايتهم على أنفسهم ﴿النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾[(٢)] فقال: «من كنتُ مولاهُ فهذا عليٌّ مولاه» وأردف القول بالدعاء: «اللهمّ والِ من والاه وعادِ من عاداه»[(٣)]...

ونحن نردد خلفه «اللهم وال من والاه وعاد من عاداه»...

(١) المائدة:٣.
(٢) الأحزاب:٦.
(٣) مصادر الحديث كثيرة، رواها أصحاب كتب الحديث الشريف وتفسير القرآن والتاريخ؛ من المحدثين الإمام أحمد بن حنبل في مسنده ج٤ ص٢٨١، والبيهقي في سننه في ج١٠ ص١٤، والبخاري في تاريخه ج١ ص٣٧٤ رواية ١١٩١ وج٤ ص١٩٣ رواية ٢٤٥٨ وج٦ ص٢٤٠ رواية ٢٢٧٧، ومن المفسرين الطبري في تفسيره ج٣ ص٤٢٨، والثعلبي في تفسيره، والفخر الرازي في تفسيره ج٣ ص٦٣٦، ومن المؤرخين ابن عساكر في تاريخ دمشق من في الأجزاء ١٣ و١٨ و٢٥ و٤٢، وفي سير أعلام النبلاء من طرق عديدة منها ج٨ ص٣٣٤ وج١٣ ص٣٤٠ وج١٩ ص٣٢٨.

البَابُ السَّابِعُ

تطبيقات عن

«المهدي المنتظر في إطلالة قرآنية»

الفَصْلُ الأَوَّلُ

المهدي المنتظر في إطلالة قرآنية

١- عقيدة المخلّص وإشكالات التطبيق على الإمام الثاني عشر عليه السلام

«إشكالية الحكمة من ذلك»

في هذا الفصل والفصلين القادمين نتعرض لقضية المهدي المنتظر من خلال تدبر بعض الآيات القرآنية التي تتعلق بفكرته وحركته كما تتعلق بتشخيصه والإشكالات المثارة حوله عليه السلام.

***

عقيدة المخلص الموعود المنتظر عند الأمم

إن عقيدة وجود شخص يأتي في المستقبل ليقوم بدور الإصلاح ما يؤدي إلى خلاص البشرية من آلامها ومشاكلها والظلم المحيط بها لا تختص بالمسلمين، بل إنها موجودة عند غيرهم. فإن اليهود لم يعترفوا بالمسيح عليه السلام واستمروا على عقيدتهم في انتظار هذا المخلّص حتى يومنا هذا. وكما هي حال عقائدهم، فإن الخلاص لهم أولًا كونهم شعب الله المختار، ثم لباقي البشر ثانيًا ولكن ليبقوا تحت سلطتهم. وأما المسيحيون فإنهم آمنوا بالمسيح عليه السلام على أنه المخلّص للبشرية، لكنهم جعلوا تحقق الخلاص مرهونًا بالإيمان به عليه السلام إلهًا وابن إله وأنه إنما هبط إلى الأرض ليعلن العقيدة الصحيحة ثم ليتحمل خطايا المؤمنين به. وعليه فإن الإيمان المسيحي بالمسيح

عليه السلام المخلّص يشترط الإيمان به على صفته الإلهية وعلى تحمله خطايا المؤمنين عندما صلب.

العقيدة عند المسلمين

أما عند المسلمين فإن عقيدة وجود رجل من ذرية النبي صلى الله عليه وآله وسلم من ولد فاطمة عليها السلام يظهر في آخر الزمان من أجل أن «يملأ الأرض قسطًا وعدلًا بعد أن ملئت ظلمًا وجورًا» هي مشتركة بين جميع المسلمين ما عدا الشواذ. لذلك، فإن كلمة «المَهدِيّ المُنتَظَر» كلمة معروفة عند جميع المسلمين.

وهكذا، فإن عقيدة المهدي المنتظر عند المسلمين وسعت من إطارها لتجعلها غير مرهونة بجماعة معينة من الناس، ولا أن فعلها سيكون على مراتب ودرجات الأمم كما هي حالها عند اليهود، أو أن الخلاص هو في الآخرة للمؤمنين بالمخلص فقط كما هو حالها عند المسيحيين.

المهدي المنتظر عند أهل السنة

يعتقد أهل السنة بأن رجلًا من هذه الأمة سيظهر في آخر الزمان لإقامة دولة العدل في أرجاء العالم، تصديقًا لبشارة النبي صلى الله عليه وآله وسلم في الحديث المعروف أن هذا الرجل الموعود «يملأ الأرض قسطًا وعدلًا

بعد أن ملئت ظلمًا وجورًا»[(١)]. إذًا، هو رجل منتظر للإصلاح، ويسير على هدى واضح لا شائبة فيه، فهو منتظر مهدي، أو المهدي المنتظر كما هي الصفة التي إذا أطلقت لم تذهب إلى غيره.

كما يروون بعض الوصف لما سيحصل قبيل زمان ظهوره، كما في حديث رواه ابن ماجة قول النبي ﷺ: «إنا أهل بيت اختار الله لنا الآخرة على الدنيا، وإن أهل بيتي سيلقون بعدي بلاءً وتشريدًا وتطريدًا، حتى يأتي قوم من قبل المشرق معهم رايات سود فيسألون الخير فلا يُعطونه، فيقاتلون فيُنصرون فيُعطون ما سألوا فلا يقبلونه، حتى يدفعوها إلى رجل من أهل بيتي فيملؤها قسطًا كما ملؤوها جورًا، فمن أدرك ذلك منكم فليأتهم ولو حبوًا على الثلج»[(٢)].

التشخيص

أما من هو أو من أي العشائر أو البيوت؟

أهل السنة يؤمنون بأنه من ذرية النبي ﷺ من ولد فاطمة عليها السلام.
أخرج أبو داود في سننه[(٣)] رواية عن أم سلمة أنها سمعت النبي ﷺ يقول: «المهدي من عترتي من ولد فاطمة». ورواه الحاكم في

(١) سنن أبي داود ج٢٧ كتاب المهدي، والمستدرك للحاكم ج٤ ص٥٥٧ وغيرها، وأسد الغابة لابن الأثير ج١ ص٢٥٩، وغير هذه المصادر.
(٢) سنن ابن ماجة، ج ٥، ص ٥٤٠، باب خروج المهدي.
(٣) ج٢٧ ص١٣٤.

المستدرك[١]، وابن ماجة في سننه أبواب الفتن باب خروج المهدي، وغيرهم. كما أخرج ابن ماجة في سننه أبواب الفتن باب خروج المهدي أن النبي ﷺ قال: «المهدي منا أهل البيت، يصلحه الله في ليلة». ورواه أحمد في المسند[٢]، وغيره.

المهدي المنتظر عند الشيعة

١- اسمه ونسبه/ محمد بن الحسن بن علي بن محمد بن علي بن موسى بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب عليه السلام، وعليه فهو من ذرية الحسين عليه السلام لا من ذرية الحسن عليه السلام.

٢- ولادته/ وعليه فقد ولد في زمان قديم، تحديدًا في ١٥ شعبان سنة ٢٥٥ هجرية.

٣- طول عمره/ وبالتالي فإن عمره الشريف يقترب من اثني عشر قرنًا.

٤- صغر سنه/ وبما أن أباه عليه السلام توفي سنة ٢٦٠هـ فإن المهدي عليه السلام صار إمامًا وهو في الخامسة من عمره.

٥- غيبته/ ومنذ ذلك التاريخ وإلى حد الآن هو غائب عن الأنظار، ما عدا الفترة ما بين مولده وحتى سنة ٣٢٩هـ والتي كان

---

(١) ج٤ ص٥٥٧.
(٢) ج١ ص٨٤.

يتفاعل مع شيعته من خلال نواب أربعة معروفين (قبورهم مشيدة معروفة في بغداد).

عقيدة ولدت إشكالات

الإشكال الأول: كيف يكون غائبًا في السرداب - سرداب سامراء- ولا نراه؟

الإشكال الثاني: كيف صار إمامًا وعمره خمسة أعوام؟

الإشكال الثالث: هل من المعقول أن يعيش طيلة هذه المدة؟

الإشكال الرابع: ما الحكمة في كل هذا؟ لماذا لا يكون المهدي المنتظر عليه السلام من نتاج زمان ظهوره؟ لماذا يولد في زمان يبعد قرونًا عن زمان ظهوره؟ أليس الله تعالى يعلم هذا، فلماذا هذا الأمر غير المعتاد، بل غير الضروري؟

بعبارة أخرى: بغض النظر عن إمكانية بدء الإمامة من عمر صغير وإمكانية طول العمر، على اعتبار أن هذا لله تعالى ﴿لا يُسأل عما يفعل﴾[1]، فإن الفهم الآخر في الدائرة الإسلامية، وهو فهم أهل السنة، يبقى قائمًا في أن يظهر هذا القائد المنتظر في وقت حركته ويقوم بالتغيير؛ أي أن هناك طريقًا آخر لتحقيق الأمر دون هذه الموارد الاستثنائية غير المألوفة.

(١) الأنبياء:٢٣.

ولكن هل هناك حقًا طريق آخر؟

في هذا الفصل أتناول الإشكال الرابع، أولًا لأنه يتعلق بالإطار الأهم في الموضوع، ثانيًا لأنه إذا قبلنا بنتيجة هذا الإطار عندها يصبح النظر في الجواب على الإشكالات الثلاثة الأولى أكثر يسرًا.

***

بحث الإشكال الرابع

نستطيع تناول هذا الإشكال الرابع، عن الحكمة في هذه الموارد غير المألوفة - الغيبة، والإمامة المبكرة، وطول العمر المديد جدًّا - بطريقين:

الطريق الأول: ميزة ولادة الإمام عليه السلام على ولادة المنتظر في زمن ظهوره.

أولًا: الذي يولد في زمان ظهوره ليس معصومًا وهذا لن يؤهله للقيام بدوره الاستثنائي في المسيرة البشرية، في حين أن المهدي في عقيدة الشيعة إمام معصوم في السلسلة الاثني عشرية التي حددها النبي صلى الله عليه وآله وسلم، كعدد محدد لا خروج عنه في أحاديث نبوية لا مناص من الاعتقاد بها عند أهل السنة كما قرره علماؤهم.

ثانيًا: الذي يولد في زمان ظهوره لن يتمتع بما يتمتع به من يولد في بيت إمام معصوم يتعهده بالتربية الاستثنائية المنفتحة على

الكرامات والإلهامات والعلوم التي يعطيها المولى عز وجل لأوليائه من آل محمد صلى الله عليه وآله وسلم، من أبيه العسكري عليه السلام وحتى الإمام علي عليه السلام الذي تربى في بيت النبي صلى الله عليه وآله وسلم بشكل لا مثيل له.

ثالثًا: حالة طول العمر التي جعلت من المهدي المنتظر هو المهدي بن الحسن العسكري عليه السلام تمثل نقطة إيجابية لوظيفة الإمام عليه السلام، لأنه سيشهد كيف تنشأ الدول المختلفة، فتقوى، فتستقر، ثم تبدأ بالضعف، حتى الانهيار، ما يجعله غير آبه بقوة الدول التي تكون مسيطرة عند ظهوره.

رابعًا: الذي يولد في زمان ظهوره كيف نعرف أنه من «ولاة الأمر» الذين أوجب الله طاعتهم؟

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَطِيعُواْ اللّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً﴾[١]؟

ولاة الأمر هؤلاء لا يمكن أن يكونوا الحكام الذين تولوا الحكم لأن هؤلاء أضعف من أن يعلموا الحكم الشرعي، أو قل: لا تنطبق عليهم آية «أولي الأمر الأخرى»:

﴿وَإِذَا جَاءهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُواْ بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُوْلِي الأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلاَ

(١) النساء:٥٩.

فَضْلُ اللّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لاَتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا﴾[١].

وإذا كان الله تعالى قد حصر الولاية في الذات المقدسة ثم الرسول ﷺ ثم علي عليه السلام كما في آية الولاية:

﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾[٢].

فإن الولي الأول - الله تعالى - هو الذي نص في كتابه العزيز على «أولي الأمر» من خلال الآيات المختلفة (المشهورة كآية التطهير، وغيرها كآية ﴿أم يحسدون الناس﴾[٣] التي أشرنا إليها في فصل سابق)، ثم قام الولي الثاني - رسول الله ﷺ - بإعلانهم صفةً وعددًا وتشخيصًا وتعيينًا من خلال تعيين علي عليه السلام يوم الغدير وقبله، ثم قام الولي الثالث - علي عليه السلام - بإعلانهم صفةً وعددًا وتشخيصًا وتعيينًا من خلال تعيين الحسن عليه السلام بعده... وكل هذا يشير إلى الثاني عشر من هذه السلسلة المباركة.

الطريق الثاني: طبيعة المهمة المناطة به عليه السلام.

خامسًا: هنا تأتي الآيات المباركة الأهم في هذا كله - ظهور الدين الحق على الدين كله:

﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ

(١) النساء:٨٣.
(٢) المائدة:٥٥.
(٣) النساء:٥٤.

كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾[(١)].

الآية قبلها ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِؤُواْ نُورَ اللّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللّهُ إِلاَّ أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾[(٢)].

(قدمت الآية ٣٣ على الآية ٣٢ لأنها الأصلية في قضية الوعد الإلهي للدين الحق).

١- «هو الذي»: لم يقل «الله الذي» لأنه يقول «إن الذي يريدون إطفاء نوره، والذي يأبى إلا أن يتم نوره» كما في الآية المتقدمة عليها، «هو من أرسل رسوله بالدين الحق ليظهره على معتقداتهم جميعًا».

٢- «أرسل رسوله»: «نور الله» هذا الذي يريدون «إطفاءه» محدد في «الرسالة التي أرسل بها محمدًا ﷺ».

٣- «بالهدى ودين الحق»: فقد أرسله بـ - (أ) الهدى إلى طريق الله عمومًا (ب) الدين الإسلامي الذي فيه تفاصيل هذا الهدى/ كما خاطبه بقوله ﴿وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم﴾[(٣)].

٤- «ليظهره»: لام التعليل تعني «الغاية» من الإرسال هو «إظهاره على الدين كله»، وما ذلك إلا لتعلقها بأمر «القسط» في الناس ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ

(١) التوبة: ٣٣.
(٢) التوبة: ٣٢.
(٣) الشورى: ٥٢.

بِالْقِسْطِ﴾[١]، وبالغاية الأصلية للخلق ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنْسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾[٢].

٥- «على الدين كله»: لا «يظهره» بشكل محدود في المكان أو الفكر، ولكن بشكل حاسم يمتد على جميع الأديان والمعتقدات، ما يعني الامتداد إلى جميع العالم.

٦- «ولو كره المشركون»: هذا يعني وجود «مقاومة» من «المشركين»، وهو متوقع لأنه لا يمكنهم القبول بالخضوع إلى الدين الحق وترك شركهم إلا إذا اقتنعوا به وآمنوا وعندها تنتفي عنهم صفة الشرك.

٧- «يريدون»: هذا يعني أن موقفهم من الدين الحق ليس محايدًا بحيث يرفضونه ولكن دون صراع.

٨- «أن يطفؤوا نور الله بأفواههم»: هذا هو ما يريدونه حقًّا «إطفاء نور الله» لأن الهدى والحق والقسط إنما هي من عناصر هذا النور الإلهي الذي يريده الله تعالى ليشمل العالم؛/ «بأفواههم» يشير إلى الصراع العقائدي الفكري حيث ينطلقون من الكلام ضد الهدى والحق من أجل تجهيل الناس بإلقاء ما يحجبهم عن هذا النور.

٩- «ويأبى الله»: تعبير جميل، أن الله تعالى «يرفض موقفهم بنحو التعالي العزيز».

---

(١) الحديد: ٢٥.
(٢) الذاريات: ٥٦.

١٠- «إلا أن يتم نوره»: الشيء الوحيد الذي يقبل به هو «إتمام النور»، وهذا يكون بتمكين الغلبة للهدى والحق والقسط.

١١- «ولو كره الكافرون»: حتى ولو كرهوا ذلك، فكرًا أو بالممارسة العملية والمعارضة.

(ب) ثم الآية المشابهة:

﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾(١).

الآية قبلها ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِؤُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾(٢).

١٢- لماذا «ليطفؤوا» في آية الصف وليس «أن يطفؤوا» كما في آية التوبة؟

«أن يطفؤوا» تخبرنا عما يريدون، في حين «ليطفؤوا» تخبرنا عنه أيضًا ولكن مع إضافة أنهم «يقومون بمقدمات من أجل ذلك» أي «ليعملوا من أجل إطفاء» أو شبهه.

ولكن يبقى السؤال: لماذا استخدم هذا هنا ولم يستخدمه هناك؟

بالرجوع إلى السياق نجد الآية ٧ من سورة الصف ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَى إِلَى الْإِسْلَامِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي

---

(١) الصف:٩.
(٢) الصف:٨.

﴿الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾، أي «يقوم بعمل لأجل إطفاء نور الله» وهو «افتراء الكذب».

في حين أن سياق آيتي التوبة يتعلق بنسفهم للحقيقة الإلهية من أساسها:

﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللّهِ وَقَالَتْ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِؤُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ * اتَّخَذُواْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُواْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ إِلَـهًا وَاحِدًا لاَّ إِلَـهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾[١].

فيصفه بأنه «الإطفاء» وليس «عملًا من أجل الإطفاء».

١٣- في آيتي التوبة كما في آيتي الصف، لماذا «ولو كره المشركون» في آية و«ولو كره الكافرون» في آية أخرى؟

لأن «إطفاء نور الله» يعني «تغطية الحقيقة كلها» أي «الكفر»، فيصفهم بـ «الكافرين»؛ في حين أن «إظهار الدين الإسلامي على الدين كله» يعني «إظهاره على الأديان الأخرى التي أخبرنا القرآن أنها كلها صارت موبوءة بالشرك»، فيصفهم بـ «المشركين».

(ت) ثم الآية الأخرى المشابهة:

﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ

---

(١) التوبة: ٣٠-٣١.

كُلِّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾[١].

١٤- لماذا هنا «وكفى بالله شهيدًا» بدلًا من «ولو كره المشركون» في التوبة والصف؟

ربما يقال: إن الآية قبلها ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاء اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُؤُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا﴾[٢]، تعني أن الآية خاصة بالوعد بفتح مكة، وعليه فليست عامة كي نطبقها على النهضة المهدوية بعد قرون من ذلك.

ولكن هذا يغفل نقطتين:

الأولى: استمرارية العطاء القرآني في جميع آياته أبد الدهر، الأمر الذي أشرنا إليه مرارًا بالاستفادة مما صرح به القرآن وما روي عن أئمة الهدى عليهم السلام وما يحكم به العقل من ضرورة استمرار الكتاب الأخير الخاتم بالعطاء وإلا احتاجت البشرية إلى ما يأتي بعده.

الثانية: «الوعد في الآية ٢٨ ورؤيا الرسول صلى الله عليه وآله وسلم (وهو مثال آخر على الوحي خارج القرآن) وتصديق الرؤيا بفتح مكة» يحتاج إلى تأكيد للمسلمين جاءت به الآية ٢٨، ولكن هناك «شهادة من الله» «وكفى بالله شهيدًا» ربما تحتاج أن يتحقق مصداق لها في حياة النبي صلى الله عليه وآله وسلم، خصوصًا وهو الذي رأى الرؤية المباركة بالفتح وبشر

(١) الفتح:٢٨.
(٢) الفتح:٢٧.

المسلمين بها، أيضًا لوجود من اعترض - كالعادة - لضعف في الإيمان أن النبي ﷺ وعدهم في الحديبية ولم يحصل دخول مكة (حتى احتج عليه النبي ﷺ أن البشارة بالدخول لم تكن محددة في ذلك العام).

التدبر في الآيات الكريمة يستفاد منه ما بعضه ما ذكره المفسرون أصلًا لوضوحه، وهو:

١. الدين الإسلامي سيسيطر على العالم كدين.

٢. بما أن «الكافرين» أو «المشركين» لا يمكن أن يقبلوا ذلك، إذًا لا بد أن تكون السيطرة الفكرية العقدية مصحوبة بسيطرة حكم قاهرة، ليس لتجبر الناس على الدين ولكن لتمنع «المشركين» و»الكافرين» من الوقوف في وجه الدعوة الإسلامية... وهذا صريح بأجمل ما يمكن في وعد النبي ﷺ «يملؤها قسطًا وعدلًا» فلم يقل «يجعل الناس كلهم مسلمين» أو «يلغي الأديان الأخرى»، وهذا مؤكد لأنه ﷺ الذي أنزل عليه «لا إكراه في الدين» البقرة:٢٥٦.

٣. هذا وعد حتمي لا بد أن يتحقق.

٤. بما أنه لم يتحقق في زمان النبي ﷺ ولا بعده مطلقًا فهو ينتظر التحقق.

٥. ما أخر تحققه هو غياب الشروط المطلوبة وإلا لتحقق.

٦. الشروط المطلوبة نأخذها من أعلاه:

- مـادة الأمـر، وهـو الديـن الإسـلامي، وهـذا موجـود أصـلًا، ولكنـه يحتـاج إلـى مـن يضعـه علـى المسـار الصحيـح فـي النـاس بعيـدًا عـن المدعيـن والمنحرفيـن والمضليـن والظالميـن والمجرميـن مـن المسـلمين/ أو «الهـدى وديـن الحـق».

- ظـروف مسـاعدة، وهـي ظـروف العالـم عمومًـا وظـروف المنطقـة صانعـة الأحـداث وهـي الشـرق الأوسـط/ أو «ليظهـره» و«ولـو كـره الكافرون/ المشـركون».

- الجماعة المؤمنة حقًا ودون شك/ وهذا من البديهيات.

- القائـد الـذي يسـتطيع: «وضـع الإسـلام علـى المسـار الصحيـح، واسـتثمار الظـروف المسـاعدة، وقيـادة الجماعـة المؤمنـة، والقيـام بمـا ينبغـي مـن تخطيـط وتنفيـذ لهـذه المهمـة الخارقـة التـي لـم تحصـل مـن قبـل مطلقًـا»/ وهـذا مـن البديهيـات أيضًـا؛ وإن كنـا نسـتطيع القـول بحسـم أن الأصـل فـي القائـد هـو «رسـوله» فـي الآيـات، ولكـن بمـا أن الشـروط الأخـرى لـم تكـن متحققـة فـإن الأمـر تأجـل؛ أو أن المشـكلة ليسـت فـي القائـد، كيـف؟ وهـل هنـاك قائـد أكمـل لهـذا الـدور مـن رسـول اللـه ﷺ؟ ولكـن باقـي الشـروط لـم تكـن متحققـة.

سادسًـا: نتيجـة «الظهـور علـى الديـن كلـه» هـي أن الأرض يرثهـا الصالحـون.

(أ) الآيات من سورة الأنبياء ١٠٥-١٠٧.

﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ. إِنَّ فِي هَذَا لَبَلَاغًا لِّقَوْمٍ عَابِدِينَ. وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾.

وهي جميلة في دلالاتها وربطها بما قلناه أولًا:

- هو أمر مكتوب «كتبنا»، فهو حتمي لا يمكن أن يتخلف.

- وراثة «الأرض» كلها، وهذا لم يتحقق لحد الآن.

- الوراثة لـ «عبادي الصالحين»، وهو ما لم يتحقق لحد الآن (مع ملاحظة نسبتهم إليه تعالى «عبادي»).

- هذا «بلاغ» لا بد أن يصل إلى الناس الذين تنطبق عليهم صفة «عابدين».

- ليتحقق الوعد بغلبة الدين الإسلامي فتتحقق الغاية الكبرى منه «رحمة للعالمين»؛ والذي نستفيد منه الربط بما قلناه من أن القائد المنتظر عليه السلام ينطلق بالدين بـ «المسار الصحيح» كي يكون «رحمة للعالمين» حقًا، وأنه عليه السلام ليس إلا امتدادًا للرسول صلى الله عليه وآله وسلم.

(ب) الآية ٥٥ من سورة النور

﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي

﴿شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾.

- قدّم «منكم» على «وعملوا الصالحات» ليخبرنا أن ما «وعد الله» هو لـ «الذين آمنوا» منا نحن المسلمين.

- الوعد بالخلافة «ليستخلفنهم في الأرض»، أي يكونوا ظاهرين على غيرهم.

- وهذا حصل لـ «الذين من قبلهم» الذين تحكموا بعد ضعف؛ ولكن مع فارق شاسع: الأرض اليوم قطعة واحدة متصلة مستحيل أن تنجو جماعتان مسيطرتان من الصراع، إذًا هي جماعة واحدة مسيطرة، وهم المسلمون.

- هذا الاستخلاف يتضمن جانبين:

الأول: التمكين بالدين «الذي ارتضى لهم»/ «ورضيت لكم الإسلام دينًا» الذي ما تحقق إلا بعد إعلان علي عليه السلام وليًا عامًا على الناس.

الثاني: تبديل الخوف بالأمن، وهو ينطبق على الجماعة المؤمنة التي يحتاجها القائد المهدي عليه السلام كما تنطبق عليه هو عليه السلام.

- النتيجة «يعبدونني لا يشركون بي شيئًا»، وهذا لم يحصل لأفراد تجمعهم مهمة واحدة مع قائد مسدد، ما عدا وقت النبي صلى الله عليه وآله وسلم والذي لم يكن إلا في رقعة من الأرض محدودة جدًا لا تجتمع مع الآيات المتقدمة.

(ت) الآية ٤١ من سورة الحج

﴿الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾

- عندما يتم التمكين في الأرض «الذين إن مكناهم»، أي الحالة التي وعدت بها الآيات المتقدمة...

- سيقومون بما يتوجب عليهم من ربط التمكين الإلهي بالغاية الأولى من العبادة «إلا ليعبدون»، التي تستبطن المذكور من الصلاة والزكاة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وكل ذلك لا بد منه من أجل تحقيق الغاية الأساسية من البعثات النبوية ﴿ليقوم الناس بالقسط﴾[1]/ فاربطها إن شئت بقوله ﷺ «يملأ الأرض قسطًا وعدلًا».

- «لله عاقبة الأمور» لعلها تشير إلى: (أولًا) حصول الأمر بعد مدة من عصر النزول (ثانيًا) ما سيحصل هو خالص لله تعالى بعد سيطرة «الهدى ودين الحق».

***

(١) الحديد:٢٥.

الجمع بين المهمة والنتيجة للجواب على الإشكال الرابع

نأتي الآن إلى السؤال الذي يجيب على الإشكال الرابع موضوع هذا القسم الأول:

هل يمكن أن يظن أحد من الناس - مجرد ظن - أن هذه المهمة الاستثنائية التي هي:

- وعد من الله تعالى، عليه حتمي التحقق.

- ستحقق ما لم يتحقق من قبل مطلقًا.

- دائرة تحركها هي العالم أجمع؟

إن القائد الذي سيضطلع ليس من الضروري أن يكون شخصًا استثنائيًا بجميع المقاييس:

(١) النفس - التي لا يتطرق إليها شيء من أمراض النفس البشرية وضعفها.

(٢) العقل - بقدرات وإمكانيات ذهنية تعينه على التخطيط الصحيح تمامًا والتنفيذ الصحيح تمامًا.

(٣) العلاقة بالله تعالى - أي التسديد الإلهي غير العادي (لأن المدد الإلهي موجود في حياة البشر جميعًا) وهو يصارع القوى المعادية من الكافرين والمشركين والظالمين والأشرار عمومًا؟

فإن كان هناك من يظن هذا، وهو موجود قطعًا، عندها يدور الأمر بين قضيتين:

(الأولى) أن يعيد النظر فيما قلناه أعلاه عسى أن يتعرف حقًّا على حجم المهمة الهائلة للمنتظر عليه السلام.

(الثانية) أن نحاول تناول الموضوع من زاوية التشخيص لهذا المنتظر عليه السلام وذلك من خلال الإجابة على الإشكالات الثلاثة الأولى، وذلك في الفصلين القادمين.

الفَصْلُ الثَّانِي

المهدي المنتظر في إطلالة قرآنية

٢- إشكالات المكان وصغر السن عند بدء الإمامة

عقيدة ولّدت إشكالات

التشخيص الشيعي للمهدي المنتظر عليه السلام ولد إشكالات أثارها المسلمون الذين لا يؤمنون بهذا التشخيص، ذكرت أنها أربعة إشكالات، تناولت في الفصل السابق الإشكال الرابع المتعلق بالحكمة من إناطة مهمة تحقيق دولة العدل الإلهي في العالم بشخص ولد منذ قرون، وليس تركها لمن يولد في الزمان الذي يأذن الله به، وخلصت إلى أن المهمة التي هي «ظهور الإسلام على الدين كله» كما وعد الله في كتابه العزيز لا يمكن تحقيقها إلا تحت قيادة تتمتع بمواصفات استثنائية في النفس والعقل والعلاقة بالله تعالى وهو ما نجده في الإمام الثاني عشر من أئمة أهل البيت عليهم السلام حصرًا، ولا يتحقق في غيره ممن يولد في زمان إقامة دولة العدل هذه.

وأما الإشكالات الثلاثة الأخرى فنتناول اثنين منها اليوم، وهما: مكان الغيبة، والإمامة المبكرة جدًّا؛ ليتبقى الإشكال الثالث: طول العمر غير المألوف في الفصل القادم.

***

الإشكال الأول: كيف يكون في السرداب ولا نراه؟ أين هو؟

أين هو الآن؟ قضية السِّرداب/ وهذا إشكال بسيط وجوابه بسيط - قضية سرداب سامراء، والذي صار قضية يشنع فيها على الشيعة، تدور حول سرداب بيت الإمامين العاشر والحادي عشر، الهادي والعسكري عليهما السلام، وهو نفسه البيت الذي ولد فيه المهدي عليه السلام، ولكن على العكس مما يظن أهل السنة فإن الإمام المهدي عليه السلام لم يغب في السرداب بل هرب من السرداب ومن البيت كله عندما جاءت شرطة الخليفة العباسي لتكبس البيت... فكيف يبقى في السرداب وقد جاءوا إلى هناك لإلقاء القبض عليه؟! نعم، لعل هذا الظن تولد مما يقوم به الشيعة عندما يزورون أئمة الهدى عليهم السلام في سامراء فينزلون إلى السرداب ويتضرعون إلى الله بتعجيل الفرج بظهوره. وردّ هذا الظن لا يحتاج إلى جهد لأن الشيعة يعتقدون أن ظهوره عليه السلام سيكون من المسجد الحرام في مكة المكرمة، فأين سرداب سامراء من هذا؟

إذًا، أين يعيش عليه السلام؟

الجواب المنطقي البسيط جدًّا أنه يعيش حيثما يشاء أو يشاء له ربه سبحانه وتعالى، وأرض الله واسعة وليس هناك مشكلة في ذلك كما هو واضح.

وقد روي في مكانه عليه السلام أمران:

الأول: أنه يعيش في المكان الذي يريده له الله تعالى، فإننا لا نظن

مجرد الظن أن أمر الإمام عليه السلام لا يكون بعين الله تعالى في كل لحظة.

قال عليه السلام: «نحن وإن كنا ثاوين بمكاننا النائي عن مساكن الظالمين حسب الذي أرانا الله تعالى من الصلاح ولشيعتنا المؤمنين في ذلك ما دامت دولة الدنيا للفاسقين...»[١].

الثاني: أن هناك مكانًا يتواجد فيه في وقت محدد من كل عام، وهو المسجد الحرام في موسم الحج، حيث يأتي عند البيت العتيق ليدعو ربه «اللهم أنجز لي ما وعدتني»[٢]. طبعًا، هذا لا يعني أنه في المسجد الحرام أو عند الكعبة المشرفة طيلة الموسم، ولكن أنه عليه السلام يأتي إلى هناك في ذلك الموسم.

***

الإشكال الثاني: كيف صار إمامًا وعمره خمسة أعوام؟

وهذا الإشكال أصعب من سابقه - نقطة صغر سنه عليه السلام يوم تولى الإمامة بعد وفاة أبيه عليه السلام، فهل يعقل أن يكون صبي غير مميز عمره خمس سنوات إمامًا على الخلق؟

الجواب يعيدنا إلى مسألتين:

الأولى: الإطار الإلهي للقضية، وبالتالي يجب أن لا تؤخذ حسبما اعتدنا نحن البشر.

---

(١) بحار الأنوار ج٥٣ ص١٧٥ رواية ٧.
(٢) الإمام المهدي من المهد إلى الظهور ج١ ص٢٣١ رواية ٩.

الثانية: التميز الكبير لهذا النفر الكريم من أهل بيت محمد صلى الله عليه وآله وسلم، وبالخصوص في دورهم الخطير والذي ينعكس قطعًا على حياتهم حسب الظروف بحيث تحصل لبعضهم أحوال ليست من المألوف.

واختصارًا نقول:

أولًا: لم يكن الإمام عليه السلام أول صغير سن من سلسلة الأئمة الاثني عشر عليهم السلام، فقد تولى جده علي الهادي عليه السلام الإمامة وهو في الثامنة، بعد وفاة أبيه محمد الجواد عليه السلام، والذي كان قد تولى الإمامة في الثامنة هو الآخر؛ فمن يؤمن بإمامة الاثني عشر من آل محمد صلى الله عليه وآله وسلم لا بد أن يؤمن بهذا التسلسل التاريخي، وسنوات وفاة الإمام الأب ثم ولادة الإمام الابن تعطي هذا السن الصغير.

ثانيًا: أن الشيعة لم يكونوا بهذا الجهل أو الغباء بحيث يتقبلون إمامًا عليهم في هذا العمر الصغير لولا تيقنهم من هويته، أولًا من خلال سلسلة الأئمة الاثني عشر العامة، ثانيًا من خلال تعريف أبيه الإمام بشكل يقطع بهويته، ثالثًا من قيام الحجة القاطعة على إمامته بعد توليها بعد وفاة أبيه.

ثالثًا: المسلمون عمومًا يؤمنون بأن بعض الأفراد وصلوا إلى مستويات علمية كبيرة تصل إلى حد الإعجاز وهم في طور الصغر (كالإمام الشافعي أو الشيخ عبد القادر الكيلاني)، مع أن هؤلاء لا نص عليهم من كتاب أو سنة.

رابعًا: ما شهدناه على أرض الواقع من النبوغ غير المعتاد لبعض

الأفراد، منهم العلامة والمرجع الشهيد السيد محمد باقر الصدر الذي لم يقلد أحدًا منذ سن البلوغ، ما يعني بلوغه مرتبة الاجتهاد قبل ذلك، أي في عمر الصبا. ومنهم من غير المسلمين الذين نبغوا بشكل عجيب، كالأخوين من كوريا الجنوبية يدرسان الفيزياء النووية في إحدى الجامعات الأمريكية (في الثمانينيات حسبما أتذكر)، أحدهما - وكان الأول على مرحلته - عمره ٧ سنوات والثاني عمره ٤ سنوات فقط، حتى أن الأستاذ كان يأتي بكرسي ليصعدا عليه من أجل الكتابة على اللوحة!

خامسًا: ما اتفق المسلمون على روايته عن النبي ﷺ أن الخلفاء أو الأمراء أو القيمين عددهم اثنا عشر، والذي يضع له نتيجة وهي «لا يزال الدين عزيزًا» وأمثالها، ما يدل على دورهم في حراسة العقيدة؛ وبما أنه لم تنجح طائفة من المسلمين في الإتيان بتشخيص لعدد الاثني عشر إلا الشيعة الاثنا عشرية فإن المنطق يقول: إنه من الواجب وضع ما يعتقدون به موضع البحث على أقل تقدير، وحتى ينجح أحد - ولن ينجح - في الإتيان بما يعارضه. هؤلاء بدأوا بعلي بن أبي طالب عليه السلام واستمروا حتى حادي عشر اسمه الحسن بن علي العسكري عليه السلام، فمن الثاني عشر؟ لا بد أنه ابنه عليه السلام، وفعلًا ولد له ابن سماه «محمدًا» لأنه سمي النبي ﷺ كما اختير ذلك له أصلًا. فمن لا يقبل بهذا فعلى الأقل يعطي نظرية مغايرة معقولة.

سادسًا: الأهم في الإطار السنني العام هو ما نص عليه القرآن الكريم من قيام بعض المستخلفين المعصومين بأعباء الخلافة في

عمر الصغر، وما ذكر منها في إيتاء يحيى عليه السلام الحكم صبيًّا:

﴿يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا﴾[١].

فإن قيل: إن يحيى عليه السلام كان نبيًّا فيجوز عليه ما لا يجوز على غيره، قلنا: إن هذا صحيح إذا قورن مع الشخص العادي، أما إذا كانت المقارنة مع شخص له دور مشابه لدور الأنبياء عليهم السلام عندها تصبح المقارنة جائزة. فكيف إذا كان هذا الدور المشابه أوسع، طولًا وعرضًا، فهو يمتد في النتائج المستهدفة من بعثات الأنبياء عليهم السلام إلى إقامة القسط في العالم أجمع، إلى المدى الأوسع والذي لم يتحقق من قبل، كما يمتد في المساحة الجغرافية لهذا الدور والنتائج المستهدفة إلى المدى الذي لم تصله أية نبوة سابقة وهو العالم بأسره؟

عندها، ليس فقط تصبح المقارنة جائزة، ولا مبررة، بل تصبح نتيجتها محتمة للقول بضرورة تمتع الشخص هذا بنفس المواصفات الضرورية لأداء هذا الدور التاريخي، بل الفريد في التاريخ.

المقابلات بين يحيى وعيسى عليهما السلام والجواد والمهدي عليهما السلام من القرآن

هنا أود الإشارة إلى بحث لسماحة العلامة الحجة «السيد سامي البدري» حفظه الله الذي يشير فيه إلى المقابلات بين قضية الإمامين الجواد والمهدي عليهما السلام ويحيى وعيسى عليهما السلام في سورة مريم، ما

---

(١) مريم: ١٢.

يمكن اعتباره نظرية تستفيد من حروف القرآن المقطعة عند تطبيقها على السنين والحوادث والأشخاص.

﴿بسم الله الرحمن الرحيم كهيعص * ذِكْرُ رَحْمَةِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا* إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاء خَفِيًّا* قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُن بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا * وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِن وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا* يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا* يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَل لَّهُ مِن قَبْلُ سَمِيًّا* قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا* قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا* قَالَ رَبِّ اجْعَل لِّي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا* فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا* يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا * وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَاةً وَكَانَ تَقِيًّا* وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا* وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا﴾(١).

ملخص ما قاله السيد البدري:

(١) ينطلق من التفاسير المطروحة لمعاني الحروف المقطعة أوائل السور القرآنية، والتي ربما وصلت إلى ٢٠ رأيًا أو أكثر.

(٢) أحدها من طرق أهل البيت عليهم السلام حيث يقول الإمام الصادق

---

(١) مريم:١-١٥.

عليه السلام: «إن في حروف القرآن المقطعة لعلمًا جمًّا» (كما ورد عن أبيه الباقر عليه السلام تفاصيل لبعضها، بحار الأنوار ج٨٩ ص٣٨٣ رواية ٢٣)، وذلك من خلال حساب الجمل للحروف المقطعة أوائل السور، وهو حساب معروف يعطي لكل واحد من الحروف العربية، الأبجدية (أبجد هوز) وليست الهجائية (ألف باء تاء ثاء)، قيمة عددية هي:

أ	ب	ج	د	هـ	و	ز	ح	ط	ي
١	٢	٣	٤	٥	٦	٧	٨	٩	١٠
ك	ل	م	ن	س	ع	ف	ص	ق	
٢٠	٣٠	٤٠	٥٠	٦٠	٧٠	٨٠	٩٠	١٠٠	
ر	ش	ت	ث	خ	ذ	ض	ظ	غ	
٢٠٠	٣٠٠	٤٠٠	٥٠٠	٦٠٠	٧٠٠	٨٠٠	٩٠٠	١٠٠٠	

(٣) حساب كهيعص يعطي قيمة عددية ١٩٥؛ فإذا احتسبنا هذه بالسنين الهجرية، تكون سنة ١٩٥ سنة ولادة الإمام محمد الجواد عليه السلام.

(٤) جاءت ولادته عليه السلام وعمر أبيه الرضا عليه السلام تجاوز الأربعين عامًا ما يعد متأخرًا جدًّا بحيث صار يقال: إنه عليه السلام كان عقيمًا/ وهذه مقابلة مع زكريا عليه السلام في الآيات المتقدمة (ينبغي الالتفات إلى أن البشارة بيحيى عليه السلام جاءت بعد أن بلغ زكريا عليه السلام «من الكبر عتيًّا» أي

بعد زمان من دعائه عليه السلام يوم «وهن العظم منه واشتعل الرأس شيبًا» ووهن العظم يبدأ من الكهولة الأولى).

(٥) توفي الرضا عليه السلام سنة ٢٠٣ وكان عمر الجواد عليه السلام ٨ سنوات، أي عمر الصبا/ وهذه مقابلة مع عمر يحيى عليه السلام في الآيات المتقدمة.

(٦) معنى «يحيى» أي «جون» هو الجواد أو الكريم/ وهو لقب أبي جعفر الجواد عليه السلام

Hebrew name (Yochanan) meaning 'YAHWEH' is gracious". This name owes its popularity to two New Testament characters... The first is John the Baptist,... who was considered the forerunner of Jesus Christ. The second is the apostle John...

Yahya (Arabic)(1)

(ترجمتها: الاسم العبري «يوخانان» يعني «يهوه» أي الجواد. هذا الاسم مدين في شعبيته إلى شخصين من العهد الجديد... الأول هو يوحنا المعمدان... والذي يعد السابق لعيسى المسيح. والثاني هو الحواري يوحنا).

(٧) بعد قصة زكريا ويحيى عليهما السلام جاءت قصة مريم والمسيح عليهما السلام، وأهم ما فيها من العجائب - غير ولادته من أم فقط - أنه عليه السلام

(1) http://www.behindthename.com/name/john

تكلم صبيًّا لحظة ولادته، فيدل أمه عليها السلام على ما تفعل في أن تحتها جدول ماء وأن لها في التمر غذاء.

(٨) ثم يتكلم صبيًّا ويعلن العبودية لله والنبوة ﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا * قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾[(١)]، وهذا يعني إيتاءه الكتاب صبيًّا هو الآخر، الأمر الذي نجده مرويًا عن كلام الإمام المهدي عليه السلام عند ولادته من رواية السيدة حكيمة بنت الجواد عليه السلام أي عمة العسكري عليه السلام أن العسكري عليه السلام قال له: «بني انطق بقدرة الله» فاستعاذ عليه السلام من الشيطان الرجيم، ثم قرأ: ﴿بسم الله الرحمن الرحيم... وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ﴾[(٢)] ثم صلى على رسول الله والأئمة الأحد عشر من آبائه عليهم السلام.

(٩) والمسلمون متفقون على أن المسيح عليه السلام في مكان ما عند المولى عز وجل ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَـكِن شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُواْ فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلاَّ اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا * بَل رَّفَعَهُ اللّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾[(٣)]، وهذه مقابلة مع ما لم يزل

(١) مريم: ٢٩-٣٠.
(٢) القصص: ٥.
(٣) النساء: ١٥٧-١٥٨.

يقولـه مـن لا يؤمنـون بـولادة المهـدي عليه السلام، فـإن عـدم ولادتـه أصـلًا تقابـل الزعـم أنـه قتـل كمـا زعمـوا فـي عيسـى عليه السلام، أي نفـي الحيـاة.

(١٠) بـل هنـاك أيضًـا اختـلاف بنـي إسـرائيل فـي أصـل ولادتـه عليه السلام بحيث آمن بها مـن صاروا النصارى وجحدها مـن بقـوا على اليهودية، كمـا أن المسـلمين بيـن مؤمـن بـولادة المهـدي عليه السلام، وهـم الشـيعة، ومكـذب بهـا.

(١١) ثـم هنـاك الاسـتفادة مـن قصـة يحيـى وعيسـى عليهما السلام معًـا، وذلـك أن يحيـى عليه السلام مهـد فـي نبوتـه المبكـرة لعيسـى عليه السلام، كمـا مهـد الجـواد عليه السلام فـي إمامتـه المبكـرة (ومـن بعـده ولـده الهـادي عليه السلام الـذي بـدأت إمامتـه مبكـرًا بعمـر ثمانـي سـنوات أيضًـا) لحفيـده المهـدي عليه السلام.

(١٢) وتسـتمر الاتفاقـات فـي أن المسـيح عليه السلام سـيعود إلـى الأرض فـي زمـان المهـدي عليه السلام، ليـس اعتمـادًا فقـط علـى الروايـات المتفـق عليهـا بيـن المسـلمين، ولكـن علـى مـا نـص عليـه القـرآن ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾[١]، أي جميع أهـل الكتـاب سـيؤمنون بـه «وإن مـن... إلا» (وهـو حصـر لغـوي) و «قبـل موتـه» أي المـوت الحقيقـي الـذي لا يمكـن أن يحصـل إلا بعـد عودتـه إلـى الدنيـا وموتـه الموتـة الطبيعيـة/ وهـذه مقابلـة ومـا هـو مـروي عـن نزولـه عليه السلام مـن مكانـه الحالـي فـي زمـان ظهـور المهـدي عليه السلام.

(١٣) ثـم هنـاك أن مريـم عليها السلام مـن ذريـة إسـحاق عليه السلام وفاطمـة عليها السلام

---

(١) النساء:١٥٩.

من ذرية إسماعيل، وقد اتفق المسلمون جميعًا على أن «المهدي من ولد فاطمة»[(١)]، أي يقابل أن المسيح عليه السلام من مريم عليها السلام؛ ولكن...

(١٤) مع فارق غاية في الأهمية بخصوص الدور المهدوي والدور العيسوي: إن أساس فاطمة عليها السلام هو إسماعيل عليه السلام في حين أن أساس مريم عليها السلام هو إسحق عليه السلام، وإسماعيل عليه السلام هو الخط الأصلي الذي ولد أولًا، في حين أن إسحق عليه السلام قد أضاف له يعقوب لقوله تعالى ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ﴾[(٢)] أي «وهبنا لإبراهيم عليه السلام إسحق ويعقوب عليهما السلام إضافة» فكأن إسماعيل عليه السلام الفرض.

(١٥) لهذا، وغيره، ليس عجيبًا أنه عندما تقام الصلاة بعد انتصار الإمام المهدي عليه السلام فإنه هو الذي يتقدم للإمامة فيصلي عيسى عليه السلام خلفه كما روى المسلمون جميعهم.

(١٦) أخيرًا، نستفيد من عدد ١٩٥ ليس للسنة الهجرية ذاتها، ولكن أيضًا كعدد مضاف إلى سنة مفصلية تؤدي إلى سنة مفصلية في حياة المهدي عليه السلام، وذلك أننا:

إذا أضفنا ١٩٥ + ٦٠ سنة وهي سنة بدء حركة الإمام الحسين عليه السلام، النتيجة هي ٢٥٥ سنة ولادة الإمام المهدي عليه السلام؛ وبما أن الحسين عليه السلام يمثل القمة في قضية الظلم الذي وقع في الدنيا،

(١) البخاري في تاريخ ج٨ ص٤٠٦، ابن ماجة كتاب الفتن باب خروج المهدي رواية ٤٠٧٦، وسنن أبي داوود ج٢ رواية ٣٧٣٤ بزيارة «من عترتي» وغيرهم.
(٢) الأنبياء: ٧٢.

لأن الناس قتلوه بالطريقة الفظيعة المعروفة ولم تمض إلا خمسون سنة على وفاة جده المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم صاحب الرسالة التي قتلوه عليه السلام باسمها، وحركة المهدي عليه السلام تمثل القمة في قضية إشاعة العدل في الدنيا، مع البعد الخاص في أنه عليه السلام حفيد الحسين عليه السلام.

الفَصْلُ الثَّالِثُ

المهدي المنتظر في إطلالة قرآنية

٣- إشكال طول العمر

إشكال طول العمر

بعد تناول الإشكالات الأخرى، يتبقى الإشكال الثالث: طول العمر غير المألوف، أتناوله في هذا الفصل.

الإشكال الثالث: هل من المعقول أن يعيش طيلة هذه المدة؟

وهذا هو الإشكال الأكثر صعوبة من غيره، فإن الولادة في القرن الثالث الهجري ولدت مشكلة طول العمر غير المألوف.

الجواب عنه كالآتي...

أولًا: العمر ليس محددًا بالأساس إذ ليس هناك ما يثبت علميًّا أن البشر لا يمكن أن يعيشوا قرونًا من الزمان (الأبحاث العلمية اليوم تؤيد ذلك، أن معدل عمر الإنسان يكون ١٢٠ ويزيد، أتذكر عالمًا روسيًا ذكر ٤٠٠ سنة، وبعضهم من علماء اليوم يذهب إلى ١٠٠٠ سنة حتى)، وهم يستطيعون قول ذلك خصوصًا وأن الدليل قائم على أن عمر الإنسان يطول، ربما تضاعف معدل العمر في القرنين الماضيين، وذلك بملاحظة أمرين:

١ - أن «الموت» سر من أسرار الله تعالى، فإن اللحظة الفاصلة بين الحياة والموت لا تفصل بين الجسد في حالة معينة والجسد

في حالة أخرى تختلف ولو قليلًا، بل الجسد هو الجسد، حتى مع المرض الشديد، لهذا نجد الذين يسقطون في الغيبوبة يمكن أن تطول معهم سنين، وذلك لأن المعول هو على «الروح»، والتي هي من نفخة الله تعالى وهذا سر الله حصرًا؛ وعليه فنهاية الحياة هي بخروج الروح بعد استيفاء المدة التي كتبها الله للإنسان.

٢ - أن الإمام عليه السلام يعلمه الله تعالى أفضل ما يمكن من رعاية الجسد، من خلال الطعام والشراب وظروف المعيشة كلها؛ إضافة إلى البعد النفسي؛ وهذا يحقق ما يقول عنه العلماء المار ذكرهم أعلاه.

ثانيًا: يؤمن المسلمون بأن أفرادًا معينيين عاشوا أعمارًا طويلة بعضها يصل إلى الآلاف من السنين، وبعضها ممتد إلى الآن، وهذا على اختلاف في السعة والضيق والالتفات أو عدم الالتفات:

١ - أهمها طول عمر نوح عليه السلام الذي بقي يدعو قومه قبل الطوفان ٩٥٠ سنة ثم استمر بعده (حتى ٢٤٠٠ سنة على بعض الروايات).

٢- المسيح عليه السلام رفع وما يزال حيًّا وسيبقى حيًّا حتى نزوله إلى الأرض في آخر الزمان، أي عمره اليوم أكثر من ٢٠٠٠ سنة (في الفصل السابق ذكرت كيف نثبت من القرآن أنه عليه السلام لا يزال حيًّا، ليس فقط من قوله تعالى ﴿بَل رَّفَعَهُ اللهُ إِلَيْهِ﴾[1]، ولكن

---

(١) النساء: ١٥٨.

أيضًا من ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ﴾[١] الأمر الذي لم يتحقق لحد الآن لأن أهل الكتاب تشمل اليهود أيضًا وهم لم يؤمنوا بالمسيح عليه السلام لحد الآن).

٣- والكثيرون منهم يؤمنون بأن «الخضر» هو العبد الصالح في قصة موسى عليه السلام، وعليه فعمره اليوم أكثر من ٥٠٠٠ سنة (بل روي أنه ابن عم جد إبراهيم عليه السلام، بل وحتى ابن آدم مباشرة، فيكون عمره أطول بكثير). ولمن يشنع على الشيعة إيمانهم بطول عمر المنتظر عليه السلام، نورد له قول الإمام النووي - إمام الحديث عند أهل السنة - الذي قال في شرحه لصحيح مسلم ما نصه: «جُمْهُور الْعُلَمَاء عَلَى أَنَّهُ حَيّ مَوْجُودٌ بَيْن أَظْهُرنَا، وَذَلِكَ مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ عِنْد الصُّوفِيَّة، وَأَهْل الصَّلَاح وَالْمَعْرِفَة، وَحِكَايَاتهمْ فِي رُؤْيَته وَالِاجْتِمَاع بِهِ وَالْأَخْذ عَنْهُ وَسُؤَاله وَجَوَابه وَوُجُوده فِي الْمَوَاضِع الشَّرِيفَة وَمَوَاطِن الْخَيْر أَكْثَر مِنْ أَنْ يُحْصَر، وَأَشْهَر مِنْ أَنْ يُسْتَر. قَالَ الشَّيْخ أَبُو عَمْرو بْن الصَّلَاح: هُوَ حَيّ عِنْد جَمَاهِير الْعُلَمَاء وَالصَّالِحِينَ. وَالْعَامَّة مَعَهُمْ فِي ذَلِكَ».

٤- بعضهم يقول: إن إدريس عليه السلام لا يزال حيًّا اعتمادًا على قوله تعالى ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا. وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾[٢]، إضافة إلى بعض المرويات، وإن نسب بعضها إلى الإسرائيليات، لكن العلماء ما بين من يقول أن «الرفع» هو رفع

---

(١) النساء:١٥٩.
(٢) مريم:٥٦-٥٧.

المنزلة ومن يقول أنه الرفع عند الله مثل عيسى عليه السلام أي أنه لا يزال حيًّا.

٥- وأن آدم عليه السلام عاش قرونًا متطاولة.

٦- وأن بعض الصحابة، مثلًا سلمان الفارسي (رض) عاش مئات السنين.

٧- ولكنهم لا يجدون مشكلة في هذا لأنهم تربوا ونشأوا عليه فلا يوجد حاجز نفسي يصدهم عن الإيمان به، ولكنهم يجدون صعوبة في تقبل طول عمر محمد بن الحسن عليه السلام لأنهم لم ينشأوا على ذلك، بدليل أن أهالي سامراء لا يجدون مشكلة في قضية الإمام الثاني عشر عليه السلام هذا لأنهم نشأوا عليه، نفس الشيء لمن نشأ على وجود الخضر حيًّا كما في بغداد وغيرها.

٨- ومع الأسف أن البعض على الرغم من التزامه بالروايات التي تقول بمثل هذه الأعمار -وبعضها عجيبة تشابه الأساطير- فإنه عندما يأتي إلى المهدي عليه السلام ليس فقط يرفضها ولكن يبدأ بالتهويل والتسخيف، مع أن طول العمر هنا مثله هناك.

خلاصة ما تقدم أعلاه:

أ- ليس هناك دليل فسيولوجي يمنع طول العمر عن المألوف؛ كما أن الموت هو السر وهو بيد الله تعالى؛ والله تعالى يعلم الإمام عليه السلام المنهاج الأقوم في المعيشة لإدامة الحياة.

ب- المسلمون جميعًا يؤمنون بأن بعض الأفراد عاشوا حتى آلاف السنين.

ثالثًا: ما الحكمة من ذكر طول عمر نوح عليه السلام؟

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾[1].

قال المفسرون ما محصله أن الكلام موجه إلى:

أولًا: النبي صلى الله عليه وآله وسلم لما ضاق صدره من إصرار الكفار على الكفر فإن الله تعالى يقول له: إن نوحًا عليه السلام بقي يدعو قومه ما يقرب من ألف سنة وبقي صابرًا ولم يضجر، فأنت أولى بالصبر لأنه لم يمض على دعوتك سوى بضع سنوات كما أن عدد أمتك أكبر.

ثانيًا: الكفار، أن لا تغتروا بعدم نزول العذاب عليكم فإنه آتيكم.

هنا نقطتان من دقائق القرآن:

١- قال «سنة» في «ألف سنة» ثم قال «عام» في «خمسين عامًا»، بينما كان يمكن أن يستخدم واحدًا منهما في العددين؟

ذهب بعضهم إلى أن تكرير اللفظ ضعيف بلاغيًّا إلا إذا كان لغرض مطلوب.

وذهب آخرون إلى أن «السنة» تطلق عادة على سنوات التعب

(١) العنكبوت: ١٤.

والقحط في حين أن «العام» على الرخاء - مثلما جرى مع يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ من السنوات العجاف التي أعقبها ﴿عام فيه يغاث الناس وفيه يعصرون﴾[١]، فكأن نوحًا عَلَيْهِ السَّلَامُ بقي «ما يقرب من ألف سنة» من التعب الشديد نتيجة عناد قومه ثم جاء بعدها زمن الراحة بعد الطوفان فقال «إلا خمسين عامًا».

٢- قال «ألف سنة إلا خمسين عامًا» ولم يقل «تسعمائة وخمسين عامًا»، فإن القرآن استخدم المئات ﴿ولبثوا في كهفهم ثلاثمائةٍ سنينَ وازدادوا تسعًا﴾[٢]، لأنه -كما ذكروا- يؤكد المدة ٩٥٠ تمامًا، فإنه لو قال الثاني فلربما يظن أنه على التقريب، ولكن عند الاستثناء فإنه يدل على التحقيق لأن هناك تفصيلًا للأمر.

** هذه النقطة الثانية محل الاهتمام في موضوعنا - نقطة استخدام لفظة «ألف» في الوقت الذي كان يمكن الاستغناء عنها لأن المدة كانت أقل من ألف، وعنها أقول:

- كلامهم عن التقريب والتحقيق ممكن ولكنه ليس قويًا، لأن الله تعالى لو شاء التأكيد على التحقيق لاستخدم طريقة قصة أهل الكهف دون الحاجة إلى الذهاب إلى عدد أكبر - وهو «ألف» - ثم إرجاعه إلى العدد الحقيقي باستثناء «خمسين».

- يمكن القول: إن ذكر لفظة «ألف» تناسب أكثر ما ذكروه

(١) يوسف: ٤٩.
(٢) الكهف: ٢٥.

من تفسيرهم أن المقصود الأول هو رسول الله ﷺ كي يصبر على عناد قومه بأن ينظر إلى المدة الطويلة جدًّا لدعوة نوح عليه السلام وهي «ألف سنة» إلا قليلًا، أي يضع نصب عينيه هذه المدة الطويلة جدًّا؛ ولكن هذا ضعيف هو الآخر، لأمور:

الأول: أن مدة الدعوة المحمدية نسبتها إلى «الألف» هي نفسها تقريبًا نسبتها إلى «تسعمائة وخمسين»، أي قصيرة جدًّا، فلا يحتاج القرآن إلى الذهاب إلى ما هو «أعلى» مع الاستثناء.

الثاني: أن رسول الله ﷺ لم يضجر من عناد الكفار وكأنه ضاق ذرعًا بالأمر ولم يعد يستطيع المواصلة، ولكنه شكى ربه من محدودية إمكانياته التي بين يديه «اللهم إني أشكو إليك ضعف قوتي وقلة حيلتي وهواني على الناس يا أرحم الراحمين» وظروفه الصعبة معهم «إلى من تكلني؟ إلى بعيد يتجهمني أو قريب/ عدو ملكته أمري»[(١)]، وأيضًا استخدامهم الوسائل القذرة في محاربته في اتهامه بالكذب والجنون والسحر والشعر فكان ذلك يؤذيه ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ﴾[(٢)]، أو حتى تكذيبه بحيث أن ربه يسليه بأن التكذيب له سبحانه ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لاَ يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللّهِ يَجْحَدُونَ﴾[(٣)].

---

(١) سيرة ابن هشام ج١ ص٤٢٠.
(٢) الحجر: ٩٧.
(٣) الأنعام: ٣٣.

الثالث: أن الكفار من قوم نوح عليه السلام لم يكونوا هم أنفسهم طيلة هذه المدة الطويلة، فإنهم كانوا أجيالًا كثيرة، ونوح عليه السلام هو الوحيد الذي عاش تلك المدة الطويلة، وعليه فكان ينتظر من نوح عليه السلام الصبر مع كل جيل بنفس الدرجة، أي يستأنف الصبر مع كل جيل - على شدة هذا دون شك في ذلك ولا تقليل من طول صبره عليه السلام.

الرابع: أننا نجد أن نوحًا عليه السلام وصل إلى القناعة بامتناع هؤلاء عن الإيمان فدعا عليهم ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا * إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾[١] أي الأجيال القادمة ستكون من الفجار الكفار، في حين أننا لا نجد في القرآن ولا في النصوص الحديثية أو التاريخية ما يقول: إن النبي صلى الله عليه وآله وسلم وصل إلى هذه المرحلة، بل روي أنه هو في حال الجراحات التي تعرض إليها في أحد، والمسلمون منهزمون، وقد نودي أنه مات، كان يقول «اللهم اهدِ قومي فإنهم لا يعلمون»[٢] و«اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون»[٣].

**وعليه، فإن ما أجده قويًّا هو أن لفظة «ألف» مقصودة للأمرين:

---

(١) نوح: ٢٦-٢٧.

(٢) سنن البيهقي شعب الإيمان.

(٣) البخاري رواية ٣٤٧٧، ومسلم رواية ١٧٩٢.

(١) مدة الدعوة.

(٢) العمر ذاته.

وأن «قصد العمر في الألف» يعطي قضيتين:

الأولى: إمكانية العمر المديد لأي إنسان يشاء الله له ذلك.

الثانية: أن انتظار ظهور الحق على الباطل يمكن أن يستمر في حياة شخص واحد، وإلا لأمات الله نوحًا عليه السلام ثم بعث نبيًّا آخر فآخر وهكذا حتى يؤمنوا أو لا يؤمنوا ويحصل الطوفان.

وإلا: ما الذي يعنينا في مدة بقاء دعوة نوح عليه السلام ٩٥٠ أو ٦٠٠ أو غيرها؟ ما الفائدة التي نجنيها نحن من ذلك؟

(خلاصة ما تقدم أعلاه:

أنه بغض النظر عما قاله البعض في الحكمة من ذكر مدة الدعوة الطويلة لنوح عليه السلام في زمان النزول، فإن الآية تقول: (١) إن عمر الإنسان - أي إنسان - يمكن أن يمتد لألف وأكثر (٢) إن مدة الدعوة إلى الحق يمكن أن تستمر في عمر إنسان واحد مهما طالت).

الخلاصة مما يستفاد من النبوة المبكرة ليحيى عليه السلام والعمر المديد لنوح عليه السلام

لماذا يذكر القرآن هذا؟ عندنا المعطيات التالية:

١- ما قصه القرآن هو بعض الرسل والأنبياء عليهم السلام فحسب ﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ﴾[(١)]، وعليه فمن الممكن أن أنبياء آخرين عاشوا زمانًا طويلًا.

٢- أن ذكر نوح عليه السلام مقصود لذاته في جميع تفاصيله، أي في الطوفان وغيره فلا نستطيع استثناء أي تفصيل ومنه طول العمر.

٣- لا بد أن يكون هناك فائدة من كل كلمة قرآنية.

٤- لا بد أن تبقى هذه الفائدة قابلة للعطاء بعد زمان النزول، حسب الظروف الموازية.

٥- كلما كان الأمر أهم كلما كان النظر التدبري للاستفادة من آيات الكتاب مطلوبًا أكثر.

وعليه، فلا بد أن:

- يكون هناك تأسيس لقبول حالة العهد الإلهي لإنسان ما يؤدي مهمة استثنائية وهو في عمر الصبا.

- يكون هناك تأسيس لقبول حالة العمر المديد غير المألوف

---

(١) النساء: ١٦٤.

لإنسان ما يؤدي مهمة استثنائية طالما تطلبت الدعوة هذا.

فإذا كانت (أ) النبوة المحمدية هي الخاتمة، و(ب) القرآن هو الكتاب الخاتم المهيمن على ما سبقه، فلا بد أن يكون هذا التأسيس المشار إليه أعلاه – العهد في الصبا والعمر المديد جدًّا – للاستفادة منه في مرحلة ما بعد زمان التنزيل، أي بعد العهد النبوي. وهذا ما نجده مجتمعًا في شخصية محمد بن الحسن عليه السلام الذي نعتقد بإمامته وولايته على الناس.

نقطة الخلاف الأهم في موضوع المهدي عليه السلام

المسلمون السنة يؤمنون بأن المهدي المنتظر هو رجل يولد في زمان ظهوره ثم يظهر بعد ذلك، أي بالطريقة المعتادة المتوقعة، في حين أن الشيعة يؤمنون بأنه وُلِدَ للإمام الحادي عشر الحسن العسكري عليه السلام وعليه يكون هو الإمام الثاني عشر، تمام عدة الأئمة أو الخلفاء أو الأمراء الذين صرحت بهم الأحاديث النبوية في كتب الفريقين.

وهذه النقطة بالذات، الاثنا عشر إمامًا، هي التي لا حل لها إلا بالقول بإمامة أئمة أهل البيت الاثني عشر عليهم السلام من جهة، والقول بإمامة محمد بن الحسن العسكري عليه السلام من جهة أخرى. فإنه لم تستطع مدرسة أهل السنة، ولم يستطع عالم أو باحث أو محدث منها، تسمية اثني عشر رجلًا يمكن تطبيق أحاديث النبي صلى الله عليه وآله وسلم

عليهم إلى درجة أن البعض تخبط فيها بشكل يدعو للرثاء حقًّا.

بعيدًا عن هؤلاء المتخبطين، فإنه طالما اتفق الجميع على أن هناك رجلًا يسمى الحسن بن علي العسكري عليه السلام وأنه كان من البارزين في العلم والفضل، وأنه هو الحادي عشر في تلك السلسلة المباركة التي بدأت بعلي بن أبي طالب عليه السلام، وطالما أن هناك من المسلمين طائفة تقول بإمامة هؤلاء الأحد عشر جميعًا، فلا يبقى إلا الثاني عشر لإتمام السلسلة المباركة، وهذا لا يوجد له حل إلا إمامة المهدي محمد بن الحسن عليه السلام - سواء كان صغيرًا، طويل العمر إلى درجة غير مألوفة، غائبًا عن الأنظار، أو أي شيء آخر، فإن حديث النبي صلى الله عليه وآله وسلم يبقى نصًّا لا يمكن التلاعب فيه، فآمنا به والحمد لله رب العالمين.

***

الحجج القرآنية في كلمة واحدة

إذا جمعنا:

ضرورة العصمة والتسديد الإلهي التام لتحقيق الوعد الحتمي لظهور الإسلام على الدين كله.

- وجوب طاعة أولي الأمر، عمومًا وتحديدًا الرسول صلى الله عليه وآله وسلم واجب الطاعة.

◆ وجـوب التصديـق برسـول اللـه ﷺ فيمـا أخبرنـا بـه مـن الأئمـة عـددًا وتشـخيصًا.

◆ إمكانية حصـول مـا نعـده مـن غير المألـوف في الثانـي عشـر مـن الأئمـة المشـخصين.

◆ عدم وجود أي تشخيص آخر يعارض هذا التشخيص.

عندهـا تصبـح العقيـدة الإماميـة الاثنـا عشـرية هـي الوحيـدة التـي تقـدم الأطروحـة المتوافقـة مع القـرآن بخصـوص المهـدي المنتظـر عليه السلام.

***

العقائد والعامل النفسي

المهدي المنتظر عند أهالي سامراء – العراق

إننا نجد عند أهالي سامراء في العراق الاعتقاد بمهدوية الإمام محمد بن الحسن العسكري عليه السلام، مع أنهم فقهيًّا شافعيو المذهب وأصولًا على مذهب الأشعري كما هو حال أهل السنة، وفي هذا أكبر دليل على قوة العامل النفسي في العقائد، فإنهم لم يهتموا بالمناقشة العقلية التي لأهل السنة ضد عقيدة المهدي بن الحسن العسكري عليه السلام عند الشيعة بل ذهبوا مع ما دلتهم عليه قلوبهم في الارتباط الروحي مع أهل البيت عليهم السلام، ولا سيما الإمام العاشر علي الهادي عليه السلام الذي له عندهم مكانة لا تعلو عليها سوى مكانة النبي ﷺ. فهذه قبة المهدي يصلون تحتها، وهذا سرداب

بيت الإمام عليه السلام يقومون برعايته وخدمة زائريه. ولهم في الإمام المنتظر عليه السلام ذكر في شعرهم ومؤلفاتهم وأفكارهم.

ويبدو أن هذه المسألة تجد طريقها إلى من توجه بالإخلاص والرغبة فيما عند الله وحده لا شريك له، فقد كانت أمي رحمها الله - السنية على مذهب أبي حنيفة - شديدة الاعتقاد بالإمام المهدي، «صاحب الزمان»، تذهب من بغداد إلى سامراء لزيارة جده وأبيه عليهما السلام، وتنزل إلى السرداب لتدعو من هناك (منذ زمان سادن السرداب المرحوم السيد مصطفى النقيب والد المرحوم اللواء حسن النقيب زوج ابنة عمي الكبرى، وما بعده).

❊❊❊

نقطة إلفات إلى حال المسلمين اليوم وآيات سورة المائدة ٥٤-٥٧:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَلاَ يَخَافُونَ لَوْمَةَ لآئِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ❊ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ ❊ وَمَن يَتَوَلَّ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ فَإِنَّ حِزْبَ اللّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ ❊ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ الَّذِينَ اتَّخَذُواْ دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ أَوْلِيَاءَ وَاتَّقُواْ اللّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾.

وقد ورد أن الآية الأولى تتعلق بالنهضة المهدوية على اعتبار:

- الارتداد الفكري والسلوكي للمسلمين.

- أيضًا بلحاظ صفة هؤلاء الذين وقع عليهم الاستبدال «يحبهم ويحبونه» وهي صفة عالية جدًّا اتفق على أنها أطلقت على علي عليه السلام فتأمل عظمتها.

- وأنهم «أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين» أي العكس تمامًا من حالة الساقطين أمام الأعداء، اليوم وقبل اليوم.

- وأنهم «لا يخافون لومة لائم».

- وأن هذا «فضل الله يؤتيه من يشاء».

أما الآية الأخيرة فهي ترسم صورة المنهي عنه في العلاقة مع الآخرين ذوي المواقف المعادية، والتي هي على العكس تمامًا من الحلف مع أعداء الأمة من الصهاينة وغيرهم.

البَابُ الثَّامِنُ

تطبيقات في مناقشة آيات الثناء على صحابة النبي ﷺ

تقديم

هذا الباب يتضمن اثني عشر فصلًا قصيرًا تتناول الموضوع الشائك: صحابة النبي ﷺ؛ الموضوع الذي لم يزل يثير النقاش والجدال والاختلاف والخلاف والتشنج والبغضاء، بل ولا يكتفي بهذا ولكني يتعداه إلى التفسيق والتضليل والتكفير الصريح.

ولو كانت القضية داخل الناس غير المتخصصين فيمكن أن نفهمها، لأن الأمور المتعلقة بالرموز والمقدسات دائمًا ما تزلزل العقل وتجعل العاطفة هي المتحكمة (وهي متحكمة أصلًا في معظم الأمور فما بالك في هذه!)، ولكن القضية انطلقت أصلًا من «العلماء» (بغض النظر عن استحقاق بعضهم لهذا اللقب أم لا) منذ القرن الأول، واستمرت مع العلماء وطلبة العلم في كل مكان، وأنزلت بكل تأكيد إلى عامة الناس، وبشكل ترسّخ واستطال بحيث لا يكاد المرء يذكر أهل البيت عليهم السلام إلا وسئل: ماذا تقول في الصحابة، أو الصحابي الفلاني؟ أو بمجرد أن يطعن في موقف أحد الصحابة في قضية ما إلا وقيل له: أنت شيعي، أنت رافضي! وعلى العكس، إذا ما ذُكر في ملأ من أتباع أهل البيت عليهم السلام موقف كريم لأحد الصحابة فإن عيونهم تدور لأنهم لا يتوقعون من هذا الصحابي - مع أنه ليس

من المشهورين ولا من المعروفين في مناوأتهم للعترة الطاهرة - أي خير!

إن قضية صحابة النبي صلى الله عليه وآله وسلم فيها أمور عديدة، ولكن أهمها - حسب نظري - أمران:

الأول: من أين جاءت؟

الثاني: أثرها على الدين كله - وأوله فهم القرآن الكريم.

أما الأول، فإنني أتصور أنه لما أدار الحكام الأولون - وهم من أكابر الصحابة - ظهورهم لموقعية أهل البيت عليهم السلام، والتي لا نجد شيئًا - بعد التوحيد والنبوة والمعاد - أكثر منها انتشارًا ووضوحًا في القرآن والسنة النبوية، فإن من جاء من بعدهم ممن صاروا حكامًا ومن أكثرية من صاروا علماء تحت ظل أولئك الحكام احتاجوا إلى البديل لأهل البيت عليهم السلام الذين أمر القرآن العظيم والسنة النبوية باتباعهم في الدين، فكان البديل الأفضل، بل الذي لا يوجد غيره، هم الصحابة. شيئًا فشيئًا، صار فعل الصحابي كائنًا من كان حجة على المسلمين جميعًا عبر العصور، والمستند في هذا هو أن ذلك الصحابي عدل ثقة من المستحيل أن يكذب على النبي صلى الله عليه وآله وسلم ولا يزور ولا يلفق ولا يدلس ولا حتى ينسى أو يسهو، في حالة من القول بالعصمة دون الاعتراف بها، حالة فريدة في الأمم لأنها لم تشمل فقط من عاش مع النبي صلى الله عليه وآله وسلم زمانًا، ولو أسابيع، فنقل عنه بعد المعايشة والتأثر بخلقه وهديه وطريقته، ولكنها شملت «كل من رأى

النبي وسمع حديثه» بنص عبارتهم في التعريف بالصحابي، ما يعني أن الرجل يمكن أن يقف من بعيد وهو يرى النبي صلى الله عليه وآله وسلم يتكلم فسمع منه حديثًا من بعض كلمات وإذا به يتحول إلى شيء جديد غير معروف في الأمم كلها! حالة جعلت من عشرات الألوف، بل مئات الألوف، والغالبية الساحقة منهم لا نعرف حتى أسماءهم، جعلتهم كالملائكة في تعاملهم مع الشريعة من قرآن وسنة!

وأما الثاني، فإن الأثر الواضح هو من اختلاط الأحاديث الصحيحة بغيرها، من مبتورة وناقصة ومزيدة ومنقحة وموضوعة بالكامل، من فعل النقص البشري المعتاد (من نسيان واختلاط وغيرهما) كما في فعل النقص البشري عندما يصطف هذا الصحابي أو ذاك إلى هذا الحزب أو ذاك من الأحزاب المتصارعة في الماضي، ولا سيما في القرنين الأول والثاني من الهجرة. زد على ذلك أن أهل البيت عليهم السلام ضربت موقعيتهم ضربتين مفصليتين: الأولى عندما منعتهم من بسط اليد وبالتالي من نشر علوم الإسلام كما نزلت على سيد المرسلين صلى الله عليه وآله وسلم، والثانية - كونهم غير مبسوطي اليد في الحكم - لم يستطيعوا منع الكذب حتى عليهم من الذين يستمعون إليهم، وهم ما بين عدو مستتر أو ولي ضعيف العلم أو ضعيف القابليات الذهنية والنفسية أو منحرف بان انحرافه أو خفي؛ فإذا كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم وهو المؤيد بالوحي، المبسوط اليد، وقف خطيبًا يشكو من كثرة الكذب عليه، فما بالك بعترته الهادية عليهم السلام وما جرى عليهم من بعده؟

وهكذا، صار موضوع الصحابة من أشد المواضيع بحثًا

وخصومةً في المسلمين. والخصومة والخلاف يؤديان إلى البعد عن النظرة المحايدة المنصفة، فصار المسلمون فريقين: فريق يبالغ في الثناء على الصحابة فيُفرِط فيهم، وفريق يبالغ في الطعن على الصحابة فيُفَرِّط فيهم! فتجد الفريق الأول يهمل جميع آيات الطعن على الصحابة في القرآن الكريم ويلهج ليل نهار بآيات الثناء - حتى التي فيها من الذم ما فيها أو فيها من التدقيق الواجب ما فيها (وهو موضوع هذا الباب) - في حالة إفراط غير منطقية أبدًا، بينما تجد الفريق الثاني على العكس من ذلك وفي حالة تفريط كبيرة بحيث أن العامة فيه لا يكاد أحدهم يعرف أسماء عشرة من الصحابة.

الآيات العشر التالية غالبًا ما تطرح في النقاش، وقد طرحت عليّ بالفعل من إحدى الأخوات الفضليات في مجموعة حوارية، تستند إليها في تعديل الصحابة جميعًا أو الجم الغفير منهم حسب سياق الآيات، وطلبت الموقف منها، فكان النقاش من جانبي على طريقتي بتدبر القرآن - مفردات الآيات، السياق، العرض على آيات أخرى، العرض على الروايات، العرض على التاريخ.

أما التدبر القرآني للآيات، فإنه يتأطر بإطار الموقف الشخصي الذي يلحظ آيات القرآن على تنوعها في الموضوع، ويتجنب التكلف من أجل إعلاء شأن هذا أو تسقيط ذاك، ويتجنب السقوط لا في الإفراط ولا في التفريط اللذين إنما كانا نتيجة الصراع السياسي ثم العقائدي والفقهي.

وبالتالي، فإن هناك من الثناء على الصحابة ما يجب القبول به، بل والفرح به، والاستفادة منه كما يستفاد من دروس آيات الذم، لأن المواقف المتباينة كل منها يعطي وينفع.

جعلت كل آية في فصل صغير منفصل من أجل سهولة التناول، وصدرتها بفصل عن مفهوم الصحبة، وختمتها بفصل عن عقدة الصحابة التي ذكرتها أعلاه[1].

---

(١) قد كتبت كتابًا صغيرًا، مطبوع منشور، بعنوان «عقدة الصحابة: إفراط وتفريط».

الفَصْلُ الأَوَّلُ

آيات الثناء على صحابة النبي صلى الله عليه وآله وسلم

مقدمة

السؤال: بعض آيات القرآن الكريم بحق من عاشوا مع الرسول صلى الله عليه وآله وسلم...

***

أعجبني وصف الصحابة بكلمة «من عاشوا مع الرسول صلى الله عليه وآله وسلم»، وذلك لأن مصطلح «الصحابة» تحول إلى غير حقيقته الأصلية في اللغة والعُرف.

القرآن لم يستخدم كلمة «صحابة» لوصف الذين «عاشوا مع الرسول صلى الله عليه وآله وسلم»، بل كان الوصف أهم بكثير، فقد جاء من خلال معيارين:

الأول: الهجرة والنصرة، فقد كان هناك مهاجرون من مكة (وقليل من غيرها) وهناك من نصروا النبي بفتح مدينتهم يثرب للرسول صلى الله عليه وآله وسلم والرسالة والأتباع وهم الأوس والخزرج.

الثاني: العلاقة بالرسالة ذاتها من حيث الإيمان بها، فهناك المؤمنون والمنافقون والذين في قلوبهم مرض والذين في قلوبهم زيغ وغيرها ومن ضمنهم الذين كفروا بعد الإيمان.

أما «صحابة» فقد أطلقها النبي ﷺ، كما وردت في الروايات بألفاظ متعددة منها «أصحابي» أو «أُصيحابي»، واستخدمت من بعد ذلك بالتعريف التالي:

الصحابي هو كل من رأى النبي ﷺ وسمع حديثه.

أي لو لم يكن من المهاجرين والأنصار وجاء من البادية ورأى النبي ﷺ من بعيد وسمع حديثه، ولم يسلم عليه حتى، فهو صحابي.

التعبير النبوي عن الذين عاشوا معه دقيق جدًّا، لأنه يشمل الجميع ممن «صاحبه» سواء كان مهاجرًا أو أنصاريًّا، أو من مسلمة الفتح بعد فتح مكة، أو من غيرهم من المسلمين، وسواء كان مؤمنًا أو منافقًا أو غير ذلك من الأقسام المتعلقة بحقيقة ودرجة الإيمان.

***

الصحابي في القرآن

نجد أن مصطلح «صاحب» أطلقت في القرآن على معناها اللغوي والعرفي تمامًا، فلم يوسعها القرآن لتشمل غيرهما.

فقد وجدناه يصف الزوجة ﴿وصاحبته وبنيه﴾[1] لأنها صاحبت الرجل في بيت الزوجية وعقد الزوجية، فقد صاحبتها

(١) عبس: ٣٦.

مكانًا وشراكة.

ووجدناه يصف أصحاب خير ﴿له أصحاب يدعونه إلى الهدى ائتنا﴾[١].

ووجدناه يصف صحبة مؤمن وكافر ﴿قال له صاحبه وهو يحاوره أكفرت بالذي خلقك﴾[٢].

وتصل الصحبة إلى مصاحبة نبي وكافر ﴿يا صاحبي السجن أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار﴾[٣] في كلام يوسف عليه السلام مع المسجونين اللذين كانا على دين ملك مصر.

وعليه، فالصحبة إنما هي المخالطة بشكل أو بآخر، وليست صك تعديل للصحابي وشهادة له بالخيرية.

***

مصطلح «صديق»

لو طالعتم آيات تناول الطعام في أماكنها المسموح بها، لوجدتهم مصطلح «صديق» ﴿فلا جناح عليكم أن تأكلوا في بيوت... أو ما ملكتم مفاتحه أو صديقكم﴾[٤]، أي بيت الصديق.

(١) الأنعام: ٧١.
(٢) الكهف: ٣٧.
(٣) يوسف: ٣٩.
(٤) النور: ٦١.

لـم يقـل «صاحبكـم»، لأن العلاقـة مـع «الصاحـب» علاقـة مكانيـة مخالطـة بشـكل أو بآخـر، بينمـا العلاقـة مـع «الصديـق» علاقـة أعمـق، فقـد اخترتـه أنـت واختـارك هـو لتكونـا صديقيـن، والفـارق واضـح بيـن جـذر "ص ح ب" الـذي يتعلـق بالمخالطـة وجـذر "ص د ق" الـذي يتعلـق بالصـدق وهـو واحـد مـن أهـم مفاهيـم وقيـم الديـن والفطـرة.

فـإذا كان «الصديـق» يمكـن أن يخـذل أو يحبـط أو يتغيـر أو يـؤذي أو يخـون بـل ويمكـن أن ينقلـب عـدوًا، فمـا بالـك بـ «الصاحـب».

***

واجبات «الصُّحبة»

إذا كان للصحبـة موقعيـة فـي التقييـم فـإن «واجباتهـا علـى» الصاحـب أكبـر مـن «حقوقهـا لـه»، وذلـك ببسـاطة:

علاقـة الصُحبـة بيـن اثنيـن، فمـن الـذي صاحـب الصاحـب؟ صاحـب النبـي محمـدًا ﷺ.

هل يقصر النبي ﷺ في حقوق صاحبه؟ قطعًا لا.

إذًا، فقـد حصـل الصاحـب علـى حقوقـه، وبقيـت عليـه الواجبـات، أي واجبـات هـذه وقـد حصـل الصاحـب علـى حقوقـه مـن أعظـم صاحـب فـي الخلـق ﷺ؟

إذًا، كمـا أن صحبـة النبـي ﷺ مزيـة كبيـرة فـإن عليهـا واجبـات

أكبر بكثير، فمن قام بها فهو على الرأس والعين، ومن فشل فيها فلا نبالغ فيه، أما من خانها - بشكل من الأشكال - فإننا نتخذه عدوًّا، وإلا فلننظر في حقيقة إيماننا بالله ورسوله صلى الله عليه وآله وسلم .

الفَصْلُ الثَّانِي

مناقشة آيات الثناء على صحابة النبي صلى الله عليه وآله وسلم

«الآية الأولى»

الآية الأولى

السؤال: الآية ١

﴿محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعًا سجدًّا يبتغون فضلًا من الله ورضوانًا سيماهم في وجوههم من أثر السجود ذلك مثلهم في التوراة ومثلهم في الإنجيل كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجرًا عظيمًا﴾[1].

***

النقاش

لماذا تبدأ الآية بكلمة «محمد رسول الله»؟

آيات سورة الفتح المباركة كلها متعلقة بـ «الرسالة» ذاتها، ولا مجال للبحث التفصيلي في هذا، ولكن لو أخذنا الآية قبلها فقط:

﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ

(١) الفتح:٢٩.

كُلِّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾[1]، سنجدها تتعلق بأمرين:

الأول: تأكيد رسالة المصطفى محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

الثاني: انتصار الدين الإسلامي.

ونحن نعلم من بديهيات الأمور أن جسم الأمة - أي أمة - يسهم في ما يتعلق بها في ساحات الصراع، وبالتالي فإن «ظهور دين الحق على الدين كله» (وهو في الدولة المهدوية، لأن الوعد الإلهي لا بد من تحققه، وهو ينتظر التحقيق لحد الآن) يكون بالقوة العسكرية والإدارية والاقتصادية والفكرية للأمة كلها، وهذه فيها الجميع - مؤمنون ومنافقون ومن في قلوبهم مرض والمذبذبون والذين في قلوبهم زيغ وسائر الأصناف -، فإنه من المستحيل أن نفصل أقسام المصنع أو المدرسة أو الوحدة العسكرية مثلًا إلى مؤمنين وغيرهم.

وعليه، فإن السياق أولًا، والحديث نفسه عن الأمة وصراعها مع الأعداء ثانيًا، يتضمن بالضرورة سائر أنواع الناس.

«والذين معه»، فلماذا لم يقل «والذين آمنوا معه» أو «المؤمنون معه»؟ فهذا دليل على أن الوصف يشمل المؤمنين حق الإيمان ومن دونهم في درجات الإيمان وصولًا إلى النفاق، فإن كل هؤلاء كانوا من «الذين معه».

---

(١) الفتح:٢٨.

«أشداء على الكفار رحماء بينهم»، هو الوصف العام للجماعة التي مع النبي ﷺ، فإن "ظاهر" حالهم هو الشدة على الكفار -وهم خارجهم- والرحمة فيما بينهم، فهذا هو وصفهم، وهو وصف جميل لا شك في هذا، ولكنه لا يعني التسوية بين هذه الأنواع نهائيًّا.

«تراهم ركعًا سجدًا يبتغون فضلًا من الله ورضوانًا»، نفس الوصف، فهم «مع النبي ﷺ»، فطبعًا يقيمون الصلاة فيركعون ويسجدون، ويأملون من الله نعمته ورضوانه؛ وبالتالي فهو ثناء عليهم ولكن مع عدم التسوية أيضًا، وهو واضح.

﴿سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ﴾، وصف لحالهم من السجود وتشبيههم لما كان عليه أصحاب الرسل الماضين موسى عليه السلام ومن قبله عليه السلام وعيسى عليه السلام، وكله يدعم ما قلته أولًا من أنهم الكتلة التي تقف إزاء كتلة الكفار، نشأت صغيرة حتى كبرت وتعاونت فقويت فصارت لها «صورة» تعجب الناظر، والهدف هو «ليغيظ بهم الكفار»؛ فهذا عمل من الله تعالى من خلال هذه الكتلة التي مع النبي ﷺ على اختلاف مستويات إيمانها وعدمه.

وإلا فهل كان جميع أصحاب موسى عليه السلام وأصحاب عيسى عليه السلام من المؤمنين الصادقين؟ إن قيل: إن الوصف لأصحاب النبي

محمد ﷺ يعني كلهم فلا بد أن يشمل جميع أصحاب عيسى وموسى عليهما السلام الذين وصف أصحاب النبي ﷺ أن مثلهم هناك في التوراة والإنجيل، وبما أنه لم يقل أحد بهذا بالمعرفة القطعية لما كان من الفشل الذريع في أصحاب موسى عليه السلام وفي أصحاب عيسى عليه السلام، وبعد المعجزات الباهرات، فإن الآية أعلاه غير شاملة لجميع صحابة النبي ﷺ.

وهذا رأي.

الرأي الآخر يقول:

هذه الصفات الجميلة كلها تخص المؤمنين الصادقين الذين تحققت فيهم هذه المعاني من ابتغاء الفضل والرضوان من الله والقوة بإزاء الكافرين، تحققت على أرض الواقع من جهادهم، بالفعل والقول، ولكن خصوصًا بالفعل، في أرض المعارك، فلا تشمل المخذّلين ولا المتخاذلين ولا المنهزمين الذين قص علينا القرآن أحوالهم خصوصًا في أحد والأحزاب وحنين.

وعليه، فإنها ليست آية عامة شاملة للجميع، لأنها وإن ابتدأت تتحدث عن «الذين معه» ولكن الصفات التي ذكرتها إنما هي للذين تحققت فيهم فعلًا، لأنه لا معنى لضمهم في هؤلاء وهم فاقدون لهذه الصفات.

ويستدلون على هذا بآخر الآية...

وهـي: ﴿وَعَـدَ اللَّـهُ الَّذِيـنَ آمَنُـوا وَعَمِلُـوا الصَّالِحَـاتِ لَهُـم مَّغْفِـرَةٌ وَأَجْـرٌ عَظِيـمٌ﴾.

إن كلمـة «منهـم» واضحـة فـي التبعيـض، فـإن بعضًـا مـن هـؤلاء «الذيـن معـه» هـم الذيـن «آمنـوا وعملـوا الصالحـات»، وبالتالـي فـإن هـذا لا يخـرج مـن احتماليـن:

الأول: إمـا أنـه مـا يقولـه أصحـاب الـرأي الثانـي مـن أنـه تبعيـض يخـرج غيـر المؤمنيـن الصادقيـن الذيـن عملـوا الصالحـات مـن الوصـف فـي سـائر الآيـة.

الثانــي: أن التبعيـض يشـير إلـى الحـال النهائـي لهـؤلاء «الذيـن معـه»، فهـم وإن كانـوا قـد امتدحـوا فـي الآيـة إلا أن خاتمـة أحوالهـم، أو لنقـل حالهـم علـى الجملـة، لـم تصـل إلـى حـد وصفهـم «الذيـن آمنـوا وعملـوا الصالحـات» فخرجـوا مـن الوعـد بالمغفـرة والأجـر العظيـم.

علـى أنـه ينبغـي الالتفـات إلـى أن عـدم شـمولهم بالوعـد بالمغفـرة والأجـر العظيـم لا يعنـي أنهـم معذبـون مطـرودون مـن رحمـة اللـه، لأن الآيـة سـاكتة عنهـم، فـإن هنـاك درجـات أقـل مـن «مغفـرة وأجـرًا عظيمًـا» ولكنهـا مـن نعـم اللـه لأننـا لا يجـوز أن نحكـم علـى أحـد مـن الخلـق بشـيء فـإن الحكـم كلـه للـه تعالـى، كمـا يمكـن أنهـم سـيكونون خاسـرين لـكل شـيء مـن هـذا نتيجـة سـوء خواتيمهـم.

***

المهم في الآية قيد البحث

هو أنها واضحة تمام الوضوح في أن «بعض» الممدوحين في الآية فقط هم الذين وعدوا الوعد آخر الآية، وعليه فالآية لا يستفاد منها تعديل سائر الصحابة.

علمًا أن تعديل الصحابة يستهدف في الغالب، إن لم يكن على الدوام، المجموعة الصغيرة من الصحابة الذين ناوؤوا عليًّا عليه السلام وغصبوه حقه في الخلافة بعد النبي صلى الله عليه وآله وسلم، والذين حاربوه من بعد ذلك، والذين وقفوا معهم من الأصحاب؛ أي أن القضية ليست دفاعًا عن الصحابة كلهم ولكن عن هؤلاء فقط. ذلك أننا لم نجد هذه الغيرة على الصحابة الذين ضربوا أو قمعوا أو هجروا وهم ممن نالهم من النبي صلى الله عليه وآله وسلم أعظم الثناء، كما لم نجد هذه الغيرة على حوالي ٨٠ بدريًّا و٧٠٠ رضواني استشهدوا في جيش أمير المؤمنين عليه السلام في صفين وهو يقاتل البغاة وقائدهم الصحابي معاوية ووزيره الصحابي عمرو بن العاص، فظلوا إلى الآن لا يقبلون كلمة واحدة ضد هذين (نتذكر الذي حصل لسماحة العلامة الشيخ أحمد الكبيسي وإيقاف برنامجه في دبي لأنه نال من معاوية).

الفَصْلُ الثَّالِثُ

مناقشة آيات الثناء على صحابة النبي صلى الله عليه وآله وسلم

«الآية الثانية»

الآية الثانية

السؤال: الآية ٢

﴿وإن يريدوا أن يخدعوك فإن حسبك الله هو الذي أيدك بنصره وبالمؤمنين * وألف بين قلوبهم لو أنفقت ما في الأرض جميعًا ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألَّف بينهم إنه عزيز حكيم﴾[(١)].

***

النقاش

«حسبك الله» كافيك الله تعالى، فهذا هو الذي يجب عدم الغفلة عنه مطلقًا، أن ﴿من يتوكل على الله فهو حسبه﴾[(٢)]، وهذا خطاب إلى الناس، لأن النبي ﷺ أعرف الناس بهذا لا يغفل عنه لحظة.

«هو الذي أيدك بنصره وبالمؤمنين» انظر كيف بدأ بكلمة «هو الذي» من أجل أن لا تغفل لحظة عنه أنه المؤيد، لأنه لو قال مثلًا "التأييد من الله" يكون قد قدم "التأييد" عليه تعالى، ولكنه يريد أن يقدمه كي لا تغفل عن مصدر التأييد (مشابه لقوله ﴿هو الذي

(١) الأنفال:٦٢-٦٣.
(٢) الطلاق:٣

أرسل رسوله بالهدى ودين الحق...﴾[١] وقوله ﴿إياك نعبد وإياك نستعين﴾[٢]).

والتأييد بشيئين: (١) النصر الإلهي (٢) المؤمنون.

أما النصر فيأتي بأنواع مختلفة، نزول الملائكة، المطر، التثبيت، الرؤى في المنام.....إلخ.

وأما «وبالمؤمنين» فهنا يجب الانتباه جدًّا إلى التفريق بين المصطلحات القرآنية في استخداماته الدقيقة:

الذين معه/ الذين آمنوا/ المؤمنون

«الذين آمنوا» تستخدم بمعنى «الجماعة التي أعلنت إيمانها بالإسلام».

«المؤمنون» تستخدم بمعنى «المؤمنون بالإسلام حقًا» لأن وصف «المؤمن» في القرآن لا بد وأن يكون بمعنى المؤمن الحقيقي الذي تمثّلت فيه حقيقة الإيمان، في ذلك الوقت وذلك المكان.

فماذا عن التطبيق العملي؟

انظروا إلى معارك النبي صلى الله عليه وآله وسلم تعلموا من الذين قاتلوا ومن الذين قعدوا ومن الذين هربوا ومن الذين اهتزوا، إقرؤوا الذي جرى في أحد وكيف لم يبق يقاتل عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم غير علي عليه السلام وأبي دجانة

(١) التوبة:٣٣.
(٢) الفاتحة:٤.

الأنصاري، ثم نسيبة بنت كعب الأنصارية تتلقى السهام عن النبي ﷺ - نعلم أن عليًّا عليه السلام هذا شأنه وحقيقته وطبيعته وقمة الإيمان فيه فلا عجب، ولكن أبا دجانة أعرج وأم عمارة الأنصارية امرأة، اثنان لا قتال عليهما، يقاتلان، ورجال أصحاء كبار يهربون حتى يصف بعضهم نفسه كيف كان يهرب فوق الجبل ﴿والرسول يدعوكم في أخراكم﴾[(١)] فكان يقول حسبما روت السيرة: «إليّ يا فلان إليّ يا فلان...»[(٢)] ثم يقول الراوي «فما عرج عليه واحد منهما ومضيا»[(٣)].

بل انظروا كيف أن البعض كانوا يثبطون من المعنويات بينما غيرهم على العكس عندما كان النبي ﷺ يستمزج آراءهم قبل التهيئة للقتال (يقول أحد الصحابة الكبار مخذلًا: «إنها قريش، ما ذلّت مذ عزّت وما آمنت مذ كفرت» بينما يقول صحابي آخر مشجعًا: «لو خضت بنا هذا البحر لخضناه معك» - فهل هذان على نفس الدرجة؟ هل يمكن إطلاق نفس الوصف عليهما؟ حتى لو وصفنا «مؤمن» على الاثنين، هل هما على نفس الدرجة من الإيمان؟[(٤)]

وعليه، فإن التأييد الإلهي «بالمؤمنين» لا بد أنه، بعلي عليه السلام طبعًا، وبهؤلاء الصحابة الثابتين رضوان الله عليهم، وبالتالي فهم الذين تقصدهم الآية بكلمة «وبالمؤمنين».

---

(١) آل عمران:١٥٣.
(٢) السيرة الحلبية.
(٣) يشير إلى شخصين، أي أن النداء النبوي لم يكن عامًا هنا - انظر مغازي الواقدي.
(٤) راجع مغازي الواقدي ج١ ص٤٨، والسيرة الحلبية ج٢ ص١٥٠، والدر المنثور ج٣ ص١٦٦ عن دلائل النبوة للبيهقي، والبحار ج١٩ ص٢٤٧، وتفسير القمي ج١ ص٢٥٨.

«وألف بين قلوبهم لو أنفقت ما في الأرض جميعًا ما ألفت بين قلوبهم».

نعم، من المستحيل أن يستطيع بشر أن يؤلف بين قلوب العشرات من الأنفس، فما بالك بالمئات والألوف؟

ولكن هذا التأليف هل هو التعديل؟

بالتأكيد لا، فلا رابط بين هذا وذاك.

التأليف هو من أجل تكوين ذلك الجسم المسلم الذي يكون بإزاء الجسم الكافر[(١)].

بل لعلي أقول: إن قوله «ولكن الله ألَّف بينهم إنه عزيز حكيم» أن القضية قسرية، وبما أن الله تعالى لا يقسر أحدًا على الهدى والإيمان، إذًا كان القسر هو لأجل الإطار الأعم للجماعة الإسلامية من أجل تهيئة أسباب النصر على الأعداء.

ولا يفوتنك وصف نفسه المقدسة بصفتي «عزيز حكيم» من القدرة القاهرة بالعزة والحكمة البالغة في إيصال الدعوة الإسلامية إلى الانتصار على قريش الكافرة.

***

(١) راجعوا ما قلته في الآية ١ وهي الفتح:٢٩ عن الوصف الجميل للجسم المسلم القوي.

المهم في الآية في بحثنا

هو أن الآية تؤكد الفعل الإلهي لتكوين وتحصين الجماعة الإسلامية وتشخيص «المؤمنين» من خلال أفعال «بعض» الصحابة في المعارك التي نزل بها التأييد الإلهي مقارنة مع أفعال «البعض الآخر» من الصحابة.

الفَصْلُ الرَّابِعُ

مناقشة آيات الثناء على صحابة النبي صلى الله عليه وآله وسلم

«الآية الثالثة»

الآية الثالثة

السؤال: الآية ٣

﴿كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله﴾[١].

***

النقاش

إنه تعالى يخاطبهم زمن التنزيل فيقول «كنتم»، فهل يعني هذا أنه يقصدهم هم أم يقصد غيرهم؟

الاحتمال الأول: يقصدهم، أي يقصد الجماعة الإسلامية كلها، وصفاتها هي: (أ) الأمر بالمعروف (ب) النهي عن المنكر (ت) الإيمان بالله.

والسؤال: هل إن الأمم السابقة لم تكن تتصف بهذه الصفات الثلاث؟

---

(١) آل عمران: ١١٠.

نعم قطعًا، وذلك بإخبار الله تعالى عنها كما في قوم موسى عليه السلام ﴿ومن قوم موسى أمة يهدون بالحق وبه يعدلون﴾[(١)]، والحواريون وغيرهم من المؤمنين من قوم عيسى عليه السلام.

وعليه، فإن الآية تقول: إن سبب الوصف «خير أمة» إنما هو هذه الصفات الثلاث (أ، ب، ت أعلاه)، فلماذا هي دون غيرها إذا كانت تتصف بها أمم سابقة؟

الاحتمال الثاني: يقصد جماعة آخرين تمثلت فيهم هذه الصفات الثلاث بمصداقها الأعلى بحيث فاقت جميع الأمم السابقة فصارت هي «خير أمة أخرجت للناس».

كلمة «أخرجت للناس» دليل آخر على أن المقصود ليس الأمة الإسلامية، لأن كلمة «للناس» تشمل الأمة الإسلامية، بدليل القرآن ﴿قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعًا﴾[(٢)] الذي يخاطب اليهود وغيرهم من الخلق ومنهم قريش وغيرها من العرب الذين لم يكونوا قد دخلوا في الدين؛ أو أن قوله تعالى ﴿والله يعصمك من الناس إن الله لا يهدي القوم الكافرين﴾[(٣)]، والتي تعني "الناس" من المسلمين بالخصوص، وذلك لأن الآية - آية التبليغ - نزلت بعد حجة الوداع وقد زال خطر قريش التي دخلت في الإسلام قبل ذلك بسنتين، وزال خطر اليهود بعد المعارك المختلفة معهم، بل زال

(١) الأعراف:١٥٩.
(٢) الأعراف:١٥٨.
(٣) المائدة:٦٧.

خطر الآخرين في الجزيرة بعد أن جاءوا بعشرات الألوف إلى حجة الوداع، وعليه فإن "الناس" تعني الجميع.

إذًا، «أخرجت للناس» جميع الناس دون استثناء ومنهم الجماعة الإسلامية.

فكيف يقال: إن «الأمة التي أخرجت للناس» هي الأمة الإسلامية؟ لأنه سيكون المعنى «كنتم خير أمة أخرجت لكم ولغيركم» أو «أخرجتم لأنفسكم»!

ولا يفوتنكم التدقيق في التعبير «أُخرِجت»، فإنه من المستحيل أن تكون الجماعة التي فيها أنواع الناس حسب درجات الإيمان هي «خير أمة»، اللهم إلا أن يقال: إن هذا بلحاظ المحصلة النهائية لمجموع درجات إيمان الأفراد المستقلين.

ولكنه مدفوع بالصفات الثلاث التي فيها «وتؤمنون بالله» فكيف يكون هذا وفي القوم منافقون لا يؤمنون بالله حقًّا؟

كما أن الصفتين الأخريين «تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر» غير موجودتين في الكثيرين منهم، كما قصت السيرة في السلم والحرب، بل كان هناك العكس "الأمر بالمنكر والنهي عن المعروف".

وإذا كانت القضية غير واضحة المعالم على عهد النبي صلى الله عليه وآله وسلم، فإنها بعد وفاته - أرواحنا فداه - صارت من أوضح ما يكون في الخلافات والصراعات والسير بسيرة بعيدة عن هاتين الصفتين.

تكليف لا تشريف

مما ينبغي الالتفات إليه هو أن المنازل الكبرى التي للمصطفين الأخيار من الأنبياء والأولياء عليهم السلام ليست في أصلها تشريفًا لهم، بل هي تكليف ثقيل للأمانة التي حملها الإنسان، وما يحصلون عليه من تشريف لهذه المنزلة يأتي ضمنًا، لأنهم - بهذا - يكونون أقرب إلى المولى عز وجل.

وبالتالي، فإن «خير أمة أخرجت للناس» مكلفة بالأمر والنهي وترسخ الإيمان المطلق بالله تعالى. ولكن حتى لو فرضنا أن معنى الآية يمتد للأمة الإسلامية على وجه العموم، أي أنها لا تعني العترة الطاهرة من آل محمد صلى الله عليه وآله وسلم حصرًا، فإن السؤال يأتي:

من هم مصداقه الأعلى في الأمة - أليسوا هم عليهم السلام ؟

***

الخلاصة

إذًا، في خصوص بحثنا، أن الآية لا يمكن أن تصدق على الجماعة الإسلامية بشكل عام، فإن قيل: إنها تصدق وقبلنا ذلك تجاوزًا على الأدلة أعلاه، فإنها من المستحيل أن تصدق على سائر الأفراد.

(أما من هي "الأمة المسلمة" فهذا نجده في دعاء إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام؛ راجعوا الفصل ٢٢).

الفَصْلُ الخَامِسُ

مناقشة آيات الثناء على صحابة النبي صلى الله عليه وآله وسلم

«الآية الرابعة»

الآية الرابعة

السؤال: الآية ٤

﴿وكذلك جعلناكم أمة وسطًا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدًا﴾[١].

***

النقاش

هذه تشبه الآية السابقة ﴿كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله﴾[٢] من حيث:

أولًا: وصفها الـ«أمة» بكلمة «وسطًا».

ثانيًا: الهدف من هذا وهو «الشهادة على الناس» و«شهادة الرسول ﷺ على هذه الأمة».

يقول: «جعلناكم»، فهو "جعل" من الله لهذه "الأمة الوسط"، بمعنى أن الأمور ليست تركها حسب اختيار الأفراد ثم لتتكون الأمة

---

(١) البقرة:١٤٣.
(٢) آل عمران:١١٠.

كيفما كان، ولكنها خطة إلهية محكمة.

والجعل الإلهي لم يرد إلا بمثله - ﴿يا داود إنا جعلناك خليفة﴾[١]، ﴿وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا﴾[٢]، فهو في مقام «الخلافة» ومقام «الإمامة».

فهل إن «جعلناكم أمة وسطًا» هو جعل جميع أفراد الأمة الإسلامية في مقام الخلافة والإمامة؟

هل من المعقول أن الأمة التي فيها من كافة الأصناف من الذين وصلوا في إيمانهم إلى القمة وحتى الذين يقبعون في أسفل دركات النفاق، ومنهم حتى الذين كفروا بعد الإيمان، تكون كلها «أمة وسطًا شاهدة على الناس»؟

قطعًا لا.

فإن قيل: نحن لا نقول هذا، ولكن نقول: إن هذا يشمل المؤمنين فقط، قلنا: إذًا فقد تحول الفهم من أن معنى الآية هو «كامل» الأمة إلى «بعض» الأمة، وعندها يمكن أن يكون البعض بالمئات أو الألوف كما يمكن أن يكون بالآحاد والعشرات؛ وهذا يعني النظر في «الصفات» التي يجب التمتع بها من أجل:

أولًا: أن نصف الشخص أو الأشخاص -بغض النظر عن العدد- بكلمة «وسطًا».

---

(١) ص:٢٦.
(٢) السجدة:٢٤.

ثانيًا: أن نقول: إنهم يتمتعون بمقام «الشهادة على الناس».

«لتكونوا شهداء على الناس» فيها أمران:

الأول: «مقام الشهادة»، وهذا لا يحصل عليه إلا من وصل في إيمانه إلى مستوى حباه الله تعالى بمقام الشهادة على الناس: يقف بين يدي الله تعالى فيقول: هؤلاء فعلوا كذا ونجحوا وأولئك فعلوا كذا وفشلوا.

ولكن هذا لا يشمل في الأصل الذين احتاجوا إلى القيام بـ «فعل» إضافة إلى «الإيمان القاطع» كي يصلوا إلى مقام الشهادة، ومنهم «الذين قتلوا في سبيل الله» فلم يصفهم الله تعالى بالشهداء ولكن البيان الرسولي وصفهم بهذا، فصار يقال عنهم: إنهم "استشهدوا في سبيل الله"، ما يعني أنهم أثبتوا من خلال الفعل أنهم وصلوا إلى مستوى من الإيمان أعطاهم الله معه درجة "الشهود على الناس"، لأن الذي قتل في سبيل الله يقول: قمت بأقصى ما أستطيع من التضحية، فالله تعالى يجيبه بأفضل منه: جعلتك شاهدًا على الآخرين في أفعالهم التي هي أقل من فعلك (ولهذا هم ﴿أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ * فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[١]).

أي أن هناك من تبوأوا مكان الشهادة بالاختيار الإلهي أصلًا ﴿قُلِ

---

(١) آل عمران: ١٦٩-١٧٠.

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى﴾[١]؛ كما أن هناك من نالوا تلك المرتبة العظيمة بعد الاختبار في الدنيا، مثل الذين قتلوا في سبيل الله.

ولكنه سيكون من الضعيف أن التالين هم من ضمن «الأمة الوسط» التي ينتظرها مقام الشهادة في الآخرة، لأنه هب أنه فشل الجميع من غيرهم في نيل مرتبة الشهادة عند الاختبار فهل إن هذا المقام الشهودي في الآخرة سيلغى؟

إذًا، «الأمة الوسط الشاهدة على الناس» هي الجماعة المعدة أصلًا لهذا المقام الشهودي.

نقطة مهمة تتعلق بـ «الشهادة» ذاتها:

كيف يمكن للشهيد أن يشهد على غيره إلا إذا كان عالمًا بالمشهود عليه، في عمله كما في منطلقات عمله؟ مثلًا، من قال: إن المشهود عليه عندما استدار في المعركة أنه كان يريد الهرب، بينما سيقول: إنني كنت أتحيز إلى فئة من المقاتلين لأقاتل معها؟ أو مثلًا، أمسك الشاهد بالمشهود عليه وهو يأخذ شيئًا من غيره، كيف يعلم أنه يسرق وليس يسترجع ما هو ملكه والآخر اغتصبه ويرفض إعادته؟ إذًا، لا بد أن يكون الشهيد متمتعًا ليس فقط بمستويات الاطلاع العادية عند سائر البشر، ولكن بمستويات اطلاع حباه الله بها بما يمكنه من أن يشهد على الناس في أفعالهم بالشكل الكامل.

---

(١) النمل: ٥٩.

﴿وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾

وهذا دليل آخر على أن مقام الشهادة يخص جماعة معينة سميت «الأمة الوسط»، لأنه كيف يكون الرسول ﷺ شهيدًا على الأمة الإسلامية أبد الدهر وهو لم يعش بينهم سوى عقدين ونيف من الزمان؟ هذا هو منطق الدنيا وعلاقاتها حسب قوانينها الفيزياوية المعروفة.

أما «الأمة الوسط المجعولة جعلًا لتكون في مقام الشهادة» فهذه «يشهد عليها الرسول ﷺ» بالمستويات الشهودية التي يعلمها الله تعالى مما هو في آفاق أخرى وجودية غير الدنيا في مستوياتها التي نعرفها.

(نظرة سريعة في الدعاء الإبراهيمي الإسماعيلي تبين أن الدعاء هو لجعل "أمة مسلمة" أولًا، ثم بعث رسول من تلك الأمة المسلمة يهيئهم للمهمة الكبرى ثانيًا - راجع الفصل ٢٢).

«جعلناكم» عودًا على أولها، فإن التعبير بالفعل الماضي يقوي من الرأي أن "الأمة الوسط" هي مجموعة من الناس داخل الأمة الإسلامية كان قد تم اختيارها بالجعل الإلهي في الماضي لتقوم بدورها في الدنيا في تفاعلها مع الناس وهي منهم وفيهم، ثم تقوم بدور الشهادة عليهم في الآخرة بعد أن شاهدت أعمالهم في تفاعلها معهم في الدنيا.

ولكن يمكن أن يبقى احتمال أن التعبير بالماضي هو للأمة

الإسلامية كلها لأن الله تعالى لا زمان عنده، وكان في علمه قد اختط للبشرية أن تتصاعد حتى تصل إلى رسالة المصطفى ﷺ وأتباعه هم الأمة الإسلامية. إلا أن هذا الاحتمال قد ضعفناه إلى درجة الإلغاء لما قدمناه آنفًا.

***

تكليف لا تشريف

كما في الآية السابقة، هنا أيضًا أن مقام الشهادة يأتي من تكليف ثقيل للأمانة التي أنيطت بهؤلاء المصطفين المجعولين جعلًا إلهيًّا في مقام الشهادة، وما يحصلون عليه من تشريف لهذه المنزلة يأتي ضمنًا.

وهنا أيضًا، حتى لو فرضنا أن معنى الآية عامة في المسلمين، أي أنها لا تعني العترة الطاهرة من آل محمد ﷺ حصرًا، فإن السؤال يأتي:

من هم مصداقه الأعلى في الأمة - أليسوا هم عليهم السلام ؟

***

الخلاصة في الآية

في خصوص بحثنا، لا يمكن أن تصدق الآية على الجماعة الإسلامية بشكل عام، لأن مقام الشهادة على الناس يقتضي منزلة مجعولة من الله تعالى وهذه لا تكون إلا لمن اصطفاهم الله تعالى في الأصل، فإن التحق بهم غيرهم فإنهم بعد القيام بأفعال عظيمة منها القتل في سبيل الله؛ وبالتالي فإن الآية من المستحيل أن تصدق على سائر الأفراد.

الفَصْلُ السَّادِسُ

مناقشة آيات الثناء على صحابة النبي صلى الله عليه وآله وسلم

«الآية الخامسة»

الآية الخامسة

(السؤال): الآية ٥

ثم لننظر ماذا نرى؟ أو لسنا نرى تعديلهم بالجملة؟

﴿لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوه في ساعة العسرة من بعد ما كاد يزيغ قلوب فريق منهم ثم تاب عليهم إنه بهم رؤوف رحيم﴾[1].

وهذه كانت عقب غزوة العسرة (تبوك)، وكانت في آخر حياته صلى الله عليه وآله وسلم.

***

النقاش

توضيح الفارق في المعنى بالتوبة حسبما جاء في التفاسير الموجودة، ومنها تفسير الطبري (مع الاختصار غير المخل):

«لقد رزق الله الإنابة إلى أمره وطاعته نبيه محمدًا - صلى

(١) التوبة: ١١٧.

الله عليه وسلم - والمهاجرين ديارهم وعشيرتهم إلى دار الإسلام، وأنصار رسوله في الله الذين اتبعوا رسول الله في ساعة العسرة منهم من النفقة والظهر والزاد والماء... من بعد ما كاد يميل قلوب بعضهم عن الحق، ويشك في دينه ويرتاب، بالذي ناله من المشقة والشدة في سفره وغزوه... ثم رزقهم - جل ثناؤه - الإنابة والرجوع إلى الثبات على دينه، وإبصار الحق الذي كان قد كاد يلتبس عليهم... إن ربكم بالذين خالط قلوبهم ذلك - لما نالهم في سفرهم من الشدة والمشقة - رؤوف بهم (رحيم) أن يهلكهم، فينزع منهم الإيمان بعد ما قد أبلوا في الله ما أبلوا مع رسوله، وصبروا عليه من البأساء والضراء».

ومنها تفسير البغوي (مع الاختصار غير المخل):

«تاب الله أي: تجاوز وصفح. ومعنى توبته على النبي صلى الله عليه وسلم بإذنه للمنافقين بالتخلف عنه. وقيل: افتتح الكلام به لأنه كان سبب توبتهم، فذكره معهم... في وقت العسرة، ولم يرد ساعة بعينها، وكانت غزوة تبوك تسمى غزوة العسرة، والجيش يسمى جيش العسرة. والعسرة الشدة، وكانت عليهم غزوة عسرة في الظهر والزاد والماء».

ومنها قول رشيد رضا صاحب تفسير المنار (مع الاختصار غير المخل):

«للتوبة درجات تختلف باختلاف طبقات التوابين الرجاعين إلى

الله من كل إعراض عنه، وتوبته تعالى على عباده لها معنيان: عطفه عليهم وهذا أعلاهما، وتوفيقهم للتوبة وقبولها منهم، وإنما يتوبون من ذنب، وما كل ذنب معصية لله عز وجل... فمنهم من كان ذنبه التثاقل في الخروج حتى ورد الأمر الحتم فيه والتوبيخ على التثاقل إلى الأرض، ومنهم من كان ذنبهم السماع للمنافقين فيما كانوا يبغون من فتنة المؤمنين بالقوة والاستدراك، وبالفعل».

ومنها قول الشيخ ناصر مكارم الشيرازي المرجع المعاصر في تفسيره الأمثل في كتاب الله المنزل (مع الاختصار غير المخل):

«**أولًا**: إن معنى توبة الله سبحانه رجوعه بالرحمة والرعاية على عباده، ولا يوجد في هذا المعنى أثر للزلل أو المعصية، كما قال في سورة النساء بعد ذكر قسم من الأحكام: ﴿يريد الله ليبين لكم ويهديكم سنن الذين من قبلكم ويتوب عليكم والله عليم حكيم﴾[1]. ففي هذه الآية والتي قبلها لم يرد حديث عن الزلل والمعصية، بل الكلام - عن تبيين الأحكام والإرشاد إلى سنن الماضين القيمة المفيدة، وهذا بنفسه يوضح أن التوبة هنا بمعنى شمول رحمة الله سبحانه لعباده.

ثانيًا: في كتاب (القاموس) المعروف ورد في أن هذا هو أحد معاني التوبة ما لفظه: رجع عليه بفضله.

ثالثًا: توبة الله هنا ليست بمعنى قبول عذر العباد، بل هي

(١) النساء:٢٦.

الرحمة الإِلهية الخاصّة التي أدركت النّبي ﷺ وكل المؤمنين بدون استثناء في اللحظات الحساسة، وثبّتت أقدامهم في أمر الجهاد».

والذي خلص إلى القول في الموقف على الجملة للجيش المسلم:

«لكن، ورغم كل هذه الأوضاع، فإنّ المسلمين كانوا يتمتعون بمعنويات عالية وراسخة، وبالرغم من كل المشكلات، فإنّهم توجهوا برفقة النّبي ﷺ نحو العدو، وبهذه الاستقامة والرجولة فإنّهم سجلوا للمسلمين، وفي كل العصور والقرون، درسًا كبيرًا خالدًا في ذاكرة الزمن...

ولا شك أنّ بين المسلمين من كان يمتلك معنويات أضعف، وهم الذين دارت في رؤوسهم فكرة الرجوع والذين عبّر عنهم القرآن الكريم بـ «من بعد ما كاد يزيغ قلوب فريق منهم» لأنّ (يزيغ) مأخوذة من (زيغ) بمعنى الميل والانحراف عن الحق نحو الباطل.

لكن، وكما رأينا، فإنّ المعنويات العالية للأكثرية من المسلمين، ولطف الله سبحانه بهم، هو الذي صرف هؤلاء عن هذه الفكرة، ليلتحقوا بجماعة المجاهدين في طريق الحق».

﴿مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ﴾

قد وردت في التفاسير أعلاه، وهي واضحة في انحراف وميلان قلوب بعض المسلمين، ما يعني أنه من الظلم المساواة بين الجميع،

فإنه إذا كانت التوبة قد نزلت على الجميع فإنها مختلفة ما بين رحمة للثابتين وتجاوز بالصفح عن الشاكين بالدين نفسه.

فكيف يمكن اعتبار الآية معدلة لجميع الصحابة؟

هل وصفتهم الآية بكلمة «مؤمنين»؟

كلا، فإنها وصفتهم بأوصافهم الخارجية كأقسام في الجماعة الإسلامية: مهاجرين وأنصار.

وقد بينا في الآيات السابقة وجود سائر الأصناف من خالصي الإيمان إلى أسوأ المنافقين في هاتين الجماعتين؛ ولهذا كان القرآن دقيقًا في التعبير... وهل يستطيع أحد أن يتغلب على هذا الكتاب الفريد!

هل الآية مستغرقة في الزمن؟ كلا، لأنها حددت التوبة بقضية وبحالة: القضية هي ساعة العسرة، غزوة تبوك الحالة هي إتباع النبي صلى الله عليه وآله وسلم «الذين اتبعوه». فهي ليست صك توبة إلى الأبد.

دليل الآية بعدها

﴿وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ اللهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾(١).

---

(١) التوبة: ١١٨.

إذا كان هؤلاء الثلاثة: كعب بن مالك، وهلال بن أمية ، ومرارة بن ربيعة، الذين تخلفوا تمامًا عن الخروج، قد نالوا التوبة فيما بعد، بعد أن أثبتوا ندمهم الحقيقي على ما روته السيرة من فعلهم الذي وصل إلى مقاطعة بعضهم بعضًا بحيث لا يتكلمون، بعد أن قاطعهم أهلوهم فكانوا يأتونهم بالطعام دون كلام، وقضوا نحو ٥٠ يومًا في الندم والتضرع إلى الله تعالى، حتى نزلت توبتهم.

إذا كان هؤلاء الثلاثة قد نالتهم التوبة، فإن التوبة ليست مما يفهم منه التعديل، بل هو - كما قلنا أعلاه - قبول الله تعالى لهم في ذلك الموقف ومحو أي سيئات يمكن أن يكونوا قد اقترفوها في تلك الغزوة والعسر الذي عانوه فيها.

***

الخلاصة في معنى الآية

وهكذا، الآية ليست إلا توبة، ما بين توبة إنعام وتوبة تجاوز وصفح، وفي ذلك الموقف، على المهاجرين والأنصار الذين تحققت فيهم صفة اتباع النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، فليس فيها تعديل بالجملة لهم.

الفَصْلُ السَّابِعُ

مناقشة آيات الثناء على صحابة النبي صلى الله عليه وآله وسلم

«الآية السادسة»

الآية السادسة

السؤال: الآية ٦

﴿لقد رضي الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة فعلم ما في قلوبهم فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحًا قريبًا. ومغانم كثيرة يأخذونها وكان الله عزيزًا حكيمًا﴾[١].

وهذه تزكية عظيمة لأهل بيعة الرضوان.

***

النقاش

الخطاب، أولًا مع النبي ﷺ عن المؤمنين، وبالتالي يذكرهم بضمير الغائب.

الرضوان لجماعة مخصوصة، لأنه لم يقل «لقد رضي الله عن المبايعين» أو «لقد رضي الله عن الذين بايعوك تحت الشجرة» أو غير ذلك دون صفة «المؤمنين»، وبالتالي فإن «الرضوان يخص المؤمنين من المبايعين وليس كلهم».

(١) الفتح: ١٨-١٩.

الخطاب، ثانيًا مع جميع الصحابة الذين كانوا في ذلك اليوم، وذلك بضمير المخاطب.

الفارق أن الذين أنزلت عليهم السكينة ونالوا الفتح القريب -حيث استشعروه وفرحوا به- هم المؤمنون حقًا، أما الجميع، مؤمنون وغير مؤمنين، فقد حصلوا على المغانم المادية بعد ذلك، وبضمنها الأمن من هجمات قريش...

وينبغي الانتباه إلى كلمة «فعلم ما في قلوبهم» فهي ربما تجمع بين الرضوان وبين إنزال السكينة، هذا أولًا. أما ثانيًا، فلعل هذه الكلمة تريد أن تشير إلى أن الله تعالى علم ما في قلوب المؤمنين من بين قلوب غيرهم ممن كان موجودًا معهم، وإلا ما فائدة هذه الكلمة؟ بمعنى: لو أن هذه الكلمات حذفت من الآية ربما اقترب المعنى أكثر مما يذهب إليه البعض من أن الرضوان والسكينة أنزلت على الجميع... فإذا قرأت الآية بدونها، أي ﴿لقد رضي الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحًا قريبًا..﴾ ربما لا تجد فرقًا كبيرًا، وبالتالي لا بد أن يكون هناك فائدة منها.

والآية تربط إنزال السكينة بعلم الله بما في قلوب المؤمنين، وبالتالي فإن الذين لم يكونوا من المؤمنين تركهم الله تعالى في اهتزاز قلوبهم ولم ينزل عليهم السكينة...

قوله تعالى: ﴿هو الذي أنزل السكينة في قلوب المؤمنين

ليزدادوا إيمانًا مع إيمانهم﴾، يوضح السبب في إنزال السكينة على المؤمنين فقط، وليس جميع المبايعين في ذلك اليوم.

فهم يستحقون زيادة الإيمان، حيث أن عقيدة جميع المسلمين أن الإيمان يزيد وينقص في الأحوال المختلفة والأفعال المختلفة للإنسان. بمعنى أن إيمانهم أورثهم القبول من الله تعالى فصاروا مستحقين لزيادة الإيمان.

ويذكر العلامة السيد شرف الدين في «النص والاجتهاد»[1] ما يلي:

«إن أهل السير والأخبار الذين أرّخوا لغزوة الحديبية أكّدوا بأن عبد الله بن أبيّ ابن سلول كان من الذي بايعوا تحت الشجرة، قال الحلبي في سيرته: «إن قريشًا بعثت إلى ابن سلول - وهو مع رسول الله في الحديبية - إن أحببت أن تدخل مكة تطوف بالبيت فافعل، فقال له ابنه عبد الله رضي الله عنه: يا أبت أذكرك الله أن لا تفضحنا في كل موطن فتطوف ولم يطف رسول الله. فأبى الرجل حينئذ وقال: لا أطوف حتى يطوف رسول الله. فلما بلغ رسول الله ﷺ ذلك رضي عنه وأثنى عليه».

فابن سلول إذًا ممن بايع تحت الشجرة، ولم يتخلف أحد عن هذه البيعة ممن كان مع النبي ﷺ في الحديبية إلا الجد بن قيس الأنصاري بإجماع أهل الأخبار».

---

(١) ص ١٦٨.

أقول: فعلى هذا، من يسمونه رأس النفاق، وهو عبد الله بن أبي بن سلول، كان من الذين بايعوا تحت الشجرة، وبالتالي فإنه لا يمكن القول بأن جميع من بايع تحت الشجرة من المؤمنين. ولما انتفت صفة المؤمنين عن بعض المبايعين صار ممكنًا أن يكون هؤلاء أكثرية أو أقلية من الألف وأربعمائة صحابي (أو أكثر قليلًا) بايعوا تلك البيعة، فوجب الفحص في أحوالهم لمعرفة حقيقتهم. ولا شك في أن بعضهم اعترف بأنه فعل أفعالًا من الشك والاعتراض.

فإن قالوا بأن ابن أبي كان مؤمنًا في تلك الساعة ثم عاد إلى النفاق، قلنا: إن هذا يشمل غيره أيضًا، فإن كان ذلك ممكنًا فهذا ممكن دون شك، لا سيما بعدما تواترت أحاديث الحوض وأشباهها التي حكمت بارتداد الأكثرين.

وإن قالوا بأن ابن أبي لا يعد مؤمنًا لأنه معروف النفاق، قلنا بأن نفاقه روي من المحدثين وأرباب السير والمفسرين، في حين أن غيره ربما لم يرو، لأن النفاق أمر قلبي، لا سيما وأن النبي ﷺ صلى عليه بعد وفاته، ولا سيما أن النبي ﷺ أملى على حذيفة بن اليمان قائمة بأسماء المنافقين، إذ لم يكن ابن أبي سلول المنافق وحده، وهذا واضح.

من ذلك ما رواه العلامة السيد سامي البدري في «السيرة

النبويـة»[١]:

فقـد ذكـر أن الصلـح عظـم علـى نفـر مـن المسـلمين حتـى تكلمـوا، «فـكان مـن أشـد هـؤلاء عمـر بـن الخطـاب يـرد علـى رسـول اللـه الـكلام ويقـول: عـلام نعطـي الدنيّـة فـي ديننـا، فجعـل رسـول اللـه ﷺ يقـول: «أنـا رسـول اللـه ولـن يضيعنـي» فقـال عمـر: أولسـتَ كنـت تحدثنـا أننـا سـنأتي البيـت نطـوف بـه؟ قـال: «بلـى، فأخبرتـك أنّـا نأتيـه هـذا العـام؟» قـال: لا، قـال: "فإنـك آتيـه ومطـوّف بـه"»[٢].

وأخـرج الواقـدي فـي مغازيـه[٣] أن عمـر قـال: «ارتبـتُ ارتيابًـا لـم أرتبـه منـذ أسـلمت إلا يومئـذ! وراجعـتُ النبـي ﷺ يومئـذ مراجعـة مـا راجعتـه مثلهـا قـط، ولـو وجـدت ذلـك اليـوم شـيعة (وفـي روايـة مائـة علـى مثـل رأيـي) أخـرج عنهـم رغبـة عـن القضيـة لخرجـت!».

ويبـدو أن البعـض كان رد فعلـه بالقبـول أو الرفـض عـن طريـق عـدم حلـق الـرؤوس كمـا أمرهـم النبـي ﷺ حيـث أمرهـم أن يحلقـوا وينحـروا هديهـم، فحلـق رجـال وقصّـر آخـرون[٤] ومنهـم عثمـان بـن عفـان علـى مـا فـي طبقـات ابـن سـعد[٥]، ومسـند أحمـد[٦].

«فقـال النبـي ﷺ: «يرحـم اللـه المحلّقيـن» قالـوا: والمقصريـن يـا

(١) ص١٩٨.
(٢) البخاري ج٣ كتاب الشروط، والطبري ج٢ ص٦٣٤.
(٣) ج٢ ص٦٠٧.
(٤) البداية والنهاية ج٤ ص١٦٩.
(٥) ج٢ ص١٠٤.
(٦) ج٣ ص٨٩.

رسول الله، قال: «يرحم الله المحلقين»، فقالوا مثل قولهم فقال كذلك، ثم في المرة الثالثة قال: «والمقصرين»، فقالوا: يا رسول الله فلم ظهرت الترحم للمحلقين دون المقصرين؟ قال: "لأنهم لم يشكّوا"»[١].

مثل هذا يفرح الذين أطاعوا وحلقوا كمالك بن ربيعة الذي قال: «وأنا محلوق يومئذ فما سرّني حُمر النعم أو خطر عظيم»[٢].

ثم إن النبي ﷺ قرأ عليهم سورة الفتح ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا﴾ «فقال رجل من أصحابه: أَوَ فتح هو؟! قال ﷺ: "إي والذي نفسي بيده إنه لفتح"»[٣].

وقال ابن عُقبة: «وأقبل رسول الله ﷺ من الحديبية راجعًا فقال رجل من أصحاب رسول الله ﷺ: ما هذا بفتح! لقد صددنا عن البيت وصُدّ هدينا ورد رسول الله ﷺ رجلين من المسلمين كانا خرجا إليه! فبلغ رسول الله ﷺ قول أولئك فقال: "بئس الكلام، بل هو أعظم الفتح - لقد رضي المشركون أن يدفعوكم بالراحة عن بلادهم ويسألون إليكم القضية ويرغبون إليكم في الأمان... وردّكم الله سالمين مأجورين، فهو أعظم الفتوح"»[٤].

---

(١) مسند أحمد ج١ ص٣٥٣، وتاريخ الطبري ج٢ ص٦٢٧، والبداية والنهاية لابن الأثير ج٤ ص١٦٩.
(٢) طبقات ابن سعد ج٢ ص١٠٤.
(٣) صحيح البخاري بحاشية السندي ج٢ ص٢٠٦، وطبقات ابن سعد ج٢ ص١٠٥.
(٤) عيون الأثر لابن سيد الناس ج٢ ص١٢٣.

«ثم أقبل على عمر وقال ﷺ: «أ نسيتم يوم أحد إذ تصعدون ولا تلوون على أحد وأنا أدعوكم في أخراكم؟ أ نسيتم يوم الأحزاب ﴿إذ جاؤوكُم مِنْ فَوقِكُم ومِنْ أسفَلَ مِنكُم وإذْ زاغَتِ الأبصارُ وبَلَغَتِ القُلُوبُ الحَناجِرَ وتَظُنُّونَ باللهِ الظُّنونا﴾؟» فقال المسلمون: صدق الله ورسوله، يا نبي الله ما فكّرنا فيما فكّرتَ فيه ولأنت أعلم بالله وأمره منّا»[1]. انتهى.

من الذي حصل على الرضوان؟

عودًا على الآية، يجب - عند تدبر الكتاب العزيز - عدم الغفلة عن حرف واحد، بل حركة واحدة على حرف، فإن دقته لا نظير لها.

(رحم الله السيد مصطفى جمال الدين وهو يصفه على لسان اللغة العربية:

تتساءلُ الكلماتُ وهي تُقِلُّهُ مِنْ أينَ هذا الفارسُ المتفَرِّدُ؟!)

نقرأ:

«لقد» تأكيد التحقيق للفعل.

«رضي الله» رضي الله تعالى في مقام الألوهية الذي هو الشامل للمقامات كلها.

---

(١) الإمتاع ص٢٩٥.

«عن المؤمنين» المرضي عنهم لهم صفة «الإيمان»، أي الإيمان الحقيقي.

«إذ يبايعونك» هذه مهمة! «إذ يبايعونك» أي في حالة البيعة، فهي ليست صكًا أبديًا من الرضوان، بل هو في تلك الساعة، ساعة البيعة.

«تحت الشجرة» ما أجمل الاهتمام بتلك العلامة، الشجرة، يذكرها تعالى مرتين، ربما ليشير إلى غباء هؤلاء المعادين للرموز الإسلامية التاريخية، ومن أسس لهم عقيدتهم، عندما يقطعون شجرة يصلي الناس عندها تبركًا، أو يهدمون مسجدًا بني عند مرقد أحد الأولياء، أو أي علامة من علامات تاريخ النبي صلى الله عليه وآله وسلم والإسلام الأول.

«فعلم ما في قلوبهم» الفارق بيننا وبين المولى عز وجل أننا ربما نرضى على الظاهر ولا سبيل لمعرفة الباطن، ولكنه المطلع على السر وأخفى علم ما في قلوب أولئك المؤمنين في ساعة البيعة فرضي عنهم.

«فأنزل السكينة عليهم» فكانت نتيجة الإيمان في القلب إنزال ما يثبته من سكينة تطمئن صاحبها، لأن الخطر كان موجودًا إذ ربما تميل قريش بأسيافها عليهم.

«وأثابهم فتحًا قريبًا» إضافة إلى «الفتح القريب» وهو الاتفاقية أن يسمحوا لهم بزيارة البيت الحرام في العام التالي ولا يتعرضوا

لهم بقتال.

«ومغانم كثيرة تأخذونها» انقلب الخطاب إلى جمع المخاطب، أي سائر الصحابة، الذين سيحصلون على مغانم مختلفة فيما بعد.

إذًا، هو تحديد بالمؤمنين وساعة البيعة، إضافة إلى انقلاب الخطاب من الغائب الذي يصف المؤمنين بما فيه قلوبهم وإنزال السكينة عليهم إلى المخاطب وهم جميع الصحابة ما يخرج البعض منهم من الرضوان.

***

الخلاصة في دقة الآية المباركة

في بحثنا الآية دقيقة جدًّا: أنها تميز بين المؤمنين في ساعة بيعة صادقة مخلصة وغيرهم ممن بايع ولكنه لم يكن صادقًا مخلصًا، وعليه فالآية لا تفيد تعديل الصحابة جميعًا.

الفَصْلُ الثَّامِنُ

مناقشة آيات الثناء على صحابة النبي صلى الله عليه وآله وسلم

«الآية السابعة»

الآية السابعة

السؤال: الآية ٧

﴿والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان رضي الله عنهم ورضوا عنه وأعد لهم جنات تجري تحتها الأنهار خالدين فيها أبدًا ذلك الفوز العظيم﴾[١].

وهذا نص قاطع في تزكية عموم المهاجرين والأنصار، بل ومن تبعهم بإحسان.

***

النقاش

هذه الآية المباركة تتعلق بصنف من أعظم الأصناف في الإسلام، لهذا فإن جزاءه هو الجزاء العظيم، وهو:

ليس فقط «رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ» لدخولهم الدين ثم نجاحهم في الاختبار، ولكن أيضًا «وَرَضُواْ عَنْهُ» أي رضوا عن جزائه بأنواع الكرامة في جنات النعيم.

(١) التوبة: ١٠٠.

وهـذا ممـا أعـده لهـم ﴿جَنَّـاتٍ تَجْـرِي تَحْتَهَـا الأَنْهَـارُ خَالِدِيـنَ فِيهَـا أَبَـدًا﴾، مـع الانتبـاه إلـى كلمـة «أبـدًا»، لأن الوعـد أحيانًـا بالخلـود دونهـا، فلعلهـا لتأكيـد علـة دوام العطـاء العظيـم، الـذي يصفـه بأنـه «الْفَـوْزُ الْعَظِيـمُ».

ولكـن هنـاك عـدم دقـة فـي الفهـم، حيـث يعتقـد الكثيـرون، وربمـا الأكثـر أن الموصوفيـن هـم جميـع المهاجريـن السـابقين الأوليـن وجميـع الأنصـار السـابقين الأوليـن وجميـع التابعيـن لهـم بإحسـان، وهـو غيـر صحيـح، بلحـاظ مـا يلـي:

أولًا: هنـاك «تبعيـض» لأنـه يقـول «مِـنَ الْـمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَـارِ وَالَّذِيـنَ اتَّبَعُوهُـم بِإِحْسَـانٍ»، و"مـن" تعنـي البعـض أي، المشـمولون هـم بعـض المهاجريـن السـابقين الأوليـن وبعـض الأنصـار السـابقين الأوليـن وبعـض التابعيـن لهـم بإحسـان.

ثانيـا: معنـى «السَّـابِقُونَ الأَوَّلُـونَ» ليـس السـبق الزمنـي، وإلا لـكان عندنـا مشـكلة مـع غيـر السـابقين مـن المهاجريـن والأنصـار - لمـاذا هـؤلاء لـم تذكرهـم الآيـة وعبرتهـم إلـى التابعيـن؟

أعنـي، لمـاذا يجـازي اللـه السـابقين الأوليـن والتابعيـن بإحسـان ولا يضـم جـزاء المهاجريـن (غيـر السـابقين) الذيـن هاجـروا بعـد السـابقين والأنصـار (غيـر السـابقين) الذيـن أسـلموا بعـد الأنصـار السـابقين إلـى ذلـك؟

فما معنى «السبق» إذًا؟

إنه «السبق في نوعية الإيمان والعمل الصالح» وليس زمان وقوعه، لأنك تعلم أن زيدًا يمكن أن يؤمن ويبقى إيمانه عاديًّا أو ضعيفًا، ويؤمن عمرو بعده بسنوات ويكون إيمانه قويًا. فإذا ما أضفت العمل الصالح إلى المعادلة ازدادت الأنواع، ثم نوعية العمل الصالح، ثم درجة خلوص النية، ثم الظروف المحيطة بالشخص عند القيام أو عدم القيام بالعمل الصالح، هذا يزيد الأنواع كثيرًا حسب حساب الاحتمالات.

ثالثًا: هناك وصف هؤلاء «السابقين» بكلمة «الأَوَّلُونَ»، وهذا تخصيص أشد لمعنى «السبق»، فتكون «النوعية الأولى الأعلى من المهاجرين والأنصار والتابعين لهم بإحسان».

فإن اعترض معترض:

لماذا لا يكون المعنى «السبق الزمني» فيكون المشمولون بهذا الرضوان والفوز العظيم هم «بعض المهاجرين الذين هاجروا في البداية وبعض الأنصار الذين نصروا في البداية»؟

نعم، هذا يحافظ على «التبعيض» الذي لا بد منه، ولكن تبقى مشكلة الزمن:

هل إن الذين هاجروا أول ثلاثة أشهر مثلًا هم المقصودون والأنصار الذين بايعوا بيعتي العقبة؟

أو ربما من الأنصار فقط الذين بايعوا بيعة العقبة الأولى؟

كيف يمكن تحديد هذا؟

وحتى لو تم تحديده، فإن الإشكال في (أولًا) عن «حذف» المهاجرين والأنصار من غير السابقين مع «ضم» التابعين المتأخرين زمنيًا عنهم يبقى على حاله دون حل.

وعليه، المعنى الذي يجيب على سائر الإشكالات هو أن «السبق» في «نوعية» الهجرة والنصرة والاتباع بإحسان.

وهذا المعنى هو المنطقي إذا لاحظنا الآيات القرآنية الكثيرة التي تمدح جماعة هنا وتذم جماعة هناك، وتعلن التوبة عن جماعة هنا، وتحكم بالخسران على جماعة هناك.

رابعًا: أن التطبيق على أرض الواقع يثبت دون أدنى شك أن مواقف البعض من السابقين زمنيًّا من المهاجرين والأنصار الأولين تباينت تباينًا شديدًا كما أسلفت في بحث «بيعة الشجرة» وكما في الآيات التي تفصل أنواع الناس في العهد النبوي كما في آيات موقعة الأحزاب.

فنعلم إذًا:

عظم الذين «سبقوا بنوعية الإيمان والعمل الصالح» من خلوص النية وبذل الجهود تلو الجهود، ففازوا بالقدح المعلى من رضوان الله عليهم ورضوانهم على عطائه الكريم.

خامسًا: فائدة لنا جميعًا:

هـذا الفهـم - السـبق النوعـي وليـس الزمنـي - يفتـح الآفـاق أمامنـا لنتصاعـد فـي «نوعيـة» إيماننـا و«نوعيـة» الأعمـال الصالحـة فـي طاعـة اللـه ورسـوله ﷺ واتباعـه، عسـى أن نكتـب فـي «السـابقين»، وأحسـن منـه «السـابقين الأوليـن» - وفـي ذلـك فليتنافـس المتنافسـون.

سادسًا: درجة «التابعين» في واقع المسلمين

إذا كانـت الآيـة تضـع «التابعيـن بإحسـان» مـع المهاجريـن والأنصـار، فمـا بـال التابعيـن لـم يحصلـوا علـى نفـس الدرجـة عنـد المسـلمين التـي للمهاجريـن والأنصـار؟!

الآيـة تقـول: إنهـم سـبقوا وإنهـم «رضـي اللـه عنهـم ورضـوا عنـه» وإن جزاءهـم «جنـات عـدن خالديـن فيهـا أبـدًا»، فلمـاذا لـم ينلهـم نفـس النصيـب مـن الإفـراط فـي التعديـل عنـد أهـل السـنة مـن المسـلمين؟

إن هـذه قرينـة علـى العامـل السياسـي فـي اسـتغلال آيـات الكتـاب العزيـز لرفـع الصحابـة، بـل رفـع بعـض الصحابـة، إلـى درجـات فيهـا مـن الإفـراط الشـيء الكثيـر.

***

المهم في الآية قيد البحث

١- تدعو إلى النظر قبل الإسراع إلى فهم «السبق» بالسبق الزمني، بالنظر لما قدمناه من إشكالات تدحض هذا الفهم، والتي منها ما يأتي بالبعض من غير الصحابة - أي التابعين - ليضعهم في منزلة أعلى من منزلة بعض الصحابة.

٢- هناك تبعيض في الممدوحين، وبالتالي لا يمكن أن يفهم منها تعديل الصحابة جميعًا.

الفَصْلُ التَّاسِعُ

مناقشة آيات الثناء على صحابة النبي صلى الله عليه وآله وسلم

«الآية الثامنة»

الآية الثامنة

السؤال: الآية ٨

﴿للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلًا من الله ورضوانًا وينصرون الله ورسوله أولئك هم الصادقون* والذين تبوؤا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون﴾[1].

***

النقاش

أرجو ملاحظة أني سأتوسع في قسم الأنصار لسببين:

الأول: قربة إلى الله تعالى في رفع بعض الظلم العظيم الذي أصابهم على عظيم بلائهم وعطائهم للإسلام.

الثاني: لأنه يتصل بالاستفادة المنحرفة لآيات الكتاب حيث يتم إهمال الثناء العظيم لقوم بينما يتم رفع آخرين حتى وقد نالهم من

(١) الحشر: ٨-٩.

الذم ما نالهم.

وهذا له صلة وثيقة بموضوعنا، وهي أن تعديل الصحابة وغلق الباب بوجه نقدهم إنما هو لأجل بعض الصحابة من المهاجرين القرشيين، مقابل الموقف المجانب للأنصار، ما يفضح أن عدالة الصحابة لا تشمل جميع الصحابة بل تشمل البعض من كبار قريش من الصحابة، لأن الموضوع هو تغلب قريش على الأمر[١].

المهاجرون

الآية «للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلًا من الله ورضوانًا وينصرون الله ورسوله أولئك هم الصادقون».

تتحدث عن «الفقراء المهاجرين»، فهؤلاء «مهاجرون وفقراء» وبالتالي فإن ترتيب أحوالهم بعد أن «أخرجوا من ديارهم وأموالهم» أصعب من غيرهم، مع ذلك «ينصرون الله ورسوله»، فجاء نعتهم «الصادقون».

لكن هناك شروط، فمن هم «المؤمنون»؟

الآن، اعرض الآية أعلاه على قوله تعالى:

---

(١) هذا، وسأستفيد مما ذكرته في أحد فصول كتابي «عقدة الصحابة إفراط وتفريط» مع بعض الاختصار.

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾(١).

تجد ما يلي:

«إِنَّما» أداة حصر تعني أن ما بعدها هو الوحيد الذي يحمل الحالة أو الصفة في التعبير، وعليه فإن هؤلاء هم وحدهم يحملون صفة «المؤمنون» (أحيانًا «إنما» تأتي للمبالغة للإشعار بأهمية الموضوع).

فما هي هذه الصفات؟

"الإيمان بالله ورسوله ﷺ" و"عدم الشك" و"الجهاد بالمال والنفس".

فما هي حقيقتهم؟

«الصَّادِقُونَ» في ادعائهم الإيمان.

وعليه، يستحق المشمولون بها من المهاجرين والأنصار ذلك الثناء العظيم، ولكن بالشروط المحصورة هنا. فمن في إيمانه اهتزاز (كما في بعض الذين بايعوا تحت الشجرة)، أو تعرض للشك (كما في بعضهم أيضًا)، ومن كانوا أبعد فأبعد (كما في الذين صاروا يطعنون بوعد الله في معركة الأحزاب)، ناهيك عن الذين يبخلون عن الجهاد بالمال، أو الذين ينكصون عن الجهاد في النفس (كما في الهروب من القتال في أحد وحنين)، كل هؤلاء ليسوا من «الصادقين»

(١) الحجرات: ١٥.

في تلك المواقف. فإن تخلصوا مما في دواخلهم من ضعف، فإنهم يدخلون في زمرة «الصادقين».

فلا الحكم «مع» نهائي ولا الحكم «بالضد» نهائي.

فلا ينبغي «الإفراط في الثناء» ولا «الإفراط في الذم».

الأنصار

الآية ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾

تصف الأنصار بأوصاف لم يصف الله بها جماعة أخرى من الناس، يكفي هنا الالتفات إلى صفة «يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ»:

هذا «الحب» حب حقيقي، لأن القرآن يعني كل حرف منه، بينما لم نجده يصف به «المهاجرين» مع أنهم شاركوا «الأنصار» كل شيء في مدينتهم وبيوتهم وأعمالهم وحياتهم كلها.

هذا، مع الأوصاف الأخرى من «سلامة الصدر» و«الإيثار حتى مع الحاجة»، فنالوا الدرجة العليا «فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ».

هنا فارق ملحوظ بين:

"الصادقون" - تأكيد على صدق الحالة الدنيوية، ولكنه ساكت

عن الحالة الأخروية.

"المفلحون" - وصف للحالة الأخروية التي يتطلع إليها كل مؤمن.

الثناء العظيم على الأنصار

(١) ثناء القرآن على الأنصار

وهي الآية قيد التدبر، أثنت عليهم بشكل ملفت. والأنصار هم الذين سكنوا دار الهجرة قبل المهاجرين (أثنت الآية قبلها على المهاجرين):

(أ) ولكن كيف تقول: إنهم «تَبَوَّؤُوا... وَالإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ» قبل المهاجرين؟

قيل: فيها معان متعددة كلها صحيحة يمكن جمعها فيما يلي:

- هم الذين أسسوا أول دار للإيمان.
- آمنوا قبل بعض المهاجرين، وقبل غالبية من هاجر فيما بعد.
- اختارهم الله ليكونوا في موضع الإيمان قبل غيرهم.
- إنما صار المهاجرون مهاجرين لهجرتهم إلى دار الإيمان التي أسسها الأنصار.

(ب) يحبون المهاجرين، والقرآن لا يطلق الكلمات جزافًا، وعليه

فكلمة "يحبون" تعني الحب الصادق، وبما أنه حب لـ "من هاجر إليهم" فهو حب متصل بالهجرة، أي بالإسلام، فهو حب عال لا يتعلق بالدنيا.

(ت) لا يتفاعلون مع أي فعل سلبي من الآخرين، ولعله إشارة إلى المهاجرين الذين صاروا يشاركونهم معايشهم وبيوتهم، بل ولا يجدون في داخل قلوبهم حسدًا على المهاجرين حتى لو أعطُوا، وهذه لا تكون إلا لمن جرد قلبه من أي نظرة سوى نظرة الأخوة الإيمانية.

(ث) لا يكتفون بتقديم المهاجرين على أنفسهم، بل يقدمونهم حتى ولو كانوا هم بحاجة إلى ذلك.

(ج) إن من وفق للتخلص من بخل نفسه فقد نال درجة الفلاح، درجة سامية جدًّا وصف القرآن بها المؤمنين الصادقين ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ... الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾[(١)].

(٢) في الحرب

الأنصار كانوا العدد الأكبر في جيش النبي ﷺ (وإن كان سببه كونهم أكثر من المهاجرين).

وعندما هرب المسلمون يوم أحد، لم يبق معه ﷺ إلا علي عليه السلام والأنصاري أبو دجانة سماك بن خرشة (رض)، كل منهما يقاتل من

(١) المؤمنون: ١-١١.

وجه، والأنصارية نسيبة بنت كعب (رض) تتلقى السهام عن النبي ﷺ، مع أن الرجال (ومنهم كبار المهاجرين) هربوا لا يلوون على شيء.

هذا، وكان شهداء أحد ما بين ٤ إلى ٦ من المهاجرين، مقابل ما بين ٦٠ و٦٥ من الأنصار.

وعندما هرب المسلمون يوم حنين ولم يبق معه ﷺ سوى علي عليه السلام وعمه العباس (رض) وربما بضعة آخرين، فإنه ﷺ أمر العباس أن ينادي أصحاب «السمرة» أي صخرة العقبة التي بايعه الأنصار عليها قبل الهجرة، فميزهم بخطاب غير الخطاب العام «يا أهل بيعة الشجرة يا أهل سورة البقرة». تقول الروايات: إن الأنصار كانوا أول من رجع من الهرب.

بل روي أمر النبي ﷺ لعمه العباس «يا عباس! نادِ يا معشر الأنصار، يا أصحاب السمرة، يا أصحاب سورة البقرة» (رواها المفسرون في تفسير آيات غزوة حنين)، ما يعني أن الخطاب حتى «يا أصحاب/ أهل سورة البقرة» كان للأنصار، ما يشير إلى أن أمله ﷺ بالرجوع كان فيهم دون غيرهم.

ثم يصف العباس رجوع الأنصار إلى النبي ﷺ «والله لكأنما عطفتهم حين سمعوا صوتي عطفة البقر على أولادها» (رواه مسلم، وقال النووي شارح صحيح مسلم: قوله: «فوالله لكأن عطفتهم حين سمعوا صوتي عطفة البقر على أولادها، فقالوا: يا لبيك، يا

لبيك) قال العلماء: في هذا الحديث دليل على أن فرارهم لم يكن بعيدًا، وأنه لم يحصل الفرار من جميعهم، وإنما فتحه عليهم من في قلبه مرض من مسلمة أهل مكة المؤلفة، ومشركيها الذين لم يكونوا أسلموا، وإنما كانت هزيمتهم فجأة لانصبابهم عليهم دفعة واحدة ورشقهم بالسهام، ولاختلاط أهل مكة معهم ممن لم يستقر الإيمان في قلبه، وممن يتربص بالمسلمين الدوائر»، وهو قول مهم في تشخيص طبيعة الجانبين: الأنصار ومسلمة الفتح من مكة. على أنه روي أن الثابتين مع النبي ﷺ كانوا عشرة: تسعة من بني هاشم والعاشر أيمن بن أم أيمن (رض)).

وفي وصف آخر «فثابوا من كل ناحية، كأنهم النحل تأوي إلى يعسوبها»(١).

(٣) حالة ضعف

وعندما ضعف الأنصار قليلًا يوم وجدوا النبي ﷺ يخص كبار المشركين العطايا الكبيرة دونهم، فإنه ﷺ أوضح لهم ثم قال:

«أوجدتم يا معشر الأنصار في أنفسكم في لعاعة من الدنيا تألفت بها قومًا ليسلموا، ووكلتكم إلى إسلامكم؟... فو الذي نفس محمد بيده لولا الهجرة لكنت امرءًا من الأنصار؛ ولو سلك الناس شعبًا وسلك الأنصار شعبًا لسلكت شعب الأنصار؛ اللهم ارحم الأنصار

---

(١) كتاب المغازي النبوية للواقدي.

وأبناء الأنصار وأبناء أبناء الأنصار»[١].

فهو ﷺ يثق بإسلامهم في تقدير الموقف؛ ولو لم يكن مهاجرًا لعد نفسه واحدًا منهم؛ وأن الناس لو افترقوا فرقتين فإنه سيختار الأنصار. ويختم بذلك الدعاء المستجاب لثلاثة أجيال منهم.

(٤) مدح النبي ﷺ للأنصار

«الأنصار كرشي وعيبتي»[٢].

أي: أن الأنصار مادتي التي أقوى بها وأفزع إليها، أي أنهم يمدونه بأنفسهم، أو أهلي وعيالي وحامتي وجماعتي وأن الأنصار موضع ثقتي ومكان سري.

«حُبُّ الأنصار إيمانٌ وبُغضُهُم نفاق»[٣].

وهذا معيار مهم، حب الأنصار من الإيمان وبغضهم من النفاق، لم يرو عنه ﷺ إلا في حق علي بن أبي طالب عليه السلام. معيار مهم جدًّا، فبعد المعيار الأول في عدم التعارض مع القرآن، فإن الروايات التي تلاعبت بها الحزبيات والعصبيات والسياسة لا بد أن تلمس خفايا النفوس: أمؤمنٌ أم منافق؟ وهذا عسير، ولكن الله يسره لنا عن طريق إخبار نبيه ﷺ أن حب علي عليه السلام وحب الأنصار من الإيمان

(١) سيرة ابن هشام ص٤٩٩، كما رواه أحمد.
(٢) صحيح البخاري ج٥ ص٣٥ رواية ٣٨٠١، وصحيح مسلم ج٤ ص١٩٤٩ رواية ٢٥١٠.
(٣) مروي بصيغ متعددة، منها كهذه في مسند أحمد، ومنها «آية الإيمان حب الأنصار، وآية النفاق بغض الأنصار» في كتابي البخاري ومسلم فتح الباري للحنبلي رواية ١٧١٧.

وبغضهما من النفاق.

(٥) إخبار النبي صلى الله عليه وآله وسلم بما سيلقونه بعده

روى الواقدي أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أراد أن يكتب البحرين للأنصار تكون (خراجها) لهم وحدهم بعده، فرفضوا وقالوا: «ما حاجتنا بالدنيا بعدك يا رسول الله؟ قال: "سترون بعدي أثرة فاصبروا حتى تلقوا الله ورسوله، فإن موعدكم الحوض"»[(١)].

وتنص بعض رواياتها إلى ذلك الإيثار الأنصاري الذي أعلنه القرآن، فقد أخرج البخاري وغيره رفض الأنصار أن يوصي النبي صلى الله عليه وآله وسلم لهم بشيء دون المهاجرين!

«دعا النبي صلى الله عليه وآله وسلم الأنصار ليكتب لهم بالبحرين، فقالوا: لا والله حتى تكتب لإخواننا من قريش بمثلها»[(٢)]، وفي صيغة أخرى «لا، إلا أن تقطع لإخواننا من المهاجرين مثلها»[(٣)]، وفي ثالثة «يا رسول الله إن فعلت فاكتب لإخواننا من قريش بمثلها»[(٤)]، وفي كل واحدة يخبرهم: «إنكم سترون بعدي أثرة فاصبروا حتى تلقوني».

أي أنه يقول لهم بشكل غير مباشر: أريد أن أكتب لكم شيئًا لأن المهاجرين وغيرهم من قريش سيمنعونكم - فأنتم تؤثرون على

(١) البخاري رواية ٧٠٥٧.
(٢) البخاري رواية ٣١٦٣.
(٣) نفسه رواية ٣٧٩٤.
(٤) نفسه رواية ٢٣٧٧.

أنفسكم وهم يؤثرون أنفسهم عليكم!

ويبدو أنه ﷺ أراد الاحتياط للأمر بكتابة البحرين لهم؛ كما أنه احتاط بالأمر العام في الرواية التالية:

«أوصيكم بالأنصار فإنهم كرشي وعيبتي وقد قضوا الذي عليهم وبقي الذي لهم فاقبلوا من محسنهم وتجاوزوا عن مسيئهم»[(١)].

(٦) موقف قريش من الأنصار

أولًا: موقف الخلفاء الثلاثة.

لم يسند إلى الأنصار شيء من المناصب لا في زمان أبي بكر ولا عمر ولا عثمان؛ وفي هذا دلالة على وجود نظرة شك في ولائهم للخلافة.

ثانيًا: موقف المحدثين والمؤرخين.

هؤلاء معظمهم ليسوا من قريش، ربما أكثرهم من الأعاجم، الفرس بالخصوص، ولكنهم كانوا «قرشيي الموقف» ساروا مع سفينة الحكم.

موقف علماء المسلمين السنة من الأنصار يشبه موقفهم من أهل البيت عليهم السلام: تعظيم وتبجيل ولكن دون إعطائهم حقهم النابع من دورهم في الدين.

(١) البخاري رواية ٣٥٨٨.

مثالان يكفيان:

١- حديث العشرة المبشرة بالجنة.

حديث من أشهر الأحاديث، كتبت فيه الكتب وقصص الأطفال والمسلسلات والقصائد.

«أبو بكر في الجنة، وعمر في الجنة، وعثمان في الجنة، وعلي في الجنة، وطلحة بن عبيد الله في الجنة، والزبير بن العوام في الجنة، وسعد بن أبي وقاص في الجنة، وعبد الرحمن بن عوف في الجنة، وأبو عبيدة عامر بن الجراح في الجنة، وسعيد بن زيد بن عمر وبن نفيل في الجنة».

ليس المقام مقام تحليل الحديث، ولكن المهم هو أن الحديث يخلو خلوًّا تامًّا من الأنصار!

فهل لا يستحق أحد منهم البشارة بالجنة؟!

أين أبو أيوب الذي شاء الله أن تبرك ناقته ﷺ عند داره فينزل عنده؟

أين خزيمة بن ثابت الوحيد الذي قبل ﷺ شهادته بشهادة رجلين، وهذا بأمر الله قطعًا؟

أين أبو الهيثم بن التيّهان من أوائل الأنصار حيث شهد بيعتي العقبة، والذي كان يقول بالتوحيد قبل الإسلام؟

وغيرهم وغيرهم...

٢- من أرض الواقع، دور الأنصار في قيادة الفتوح.

يحفظ المسلمون أسماء خالد وأبي عبيدة وسعد ومعاوية لأنها تدرس في المدارس وتشاهد في المسلسلات وتقرأ في المؤلفات، ولكنهم لا يعرفون شيئًا عن الأدوار الكبيرة للقادة المباشرين للعمليات، وبالذات الأنصار، كعبادة بن الصامت أحد النقباء في العقبة وأبي أيوب وعثمان وسهل ابني حنيف ومحمد بن أبي حذيفة وأبي الهيثم بن التيهان الأوسي العقبي أيضًا؟

وعليه، فإن وصية النبي ﷺ بالأنصار لم تلق آذانًا صاغية، وإلا أين «الذي لهم» عند الخلفاء والولاة والعلماء، ما عدا كلمات هنا وهناك في كتب ترفع غيرهم عليهم، بل وترفع من لم يدخل الإسلام إلا بعد اليأس من الكفر.

الفَصْلُ العَاشِرُ

مناقشة آيات الثناء على صحابة النبي صلى الله عليه وآله وسلم

«الآية التاسعة»

الآية التاسعة

السؤال: الآية ٩

وتأملوا الآية بعدها:

﴿والذين جاؤوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل في قلوبنا غلًا للذين آمنوا ربنا إنك رؤوف رحيم﴾[١]

***

النقاش

«والذين جاؤوا من بعدهم»

هذه هي المجموعة الثالثة، جميع من دخل الإسلام بعد المهاجرين والأنصار، زمنيًّا، لأن السياق يدل عليه («تَبَوَّؤُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ» زمنيًّا)، إضافة إلى قوله «جاؤوا من بعدهم» أي بعد المجموعتين المذكورتين في الآية قبلها وهم المهاجرون والأنصار (مع نقطة توصيف المهاجرين بكلمة "الفقراء"، ولكن لا داعي

(١) الحشر: ١٠.

للنظر الدقيق فيها لأنها تكثر من التفاصيل)...

هؤلاء يتعاملون مع من سبقهم بالمحبة، بحيث يتوجهون بالدعاء:

لهم بالمغفرة؛ ولأنفسهم بالمغفرة وسلامة الصدر من الحقد.

هذا ما ينبغي أن يكون عليه المؤمن الحقيقي، لأنه لا ينظر إلى الدنيا إلا بما يتعلق بالله، فما لقلبه والانشغال بالحقد والبغض؟

فإن قيل: ماذا عن «البراءة» من أعداء الله؟

قلت: «البراءة» تعني الابتعاد عن أقوالهم وأفعالهم وعدم الاصطفاف معهم، أما البغض فأين يجد له مكانًا في قلب امتلأ بحب الله وأوليائه؟

«ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان».

ولكن من يستحق صفة «إخواننا» وسبقهم لنا بـ«الإيمان»؟ صفتان: «إخوان» و«الإيمان».

ويمكن الجمع بينهما في قوله تعالى ﴿إنما المؤمنون إخوة﴾[1] فصفة «إخوة» تنطبق على من تحققت فيهم صفة «مؤمنين»، والآية موضع التدبر تقول: إنهم سبقونا «بالإيمان».

هل إن الآية تقصد جميع «المسلمين»؟

(١) الحجرات: ١٠.

نعود إلى ضرورة ملاحظة الأقسام المختلفة للمسلمين:

المؤمنون والذين في قلوبهم مرض والذين في قلوبهم زيغ والذين يترددون والذين كفروا بعد الإيمان وغيرهم وصولًا إلى المنافقين.

فلو كانت الآية تريد الجميع ممن أعلن دخول الإسلام وتلفظ بالشهادتين وصار يمارس العبادات في الظاهر دون أن نعلم باطنه من هذه الأقسام لكانت قالت «الذين سبقونا بالإسلام»، فلما حددت السبق «بالإيمان» علمنا أن المراد هم المؤمنون حقًا الذين تحققت فيهم هذه الصفة واستمروا عليها إلى آخر لحظة، لأن البعض - كما ذكرنا - ممن «كفروا بعد الإيمان» ﴿لا تعتذروا قد كفرتم بعد إيمانكم إن نعف عن طائفة منكم نعذب طائفة بأنهم كانوا مجرمين﴾[1] (وهم المشتركون في الجريمة العظمى محاولة قتل النبي ﷺ في العقبة عند عودته من تبوك).

فكيف نستغفر لمثل هؤلاء؟

لقطة جميلة

من نتاج الجمع بين التدبر القرآني والعلم بالتاريخ ما أثرى به سماحة العلامة الشيخ حسن بن فرحان المالكي البحوث الإسلامية في هذا المجال. من ذلك هذه اللقطة المتعلقة بالآية قيد البحث.

(١) براءة:٦٦.

قال: «وكثير ممن كتب في الموضوع يجعل قوله تعالى ﴿والذين جاؤوا من بعدهم﴾ فينا فيوجب علينا الاستغفار للسابقين (ويدخلون فيهم الطلقاء) ولا يوجبها على الطلقاء - مع أنهم من أوائل المخاطبين وأوائل المخالفين - ثم يجعل قوله تعالى «وكلًا وعد الله الحسنى» تشمل الطلقاء ولا تشملنا! مع أننا أقل جرمًا في حق ظلمة الطلقاء منهم في حق كبار السابقين، وهذا تناقض في أمور متشابهة، بل الحجة عليهم في هذه الآيات أكثر منها لهم لو أنهم تدبروا القرآن الكريم واستشعروا وجوب تكريمه من أن يثني على ظالم أو يأمر بمحبة فاسق».

يريد القول: إنهم يوجبون الاستغفار علينا لـ «جميع» من سبق ومنهم الطلقاء وعلى رأسهم الباغي معاوية بن أبي سفيان، بينما لا يوجبون هذا على معاوية نفسه الذي سن سب أمير المؤمنين عليه السلام -نعوذ بالله وبه نستجير- على المنابر العقود المتطاولة!

وهذا هو ديدنهم في التشديد علينا والتخفيف على الصحابة، مع أن الحجة عليهم آكد وآكد.

ثم يدافع عن ساحة الكتاب العزيز الذي لا يمكن أن يثني على الظلمة أو يأمر بمحبة الفسقة.

***

الخلاصة في الآية قيد البحث

تدعو الآية إلى الاستغفار لنا ولمن سبقونا من «المؤمنين» حصرًا، وبالتالي لا يمكن أن تكون دليلًا على تعديل «جميع» الصحابة، لأن فيهم غير المؤمنين حقًّا كما أسلفت.

تدعو إلى سلامة الصدر من الغل نحوهم، وهو ما ينبغي أن يحاول أن يكون عليه المؤمن، فإن المؤمن إذا اشتد تعلقه بالله تعالى فلا يبقى عنده مكان للغل والحقد.

الفَصْلُ الحَادِي عَشَر

مناقشة آيات الثناء على صحابة النبي صلى الله عليه وآله وسلم

«الآية العاشرة»

الآية العاشرة

(السؤال): الآية ١٠

ويقول تعالى:

﴿لا يستوي منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل أولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا وكلًا وعد الله الحسنى والله بما تعملون خبير﴾[١].

فكم سيكون عدد هؤلاء الصحابة الذين زكاهم الله تعالى وعدَّلهم ممن شملتهم الآيات؟ ومن الذي سيبقى؟ أهم الذين أنفقوا من بعد الفتح وقاتلوا؟ أو ليس الله تعالى يقول: «وكلًا وعد الله الحسنى»؟

***

النقاش

معياران في هذه الآية المباركة:

الأول: الإنفاق.

(١) الحديد: ١٠.

الثاني: القتال.

جعلتهما هما اللذين يحددان التفاضل بين الصحابة؛ ولكن هنا التفاضل في «زمان» القيام بهذين الفعلين - قبل الفتح أو بعد الفتح.

ثم تأتي البشارة أن الجميع موعودون بالـ «حُسنى»، الأجر الحسن؛ لتختم أن الله «خبير» مطلع على ما تقومون به.

في الآية نقاط:

الأولى: معنى «لا يستوي».

هل إن عامل الزمن وحده يفضل أي واحد أنفق وقاتل قبل الفتح على أي واحد أنفق وقاتل بعد الفتح، أم أن لدرجة الإنفاق والقتال وظروفهما مدخلية؟

الثانية: معنى «الفتح».

أهو فتح مكة كما يفهم من كلمة «فتح» التي صارت سائدة تتعلق بفتح مكة سنة ٨هـ، أم غيره؟

الثالثة: معنى «منكم».

هل المقصود جميع المخاطبين وهم الصحابة قبل «الفتح»، لأن الآية تذكر قبل الفتح وبعده فلا بد أنها بعد الفتح، هل كلهم؟

أم أن «منكم» هم «كانوا قبل الفتح» و«أنفقوا وقاتلوا قبل الفتح»

وعندها، يكون من الإنصاف المقارنة مع هؤلاء فيما بينهم، وليس مع الذين شاءت ظروفهم أن لا يسلموا إلا بعد الفتح؟

فلو أن رجلًا أسلم بعد الفتح، بغض النظر عن تشخيص الفتح، وأنفق نصف ماله مثلًا وقاتل قتالًا شديدًا، سيبقى أقل من رجل أنفق قبل الفتح قليلًا من ماله الكثير ولم يقاتل قبل الفتح إلا قليلًا؟

الرابعة: البشارة للجميع

بغض النظر عن التشخيص والزمان، فإن المعنيين بالآية قد نالوا البشارة بالحسنى من الله تعالى.

هؤلاء المعنيون، قبل الفتح وبعده، نالوا البشارة بشرطي (١) الإنفاق (٢) القتال.

ولكن مع ملاحظة أخرى تخص طبيعة الفعل:

هل إن من أنفق بدافع الرياء يستحق البشارة؟

هل إن من قاتل بالعصبية العشائرية أو من أجل أن لا يوصف بالجبن يستحق البشارة؟

قطعًا لا، فإن النية لا تنفك عن قبول العمل في كل شيء.

***

مرة أخرى: ليس صكًا أبديًا

مرة أخرى أقول: إن هذه البشارات حالها حال غيرها مشروطة ببقاء الحال على الحال الحسن عمومًا، أما الانقلاب والتغير فإنه يطيح بالبشارة لأن من كان أهلًا لها لم يعد بعد الانحراف أهلًا لها.

هل إن «منكم» تعني «من جنسكم»؟

هذا، وكانت الأخت السائلة قد قالت (في النقاش بعدها): إن «منهم» في آخر سورة الفتح ﴿وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجرًا عظيمًا﴾[١] تعني الجنس، أي «من جنسهم»، فيتعين القول هنا: إن الاحتمال قائم أن «منكم» في «أنفق منكم من قبل الفتح وقاتل» أي «من جنسكم» في إنفاقه وجهاده، خصوصًا وأنه:

- ثبت بالواقع أن هناك من أنفقوا وقاتلوا بعد الفتح وثبتوا بينما مال من قاتل قبل الفتح.
- ثبت بالواقع أنه ليس كل فرد ممن كان قبل الفتح على نفس الشاكلة، وبالتالي فالآية تتحدث عن الصورة العامة ومن يتصف بها وليس كل فرد فهذا مستحيل.
- ما ذنبنا نحن أننا ولدنا بعد الفتح فلم يتسن لنا إثبات أننا نستحق «أعظم درجة»؟

---

(١) الآية موضع بحث الفصل ٢٨.

(قد ذكرت في الفصل السابق ما قاله الشيخ حسن فرحان المالكي:

وكثير ممن كتب في الموضوع يجعل قوله تعالى ﴿والذين جاؤوا من بعدهم﴾ فينا فيوجب علينا الاستغفار للسابقين (ويدخلون فيهم الطلقاء) ولا يوجبها على الطلقاء - مع أنهم من أوائل المخاطبين وأوائل المخالفين - ثم يجعل قوله تعالى «وكلًا وعد الله الحسنى» تشمل الطلقاء ولا تشملنا! مع أننا أقل جرمًا في حق ظلمة الطلقاء منهم في حق كبار السابقين...).

أقول: بينما يوجبون علينا أن نستغفر لجميع من قبلنا لأننا «من بعدهم» بينما في نفس الوقت يجعلون «من بعد» في السورة قيد البحث فقط لمن أسلم بعد الفتح في العهد النبوي أي للصحابة؛ فما هذا التحكّم مع أن "بعد" هنا معناها "بعد" هناك، أي البعدية الزمانية.

مرة أخرى، يتساهلون مع الصحابة ويشددون على غيرهم.

وعليه، فمن يذهب إلى ذلك الرأي وهو أن «منكم» هناك تعني من جنسكم لا بد من تطبيقه هنا أيضًا.

الفَصْلُ الثَّانِي عَشَر

مناقشة آيات الثناء على صحابة النبي صلى الله عليه وآله وسلم

خاتمة: عقدة الصحابة - إفراط وتفريط

خاتمة: عقدة الصحابة ـ إفراط وتفريط

أولًا: القرآن دقيق

علينا أن ندقق في كل كلمة، بل أحيانًا في حركات الكلمات، من أجل معرفة لماذا استخدم هذه الكلمة، وذلك التعبير، وتلك اللفتة الإعرابية في قواعد اللغة؛ ولم يشأ المولى عز وجل أن يتعبنا في تدبر كتابه، ولكنه\ أراد -حسب ظني-:

- تثبيت الإعجاز القرآني الفريد
- استثمار الحجم الصغير للقرآن مقارنة بأهدافه الكبيرة الهائلة.

ثانيًا: الواقع على الأرض والقرآن متعاضدان.

إن النصوص القرآنية المتعلقة بالناس ليست نصوصًا ميتافيزيقية أو أفكارًا مجردة، بل هي متناغمة مع الواقع، كاشفة له، مشيرة إلى تفاصيله وخفاياه.

وعليه فإننا:

عندما نقرأ نصًّا قرآنيًّا يثني على قوم ويذم آخرين فلا بد من عرضه على الواقع كي نتبين المقصود.

وعندما نعلم عن حوادث معينة بالتاريخ القطعي، فإننا لا يمكن أن نستخدم القرآن لإلغائها أو إهمالها أو تناسيها وإهمال آثارها والدروس منها.

ثالثًا: التمييز الدقيق للمصطلحات

عندنا مشكلة كبيرة في المصطلحات، فلا نكاد نفرق بين القرآن والكتاب والذكر والمصحف وما شئت، أو نفرق بين «الذين آمنوا» و«المؤمنون»، أو بين «المسلمون» و«المؤمنون»، أو بين «الصاحب» و«الصديق»، وهكذا في الكثير من المباحث القرآنية.

ولعل من المصطلحات الصرعى في خضم الاختلاف المذهبي والتاريخي مصطلح «الصحابة» الذي فهم منه الثناء مع أنه لا يعني «لغويًا» غير المصاحب في المكان، ولا يعني «قرآنيًّا» ما يخالف اللغة كي نعتبر القرآن مخصصًا للمصطلح اللغوي، ولا يعني «تاريخيًّا» أن الصحابة كانوا «أصدقاء» النبي ﷺ، ولا يعني أن «زمن الصحبة» كان متساويًا عند ألوف الصحابة، ولا يعني -بكل تأكيد- ما نتج عن الإفراط الشديد في الصحابة بحيث صاروا كلهم عدولًا لا يجوز المس بهم، فإن قُبِل النقد فإن الجواب هو أن الموقوف إن كان خطأ فهو ناتج عن «اجتهاد» والذي حصل الصحابي معه على أجر!

رابعًا: أهم مصطلح «المؤمنون»، فمن هم المؤمنون؟

إلا أن أهم المصطلحات الواجب التحقق منها في التدقيق التدبري هو مصطلح «المؤمنون».

فمن هم «المؤمنون»؟

انظر في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾[1].

أداة الحصر «إنما» تعني أن التعريف بعدها حصري لا بد من الالتزام به.

فماذا يتضمن التعريف؟

الإيمان بالله.

الإيمان بالرسول صلى الله عليه وآله وسلم.

عدم الشك في الدين.

الجهاد بالأموال في سبيل الله.

الجهاد بالنفس في سبيل الله.

من جمعت فيه هذه الصفات والشروط، فيندرج ضمن «المؤمنون الصادقون»، أي الذين صدقوا في ادعائهم الإيمان.

فهل إن آيات الصحابة تقطع بهذه الصفات والشروط لسائر الصحابة؟

---

(١) الحجرات: ١٥.

بالتأكيد كلا، وذلك بالدليل القرآني والحديثي والتاريخي:

قال تعالى ﴿وتظنون بالله الظنونا﴾[(١)]؛ وقال النبي ﷺ موضحًا عدم شموله دعاءه لجميع الصحابة في الحديبية بعد رفضهم الحلق والتقصير، أن الذين دعا لهم «لأنهم لم يشُكُّوا»[(٢)]، ما يعني أن الآخرين شكّوا في الدين.

ومن التاريخ والسيرة وجدنا بعض الصحابة يقولون بكل وضوح «ما شككت مثل اليوم»، أي أنه تعرض إلى الشك الداخلي في الإيمان أكثر من مرة ولكن في الحديبية كانت الأشد.

وعليه، فحتى لو أعلن الصاحب الشرطين ١ و٢ أعلاه، وقام بالشرطين ٤ و٥ أعلاه، فإن الشرط ٣ وهو شرط عدم الشك في الدين من العسير معرفته لأنه قضية قلبية لا يعلمها إلا الله تعالى. هذا عمومًا، فكيف بمن صرّح بها هو نفسه ثم نأتي لنضمه في المؤمنين الصادقين؟

وإذا قيل: ولكن الشك في حادثة هنا أو حادثة هناك لا يعني دوام الشك؟

أقول: نعم بكل تأكيد، يمكن أن يأتي أعظم اليقين بعد الشك، ولكننا لا نبحث في حال الصحابي إلى آخر عمره هنا، ولكن في

---

(١) الأحزاب: ١٠.
(٢) مسند أحمد ج١ ص٣٥٣، وتاريخ الطبري ج٢ ص٦٢٧، والبداية والنهاية لابن الأثير ج٤ ص١٦٩.

قضيـة صـدق الإيمـان وشـروطها العامـة.

نكتة قرآنية رقم ١

لا يفوتنكـم دقـة القـرآن عندمـا يقـول: «ثـم لـم يرتابـوا» في استخدامه أداة العطف «ثم» والتي تعني حصول مدة زمنية بين ما قبلها «آمنوا بالله ورسوله» وهـو إعـلان الإسـلام ودخـول الديـن ومـا حصـل فـي حـوادث بعـده بمـدة «ثـم» زلزلتهـم ولكنهـم ثبتـوا «لـم يرتابـوا».

نكتة قرآنية رقم ٢

ولا يفوتنكـم التعبيـران «المؤمنـون» و«الذيـن آمنـوا»، فـإن الأول يكتـب عنوانًـا هـو «المؤمنـون»، ثـم يضـع الشـروط، وأولهـا «الذيـن آمنـوا»، فلـم يقـل «المؤمنـون» مـرة أخـرى، وذلـك لأنـه مـن الضـروري جـدًّا الانتبـاه إلـى أن مصطلـح «الذيـن آمنـوا» تعنـي الجماعـة المسـلمة التـي أعلنـت إسـلامها فـي دخولهـا الديـن. وهـذا لا يعنـي بالضـرورة الإيمـان الحقيقـي أو المطلـوب فـي حـده الأدنـى، بدليـل أن القـرآن طلـب منهـم ﴿ولكـن قولـوا أسـلمنا ولمـا يدخـل الإيمـان فـي قلوبكـم﴾[1]، فكأن الإيمـان يحتـاج إلـى معرفـة ومكابـدة قبـل تحققـه فعـلًا.

ناهيـك عـن درجـات الإيمـان ومحطّاتـه التـي يخبرنـا عنهـا قولـه تعالـى ﴿يـا أيهـا الذيـن آمَنـوا آمِنـوا باللـه ورسـوله...﴾[2] وقولـه تعالـى

(١) الحجرات: ١٤.
(٢) النساء: ١٣٦.

﴿ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم وكثير منهم فاسقون﴾(١) وغيرهما.

فهم «الذين آمنوا» وحسب، ثم تتحقق الشروط الأخرى لينتج «المؤمنون الصادقون».

خامسًا: لماذا إهمال آيات الذم؟

إن إهمال آيات الذم في الناس المحيطين بالنبي ﷺ يعني أمرين:

- رفض بعض آيات القرآن لأنها تخالف الهوى.
- اتخاذ موقف مسبق جاء من خارج القرآن ومعارض له.

فهل هذا سينتج فهمًا حقيقيًّا للعهد النبوي وتقييمًا سليمًا للصحابة؟

سادسًا: لماذا البحث في الممدوحين والمذمومين؟

كما أنه من الظلم أن نغفل عن المؤمنين الصادقين من الصحابة، وعن المواقف المشرفة الرائعة لهؤلاء، في السلم وفي الحرب، فإنه من الظلم أن نساويهم بمن لم يكن صادقًا على الدوام، أو من لم يكن مماثلًا لهم في المواقف.

---

(١) الحديد: ١٦.

هذا للممدوحين بدرجات متفاوتة...

فكيف سيكون الظلم إذًا إذا ما ساوينا الممدوحين والمذمومين؟

هذه نقطة عن النظرة المنصفة.

النقطة الأخرى تتصل بخداع النفس في مورد البحث العلمي الذي له علاقة بافتراق الناس بعد النبي ﷺ، فقد وجدنا المواقف المختلفة إلى درجة التعارض الذي وصل إلى الحرب المباشرة، فكيف سنخرج بنتائج تعلمنا الموقف الشرعي الذي ربما سنواجهه في حياتنا إذا ما وقعنا في أمثال تلك الحالات؟

هل نحن نقرأ القرآن للبركة أو نقرؤه للعمل به؟

فكيف نعمل به ونحن لا نتعلم منه كما يجب؟

يقص علينا القرآن قصص الماضين من الأمم ثم لا ننظر في قصص الأمة الإسلامية في أهم عهد لها وهو عهد التأسيس زمن النبي ﷺ؟

يقول لنا القرآن: ﴿لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب﴾[(١)] أي العقول، ثم نلغي عقولنا أو لا نحترمها إذ لا نستفيد العبر من قصص العهد النبوي التي قصها القرآن؟

يقول لنا القرآن: إن الغاية من هذا كله هو ﴿لتستبين سبيل

(١) يوسف:١١١.

المجرمين﴾[١] ثم لا يهمنا أن نسقط فيها نتيجة إهمالنا هذه القصص والدروس والتكليف الشرعي منها؟

سابعًا: لنترك الموصوفين بالنفاق، ماذا عن الكتلة الإسلامية كلها؟

عند الإشكال على مواقف بعض الصحابة في العهد النبوي كثيرًا ما يكون الرد أن هؤلاء هم المنافقون وحسب وأن الصحابة شيء آخر.

طيب، لو تنازلنا عن هذا الخطأ الفادح المنتشر، وهو رفع المنافقين (إضافة إلى الذين في قلوبهم مرض والذين في قلوبهم زيغ والذين كفروا بعد الإيمان) من بين الصحابة، نتيجة الخطأ في فهم معنى كلمة «صحابة»، التي بدلًا من أن تعني الصاحب في المكان صارت تعني الصديق الصدوق المخلص.

ولو تنازلنا عن نقطة بديهية: المنافق «يخفي» نفاقه (بغض النظر عن معانيه ومستوياته وأسبابه) في قلبه، وبالتالي لا يمكن معرفة المنافق، فكيف سيفرزون المنافقين من الصحابة (!).

لو تنازلنا عن هذا وقبلنا أن الصحابة لا يتضمنون المنافقين وغيرها من الأصناف السيئة، هل يمكننا إغفال الأمثلة الواضحة التي قصها القرآن عن الفشل العام أو شبه العام من الصحابة؟

(١) الأنعام: ٥٥.

◆ **مثالان صارخان:**

١- سورة الجمعة

في آخرها تقص علينا كيف أن غالبية الصحابة تركوا النبي ﷺ يخطب على المنبر وخرجوا إلى قافلة التجارة واللهو! والروايات تقول: إن الذين لم يخرجوا كانوا ١٢ رجلًا فقط!

فهل إن الصادقين كانوا ١٢ فقط والباقي منافقون أم أن النظرة المتوازنة تقول: إن الصحابة كانوا أحيانًا يفشلون فشلًا فظيعًا لا يسقط فيه عامة المسلمين اليوم، إذ لا يخرجون أثناء الخطبة مع أن الخطيب ربما لا يساوي نعال النبي ﷺ.

٢- التصدق عند النجوى

آية تأمر بتقديم صدقة إلى النبي ﷺ (يستخدمها في سد بعض حاجة فقراء المسلمين، لأن الصدقة عليه حرام، فما يقدم ليس إليه قطعًا)، فلا يعمل بها سوى علي بن أبي طالب عليه السلام؟! واحد فقط؟

أين الأغنياء من الصحابة الذين قيل لنا: إنهم تبرعوا بالمبالغ الطائلة خدمة للدين؟

أحجموا لعدة أيام حتى نزلت الآية بعدها ترفع التكليف الشرعي عنهم.

(طبعًا الغاية من هذا هو لبيان التفرد العلوي، وإلا ما معنى أن

ينزل الله تعالى حكمًا هو يعلم بعلمه السابق أنه سيرفعه بعد أيام قلائل؟).

هذان المثالان، وغيرهما كما في أمثلة المعارك ومثال الحديبية، يعطيان صورة مختلفة تمامًا عما رسمتها الدولة الإسلامية الأموية ومن بعدها وترسخت إلى اليوم، وصارت هي من أهم أسباب النفور بين المسلمين والحكم من بعضهم على البعض الآخر بالنفاق والكفر.

ثامنًا: الموقف لا ينتهي بوفاة الرسول ﷺ، بل على العكس، إن القرآن لم يكتف بالتنبيه إلى الأحوال المختلفة المتفاوتة للصحابة على عهد النبي ﷺ، ولكنه أنذر الأمة بما سيحصل بعده. وهذه يمكن الاستفادة منها من صريح القرآن كما في البيان الرسولي.

آية الانقلاب على الأعقاب

آية واضحة «أنذرت» بما يمكن أن يحصل بعده ﷺ، ليس من علم الله السابق وحسب، ولكن بعد تجربة عملية في «أُحُد» كشفت مواقف مؤسفة جدًّا للمسلمين ولبعض كبار الصحابة بالخصوص.

﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللهُ الشَّاكِرِينَ﴾[1].

(١) آل عمران: ١٤٤.

نعرف أن معركة «أحُد» بدأت بانتصار للمسلمين، ثم هزيمة، سببها «مخالفة أمر النبي ﷺ» للرماة بعدم النزول من الجبل للحصول على الغنائم، أي «الدنيا»، ولم ينفع نهي رئيسهم عبد الله بن جبير فثبت هو وثمانية معه وقاتلوا حتى استشهدوا (رض).

إذًا، هناك:

«انتصار ببذل الجهد» و«هزيمة لحب الدنيا» و«نجاح العصيان حتى بعد تذكير القائد».

وهذه حصلت بالضبط بعد وفاة النبي ﷺ، تخبر الآية عنها كاحتمال قائم، سواء بالقتل كما في أحد أو بالموت الطبيعي.

التعبير ﴿انقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ﴾ في غاية الدقة، فهو يصور تغيير الوجهة ١٨٠ درجة، أي أداروا ظهرهم للأوامر الشرعية.

ثم يحذرهم «وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىَ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللهَ شَيْئًا» - لا تتصوروا أنكم تديرون ظهوركم للنبي ﷺ، وطالما قد مات أو قتل فلا حساب، لأنكم «تديرون ظهوركم لله» وعندها (١) لا تضروه (٢) أين المفر منه؟

ثم البشارة للمؤمنين ﴿وَسَيَجْزِي اللهُ الشَّاكِرِينَ﴾:

لم يقل «سيجزي الله الثابتين» أو «غير المنقلبين على الأعقاب» مثلًا، ولكن «الشاكرين»، أي الذين موقفهم في «الثبات» يتمثل في «إدراك نعمة الإيمان» و«شكرها بالبقاء على العهد».

السيرة تخبرنا:

أن الجيش الإسلامي كله هرب ما عدا أنفارًا؛ وثبت علي عليه السلام (طبعًا) وأبو دجانة (رض) (الأعرج)، يقاتلان دفاعًا عنه صلى الله عليه وآله وسلم؛ وقاتلت نسيبة بنت كعب وعائلتها (رض). أي أن المرأة والرجل الأعرج اللذين ليس عليهما قتال قاتلا بينما هرب «الأبطال»!

ويستمر هروب الصحابة على الجبل حتى والرسول صلى الله عليه وآله وسلم ﴿يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ﴾[1].

وعندما سمع بعض الكبار إشاعة أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قد قتل جلسوا ينتظرون ابن سلول شيخ المنافقين ليتوسط لهم عند أبي سفيان شيخ الكافرين! فقال لهم أنس بن النضر: «إن كان محمد قد قتل فإن رب محمد لم يقتل! فقاتلوا على ما قاتل عليه محمد صلى الله عليه وسلم. اللهم إني أعتذر إليك مما يقول هؤلاء، وأبرأ إليك مما جاء به هؤلاء!» (رواها المفسرون في آيات غزوة أحد) وقاتل حتى استشهد (رض).

فهل من العدل مساواة ابن النضر ونسيبة المازنية وأبي دجانة مع الذين خلعوا إيمانهم وصاروا ينتظرون عفو الكافرين؟

وهل من هذه مواقفهم في حياته صلى الله عليه وآله وسلم نستغرب «انقلابهم على الأعقاب» بعد وفاته صلى الله عليه وآله وسلم؟

---

(١) آل عمران:١٥٣.

إذا كان وجوده ﷺ الطاغي بالتأييد الإلهي بالوحي، واحتمالات فضحهم بالوحي القائمة في كل لحظة لم تنفع في جعلهم يثبتون ولو نفاقًا فكيف بالحال بعده ﷺ وقد أمنوا انتهاء الوحي والفضيحة المحتملة؟

إنذار المرجعية الرسولية.

أولًا: حديث أبي مويهبة.

خرج الصحابي أبو مُوَيْهِبَة مع النبي ﷺ ليلًا للاستغفار لأهل البقيع، فدخل وأخذ بالاستغفار لموتى البقيع، ثم قال ﷺ:

«السلام عليكم يا أهل المقابر، ليهن لكم ما أصبحتم فيه مما أصبح فيه الناس، لو تعلمون ما نجاكم الله منه، أقبلت الفتن كقطع الليل المظلم يتبع أولها آخرها، الآخرة شر من الأولى».

وفي رواية: «ليهنيكم ما أنتم فيه مما فيه الناس، أتت الفتن كقطع الليل يركب بعضها بعضًا الآخرة أشد من الأولى، فليهنيكم ما أنتم فيه»[1].

فهو يعلن ﷺ أن الناس أصبحوا في حالة سيئة، ويهنئ موتى البقيع، وهذا لأمرين:

- أحوالهم صارت منحرفة.

(١) مسند أحمد رواية ١٥٥٦٧، وسنن الدارمي رواية ٧٨، والطبراني في المعجم الكبير رواية ٨٧١ والحاكم في المستدرك رواية ٤٣٨٣.

◆ هذه الأحوال مقدمة للفتن التي سيغرقون فيها.

وبما أنهم أصبحوا في تلك الحالة السيئة وهو على قيد الحياة، إذًا سيقعون في الفتن لأنهم صاروا جاهزين.

فإذا ما وجدناهم اختلفوا أشد الاختلاف في بيعة أبي بكر، فلا بد أن بيعة أبي بكر كانت فاتحة الفتن.

ومما يثبت أن مآسينا هي نتاج تلك الفتنة الأولى أنه ﷺ يصف الفتن «يتبع بعضها بعضًا»، بل وأشد توكيدًا «يركب بعضها بعضًا»، فالثانية ركبت نتائج الأولى، والثالثة نتائج الثانية، وهكذا.

ثانيًا: حديث مواقع الفتن

قال النبي ﷺ للصحابة: «هل ترون ما أرى؟ إني لأرى مواقع الفتن خلال بيوتكم كمواقع القطر»[(١)]، وفي بعضها «كوقع القطر»، وفي بعضها الآخر «كوقع المطر».

ثالثًا: أحاديث الحوض

عقيدة أهل السنة في الذي جرى بين الصحابة من مشاكل كالآتي: «ونعتقد أن ما جرى بين الصحابة (رض) من الفتن، فقد صدر عن تأويل اجتهدوا فيه فمن كان منهم مصيبًا كان له أجران، ومن كان منهم مخطئًا فله أجر واحد وخطؤه مغفور له»[(٢)].

---

(١) البخاري رواية ١٨٧٨، ومسلم باب نزول الفتن كمواقع المطر رواية ٢٨٨٥.
(٢) شرح عقيدة أهل السنة والجماعة لمحمد صالح العثيمين.

هذا الحكم يصادمه أحاديث النبي ﷺ بما سيحصل يوم القيامة على الحوض؛ هاك بعضًا مما في صحيح البخاري:

- «... ثم يؤخذ برجال من أصحابي ذات اليمين وذات الشمال فأقول أصحابي فيقال: إنهم لا يزالون مرتدين على أعقابهم منذ فارقتهم...»[(١)].

و«لا يزالون» تعني الاستمرار فليسوا المرتدين الذين انتهوا بعد بضعة أشهر، وأن ارتدادهم بدأ «منذ» لحظة وفاته ﷺ.

- «يرد عليّ يوم القيامة رهط من أصحابي فيحلّؤون عن الحوض فأقول يا رب أصحابي فيقول: إنك لا علم لك بما أحدثوا بعدك إنهم ارتدوا على أدبارهم القهقرى»[(٢)]؛ بعض الصحابة «ارتدوا» بعد وفاته ﷺ.

- «أنا فرطكم على الحوض وليرفعن معي رجال منكم ثم ليُختَلَجُنَّ دوني فأقول يا رب أصحابي فيقال إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك»[(٣)].

«منكم» من الصحابة المخاطبين، وسبب دفعهم بعيدًا هو الإحداث بعده ﷺ.

وفي بعضها نتيجة مهولة:

---

(١) البخاري ج٤ ص٣٢٣ رواية ٢٤٣.
(٢) البخاري ج٨ ص٢١٦ رواية ١٦٤.
(٣) البخاري ج٨ ص٢١٤ رواية ١٥٧.

◆ «بينا أنا قائم إذا زمرة، حتى إذا عرفتهم خرج رجل من بيني وبينهم فقال هلمّ، فقلت أين، قال: إلى النار والله، قلت: ما شأنهم، قال إنهم ارتدوا بعدك على أدبارهم القهقرى» ثم يكررها، حتى يقول «فلا أراه يخلص منهم إلا مثل همل النَّعَم»[(١)]، القليل جدًّا ثبتوا على العهد، فإن «هَمْل النعم» ليس أكثر من ١ من ٢٠ أو ٥٠ أو ١٠٠ مثلًا.

فما هو الأمر الذي تفرّق فيه الصحابة بعد وفاته ﷺ حتى صاروا فرقة كبيرة خالفت العهد وفرقة صغيرة ثبتت؟

فإذا كان النبي ﷺ يخبرنا أن كثيرًا من الصحابة انقلبوا على الأعقاب وبدلوا ولم يفوا بالعهد، فكيف يقولون: إن ما جرى بينهم (وفيه سفكت الدماء المحرمة واعتدي على أهل بيته عليهم السلام وعلى صحابة آخرين (رض)) يستحقون عليه أجرًا واحدًا على الأقل وربما أجرين؟!

رابعًا: إلفات خاطف من «أولي الأمر»

قال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُواْ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللهُ الَّذِينَ جَاهَدُواْ مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُواْ مِن دُونِ اللهِ وَلاَ رَسُولِهِ وَلاَ الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً وَاللهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾[(٢)].

ذكرها علي عليه السلام بالجمع «ولائج» وهو يشكو:

«حَتَّى إِذَا قَبَضَ اللهُ رَسُولَهُ رَجَعَ قَوْمٌ عَلَى الأَعْقَابِ وَغَالَتْهُمُ

(١) البخاري ج٨ ص٢١٧ رواية ١٦٦.
(٢) التوبة:١٦.

اَلسُّبُلُ وَاِتَّكَلُوا عَلَى اَلْوَلاَئِجِ وَوَصَلُوا غَيْرَ اَلرَّحِمِ وَهَجَرُوا اَلسَّبَبَ اَلَّذِي أُمِرُوا بِمَوَدَّتِهِ وَنَقَلُوا اَلْبِنَاءَ عَنْ رَصِّ أَسَاسِهِ فَبَنَوْهُ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهِ»[١].

تاسعًا: الحكم على الناس لله، ولكن لا بد من الحذر.

لا يجوز لنا الحكم على الناس، فإن الحكم لله تعالى، وذلك لأننا إذا عرفنا الظاهر، وربما لا نعرفه أيضًا للكثيرين إذ ربما جرى الكثير من الكذب والافتراء والتدليس والتعتيم والكتمان، فإننا لا نعرف الباطن الذي لم يطلع عليه إلا الله تعالى، وحتى إذا اطلع البعض عليه فإنه لا يؤخذ به في محكمة الدنيا.

ولكن لا بد من أن نحذر من السقوط في الجهالة التي تقود إلى ﴿سبيل المجرمين﴾[٢] وهي الطامة الكبرى.

ما فائدة إتمام ختمات القرآن الواحدة تلو الأخرى والترتيل والتجويد دون الاستفادة منه في الأمور الخطيرة التي ربما يكون تحديد مصير المكلّف على ضوئها؟

عندما يصف القرآن بعض الصحابة بالفشل في التكليف فإني لا أترضى عليهم في ذلك الفشل، وعندما يصف غيرهم، أو يصفهم هم أنفسهم، بالنجاح في التكليف فإني أترضى عليهم وأدعو لهم.

وعندما يكون هناك ضبابية من خلال الروايات المتناقضة التي

(١) نهج البلاغة الخطبة ١٥٠.
(٢) الأنعام:٥٥.

تحاول تفسير الآيات المختلفة، فإن عليّ الحذر.

عاشرًا: لا إفراط ولا تفريط

على أهل السنة أن لا يُفرِطوا في الصحابة، لأنهم سيساوون بين المحسنين والمسيئين من جهة، وسيسقطون في فخاخ المسيئين ومواقفهم من جهة أخرى.

وعلى الشيعة أن لا يُفَرِّطوا في الصحابة، لأنهم سيظلمون الكثيرين من المحسنين المؤمنين الصادقين الذين لا يعرفون عنهم شيئًا، نتيجة إهمال التاريخ لهم أو جهل الشيعة بهم.

لأنه من يكون هذا السني اليوم الذي يحكم على القرآن حسب مزاجه فيهمل هذه العملية القرآنية الضرورية جدًّا في كشف الوقائع وفضح المخالفين والمسيئين الذين وصل بعضهم إلى حد الكفر بعد الإيمان؟

ومن يكون هذا الشيعي اليوم الذي يحكم على خيار الصحابة الذين آمنوا والدين جديد لا يعرفه أحد وتحملوا العذابات وتركوا الأهل والوطن وقاتلوا الأقربين وشاركوا الأبعدين من أجل الله تعالى ونصرة لرسوله ﷺ، لأنه يجهلهم نتيجة التعامي عنهم الناتج عن الخلافات المذهبية والطائفية عبر القرون؟

كما أن الطريق الوسطى هي الصحيحة في كل شيء، فهي كذلك ها هنا، وإلا فإن الإفراط والتفريط كلاهما غير منطقيين وكلاهما غير منصفين.

البَابُ التَّاسِعُ

تطبيقات

«من نعم الله تعالى»

تقديم

ختامها مسك!

الباب الأخير من الكتاب يتضمن فصلين اثنين، يحيطان بموضوع تدبر القرآن من خلال نعم الله تعالى، فهي المبدأ والمنتهى، من الخلق إلى العدل والجنة.

ونعم الله -كما يخبر سبحانه عنها- أنها لا تحصى، وهي كلمة نفي لا يوجد ما هو أكثر منها صدقًا لأن نعمه تعالى في التنوع والدوام ما لا يمكن إحصاؤه أبدًا...

ولكن دعوني التقط منها:

في الفصل الأول من الباب نعمتين معنويتين تحيطان بغيرهما؛ وفي الفصل الثاني - وهو الأخير في الكتاب - نعمة مادية، أتناولها من جانب الإعجاز العلمي للقرآن الكريم.

الفَصْلُ الأَوَّلُ

نعمتا الذكر والشُّكر

نعمتا الذِّكر والشُّكر

﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُواْ لِي وَلاَ تَكْفُرُونِ﴾[١].

﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾

قلت في فصل سابق: إن هاتين الكلمتين تختصران:

(أ) ما ينبغي على العبد أن يكون عليه في كل حين، أو في أكثر الأحيان، أو على الأقل كلما «استيقظ» من الغفلة.

(ب) استجابة المولى عز وجل لهذا التوجه من العبد.

وهنا أمور:

أولًا: فائدة لغوية (ذكرتها سابقًا ولكن لا بأس بتكرارها لأنها كثيرة في القرآن):

يستخدم القرآن الكريم الشرط من قواعد اللغة العربية، ولكن ليس دائمًا مع أداة الشرط، أي كما في قوله ﴿إنْ تجتنبوا كبائرَ ما تنهون عنه نكفّرْ عنكم سيئاتكم﴾[٢] فكانت جملة الشرط «إن تجتنبوا»

---

(١) البقرة:١٥٢.
(٢) النساء:٣١.

وجاء جواب الشرط «نكفر»...

بل يأتي بدون أداة الشرط، كما في قوله ﴿اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضًا يخلُ لكم وجه أبيكم﴾[1]؛ وبما أن «يخلُ» مجزوم بحذف الواو - أي لم يقل «يخلو» - فإنه جواب فعل الشرط «اقتلوا»، فيكون التقدير «إن تقتلوا يوسف يخلُ وجهُ أبيكم»...

ومثله ﴿فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفارًا يرسل السماء عليكم مدرارًا﴾[2]؛ فالشرط هو «استغفروا» والجواب «يرسل»، فيكون التقدير «إن تستغفروا يرسل»..

ومثلها هاتان الكلمتان - فالتقدير «إن تذكروني أذكركم».

ثانيًا: المعنى:

معنى «ذكرنا إياه» هنا هو الانتباه إلى الله تعالى، أو الالتفات إلى وجوده المقدس في الحياة، فهو عكس الغفلة عنه سبحانه.

أما «ذكره إيانا» فهو الاستجابة لانتباهتنا له وعدم غفلتنا.

آفاق الذكر منا ومنه تعالى

بما أن معنى «ذكرنا إياه» هنا هو الالتفات إلى وجود الله في الحياة، وبالتالي هو عكس الغفلة عنه سبحانه، فإنك تجده تعالى

(١) يوسف:٩.
(٢) نوح:١٠.

يعلمنا أن «ذكر الله» هو أعظم من كل شيء، فيقول ﴿ولذكرُ الله أكبر﴾[١] أي «أكبر من أي شيء آخر».

فقد روي عن الإمام الصادق عليه السلام:

«... وذكر الله في كل موطن، أما إني لا أقول: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر، وإن كان هذا من ذاك، ولكن ذكر الله في كل موطن، إذا هجمت على طاعته أو معصيته»[٢] أي أن «التسبيحات الأربع» هي من أنواع الذكر، ولكن الذكر «الأكبر» هو عدم الغفلة في الحالتين: الطاعة والمعصية.

أما «ذكره إيانا» فهو الاستجابة لانتباهتنا له وعدم غفلتنا...

ولكن، ربما يرد إلى الذهن سؤال: هل إنه تعالى لا يذكرنا إلا إذا ذكرناه؟

الجواب: قطعًا لا؛ بل هو يذكرنا على الدوام، بل لا يمكن أن يغفل عنا فهو ﴿لا تأخذه سنة ولا نوم﴾[٣] من جانب، و﴿ما كان ربك نسيًا﴾[٤] من جانب آخر.

فهو يحوطنا بنعمه الظاهرة والباطنة وألطافه الخفية في كل لحظة من وجودنا حتى مع الغفلة، بل والغفلة التامة من الكافرين.

---

(١) العنكبوت: ٤٥.
(٢) بحار الأنوار ج٩٠ ص١٥٤ رواية ١٧.
(٣) البقرة: ٢٥٥.
(٤) مريم: ٦٤.

إذًا، هي عناية إضافية أو تشديد العناية الموجودة أصلًا أو عناية محددة متعلقة بتوجهنا المحدد في ذلك الحين.

فقد روي أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال:

«... خير أعمالكم عند مليككم وأزكاها وأرفعها في درجاتكم، وخير ما طلعت عليه الشمس، ذكر الله تعالى، فإنه تعالى أخبر عن نفسه فقال: أنا جليس من ذكرني، وقال تعالى: فاذكروني أذكركم بنعمتي، اذكروني بالطاعة والعبادة أذكركم بالنعم والإحسان والراحة والرضوان»[١].

إذًا، أن «نذكره» يعني أن نلتفت إلى وجوده بأشد ما نستطيع، وهو ما سيسهم في إعطائنا ذلك السلام الداخلي المنشود - ﴿أَلا بذكر الله تطمئن القلوب﴾[٢] - بغض النظر عما سيتحقق فيما بعد من «ذكره هو لنا» كنتيجة...

وكلما كان هذا التفاعل مستغرقًا لأوقات أطول من حياتنا، وبدرجات أعمق، كلما كانت الثمرة أعظم، إلى أن تصل «أذكروني» إلى حالة «الانشغال بالذكر عن الطلب» عندها تكون الاستجابة «اذكركم» أعظم في العطاء مما لو طلب.

فعن الصادق عليه السلام «إن الله تبارك وتعالى يقول: من شغل بذكري عن مسألتي أعطيه أفضل ما أعطي من سألني»[٣].

(١) عدة الداعي لابن فهد الحلي، وسنن ابن ماجة، وسنن الترمذي، ومسند أحمد.
(٢) الرعد:٢٨.
(٣) رواه البرقي في المحاسن.

الأولياء العظام عندما يقومون بالذكر

هذا الفعل الهائل بيننا وبين الحق تبارك وتعالى، والذي يقربنا منه بمجرد أن نذكره ببساطة الكلمات التي تعبر عن التوجه إليه، فإنه ينبغي أن نتعلم كيف يقوم به الأولياء العظام عليهم السلام فنحلق معهم في الآفاق التي يصعدون إليها وندخل معهم في الأعماق التي يتوغلون فيها بما يفتح أمامنا الأبواب تلو الأبواب لتطوير علاقتنا بالله عز وجل.

فلنأخذ بعض ما روي من «مناجاة الذاكرين: لمولانا الإمام علي بن الحسين زين العابدين عليه السلام...

«إلهي لَوْلا الْواجِبُ مِنْ قَبُولِ أمْرِكَ لَنَزَّهْتُكَ مِنْ ذِكْرِي إيَّاكَ، عَلى أَنَّ ذِكْرِي لَكَ بِقَدْرِي، لا بِقَدْرِكَ، وَما عَسى أَنْ يَبْلُغَ مِقْدارِي، حَتّى أُجْعَلَ مَحَلاًّ لِتَقْدِيسِكَ، وَمِنْ أَعْظَمِ النِّعَمِ عَلَيْنا جَرَيانُ ذِكْرِكَ عَلى أَلْسِنَتِنَا، وَإذْنُكَ لَنا بِدُعآئِكَ، وَتَنْزِيهِكَ وَتَسْبِيحِكَ.

إلهي فَأَلْهِمْنا ذِكْرَكَ فِي الْخَلاءِ وَالْمَلاءِ، وَاللَّيْلِ وَالنَّهارِ، وَالإعْلانِ وَالإِسْرارِ، وَفِي السَّرَّآءِ وَالضَّرَّآءِ وَآنِسْنا بِالذِّكْرِ الْخَفِيِّ، وَاسْتَعْمِلْنا بِالْعَمَلِ الزَّكِيِّ، وَالسَّعْيِ الْمَرْضِيِّ، وَجازِنا بِالْمِيزانِ الْوَفِيِّ.

إلهي بِكَ هامَتِ الْقُلُوبُ الْوالِهَةُ، وَعَلى مَعْرِفَتِكَ جُمِعَتِ الْعُقُولُ الْمُتَبايِنَةُ، فَلا تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ إلاّ بِذِكْراكَ، وَلا تَسْكُنُ النُّفُوسُ إلاّ عِنْدَ رُؤْياكَ، أَنْتَ الْمُسَبَّحُ فِي كُلِّ مَكانٍ، وَالْمَعْبُودُ فِي كُلِّ زَمانٍ، وَالْمَوْجُودُ

فِي كُلِّ أَوان، وَالْمَدْعُوُّ بِكُلِّ لِسان، وَالْمُعَظَّمُ فِي كُلِّ جَنان، وَأَسْتَغْفِرُكَ مِنْ كُلِّ لَذَّة بِغَيْرِ ذِكْرِكَ، وَمِنْ كُلِّ راحَة بِغَيْرِ أُنْسِكَ، وَمِنْ كُلِّ سُرُور بِغَيْرِ قُرْبِكَ، وَمِنْ كُلِّ شُغل بِغَيْرِ طاعَتِكَ.

إِلهِي أَنْتَ قُلْتَ وَقَوْلُكَ الْحَقُّ «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللهَ ذِكْرًا كَثِيرًا وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا» وَقُلْتَ وَقَوْلُكَ الْحَقُّ (فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ» فَأَمَرْتَنا بِذِكْرِكَ، وَوَعَدْتَنا عَلَيْهِ أَنْ تَذْكُرَنا تَشْرِيفًا لَنا وَتَفْخِيمًا وَإِعْظامًا، وَها نَحْنُ ذاكِرُوكَ كَما أَمَرْتَنا، فَأَنْجِزْ لَنا ما وَعَدْتَنا يا ذاكِرَ الذَّاكِرِينَ، وَيا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ»[(١)].

***

«وَاشْكُرُواْ لِي»

وجدت الناس يسألون لماذا قال «واشكروا لي» ولم يقل «اشكروني»؟

وأجاب البعض أن هذا التعبير يعني «اشكروني واشكروا غيري» مثل ﴿اشكر لي ولوالديك﴾[(٢)]، بينما الثاني «اشكروني وحدي»... وهو مردود لأنه لا يمنع أي منهما من حصر الشكر أو نشره.

البعض الآخر قال: إن التعبير يعني «اشكروا لي بالعمل»... ولكن يمكن «اشكروني بالعمل» أيضًا.

(١) ملحق الصحيفة السجادية المناجاة الثالثة عشرة.

(٢) لقمان: ١٤.

والصحيح هو:

- يمكن أن تكون «اشكروا لأجلي» وبالتالي فلأجله تعالى نشكر بالعمل وبالقول، أيضًا نشكر بمساعدة الآخرين بما أنعم الله به علينا من نِعَم نشكره عليها.

- كما يمكن - وببساطة - أن تكون «اشكروا لي» أفصح! ولكن لأننا اعتدنا على «اشكروني» فإن الناس يستغربون فيسألون.

مراتب الشكر

الشكر مراتب عديدة محل شرحها تدبر آيات الشكر بشكل مخصص. ولكن يكفي إلفات النظر هنا إلى ضرورة عدم الوقوع في حبائل ضعف النفس في الوقت الذي يظن الإنسان أنه يشكر الله على نعمه.

- **فإن أدنى درجات الشكر هي:**

قول «الحمد لله» أو «الشكر لله» أو مثيلاتهما، شريطة أن يكون قاصدًا فعلًا ما يقول. ذلك لأنه - ومن المؤسف - أن الكثير من الناس تسأله «كيف الحال؟» يجيبك «الحمد لله» وربما قالها باكتئاب، فإذا ما ثنّيت السؤال «وكيف الحال بعد؟» هنا تنطلق الشكوى وبشكل لا يمكن أن يكون هذا الإنسان يشكر الله حقًّا.

◆ **درجة أعلى من الشكر هي:**

أن يشعر العبد الشاكر في داخله بالنعمة بشكل يشعر معه بشيء من الفرح والرضا.

◆ **درجة أكثر علوًّا:**

أن يتحدث الإنسان بالنعمة التي يشكر عليها بشكل ينطبق عليه ﴿وأما بنعمة ربك فحدث﴾[1] دون تلك المخاوف والوساوس من الحسد وما إلى ذلك -، عندها كأنه يشيع ثقافة الشكر وفي نفس الوقت يرسخ رضاه بما آتاه الله في نفسه.

◆ **درجة أكثر علوًّا وسموًّا:**

أن يعطي الإنسان من النعمة المشكورة إلى الآخرين، عندها يدخل في «الشكر العملي»، فلسان حاله: يا رب، أنعمت علي وأريد أن أشكر لك بشكل أنت تحبه وهو أن يشاركني غيري هذه النعمة لأنك تحب المحسنين، أو لأني سمعت نبيك ﷺ يقول «خير الناس أنفعهم للناس»[2].

◆ **ثم يتصاعد إلى درجة هي:**

إعطاء كل ما زاد عن حاجته من تلك النعمة المشكورة.

---

(١) الضحى: ١١.

(٢) المعجم الأوسط للطبراني رواية ٥٧٨٧.

ويتصاعد فيصل إلى درجة الإيثار، بحيث يعطي الآخرين «ولو كان بهم خصاصة»، كي يدخل في عداد ﴿ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون﴾[١].

***

«وَلاَ تَكْفُرُونِ»

معنى «الكفر» يتأتى من المعنى الأصلي وهو «التغطية.

فـ «الكفر العقائدي» هو «تغطية وجود الله.

أما «الكفر بالنعمة» فهو «تغطية وجودها».

وهنا نستطيع القول: إن متعلق «ولا تكفرون» هو «واشكروا لي» قبلها، فهو إذاً «كفر النعم».

كفران النعمة

إذا كفرت النعمة، فإما بعدم شكرها مجرد الشكر اللفظي الحقيقي، أو بحالات الشكر الأعلى، فإنك كمن «يغطي» هذا العطاء لأنه ستره بغفلته أو بإهماله الشكر الحقيقي عليه، أي هو «يكفر به».

أو بعدم إظهارها، خوفاً من الآخرين من حسد أو مكر أو كيد، فهو «تغطية» أي «كفران» بها.

---

(١) الحشر: ٩.

من المؤكد أن هاهنا تفاصيل تتعلق بقضية الحسد وأنواع الناس ومسألة الكتمان أين ينبغي، ولكننا نتحدث هنا عن الحالة الاعتيادية دون عقد.

هذا «الكفران» أثره السلبي يقع علينا، لأنه تعالى، وكما وصفه سليمان عليه السلام ﴿فمن شكر فإنما يشكر لنفسه، ومن كفر فإني ربي غني كريم﴾[١]...

واللطيف أنه عليه السلام يعتبر ما آتاه الله من النعم العظيمة «ابتلاء» فتراه يقول قبلها في نفس الآية «هذا من فضل ربي ليبلوني أأشكر أم أكفر».

***

الجمع بين «الذكر» و«الشكر»

جمعت الآية المباركة بين الأمرين: الذكر والشكر، فقال تعالى:

﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُواْ لِي وَلاَ تَكْفُرُونِ﴾.

كما أن عائدة الشكر للشاكر فإن نتيجة الكفران عليه لأنه سيخرج من «فاذكروني أذكركم».

كيف؟

(١) النمل: ٤٠.

أن «تذكر الله» لا يمكن إلا أن يتضمن «تذكر نعمه»...

نعم، حالة واحدة - ربما - يمكن أن لا تتضمن تذكر نعمه بشكل مباشر، وهي عندما تذكره حبًّا بكماله المطلق... ولكن حتى هذه: ألم يكن هو الذي عرّفك بذاته العليا فأحببتها، فكيف لا تكون من مظاهر نعمه؟!

فسائر حالات «تذكر الله» تتعلق بها مظاهر نعمه التي لا تحصى - من أساس الخلق وحتى اللحظة التي أنت تتذكر هذه النعم.

فحتى عندما تتذكر، فتشكر، فأنت إنما انطلقت بالشكر من عوامل ثلاثة:

التوفيق منه تعالى، والتعليم من خلال كتابه ورسله وأوليائه، والآلات التي تشكر بها.

***

عائدة الشكر ونتيجة الكفران

لأن الله تعالى هو أكرم الكرماء فإنه لم يكتف بإسباغ نعمه الظاهرة والباطنة على عبده في كل لحظة من حياته ولكنه وعده بالزيادة في حالة انتبه العبد إلى هذه النعم المتواصلة فقام بشكرها.

يقول تعالى في آية من أعظم آيات العلاقة بين العبد ومولاه عز

وجل: ﴿... لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ...﴾[(١)].

فالله تعالى يعد العبد بالزيادة في النعم في حالة قيام العبد بشكر النعم؛ وبعبارة أخرى: مع الشكر تأتي الزيادة.

ولكن تأملوا التعبير:

الله عز وجل عندما يعد بشيء فإنه لا يحتاج إلى شهادة أحد ليصدقه، ولا إلى تأكيد لذلك، لأنه تعالى مالك الملك ففي يديه ما يعطيك في وعده، ولأنه تعالى لا يوجد من يمكنه منعه من ذلك، وعليه فإن العطاء الموعود لا شك فيه مع ذلك، وربما لأن الإنسان غالبًا ما هو واقع في ضعف اليقين، فإنه تعالى يؤكد وعده، وبتوكيدين: لام التوكيد قبل الفعل «أزيد» ونون التوكيد الثقيلة بعده، فقال «لَأَزِيدَنَّكُمْ» ولم يكتف بـ «أزيدكم».

فماذا يريد العبد أكثر من هذا كي يجعل شكر الله تعالى من ضروريات أفعاله اليومية؟!

ولعل هذا هو السبب الذي لأجله نجد كلمة «الحمد لله» في تعقيبات الصلوات الفريضة (مع «الله أكبر» و«سبحان الله»)، كما في الذكر قبل النوم والذكر في الأوقات المهمة كما في الأدعية الرمضانية وغيرها.

وتكمل الآية المباركة: ﴿وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾[(٢)].

(١) إبراهيم:٧.
(٢) إبراهيم:٧.

"الكفر" هنا هو نفسه "الكفر" في الآية موضع البحث في الفصل «وَاشْكُرُواْ لِي وَلاَ تَكْفُرُونِ»، ولكن في آية سورة إبراهيم عليه السلام المسألة تدخل في الخسارة الثقيلة ممن لا يلتفت إلى نعم الله تعالى إلى درجة الكفران.

فهاهنا حدّان: حد الشكر وحد الكفر. أن تشكر يعني أنك ملتفت إلى المنعم تعالى، وهو يجيبك بالمزيد من النعم؛ لكن أن تكفر يعني أنك غير ملتفت إلى درجة إنكار أنه سبحانه هو المنعم الكريم، فلك أن تستمر في معترك الحياة بأنواع الخسائر لنعم كان يمكن أن تكون ميسرة إليك.

***

عندما يقوم الأولياء العظام بالشكر

وهذا يذكرنا به مولانا الإمام علي بن الحسين زين العابدين عليه السلام في دعائه في الشكر، نلتقط منه الآتي:

«اللَّهُمَّ إنَّ أَحَدًا لاَ يَبْلُغُ مِنْ شُكْرِكَ غَايَةً إلاّ حَصَلَ عَلَيْهِ مِنْ إحْسَانِكَ مَا يُلْزِمُهُ شُكْرًا...

فَأَشْكَرُ عِبَادِكَ عَاجِزٌ عَنْ شُكْرِكَ وَأَعْبَدُهُمْ مُقَصِّرٌ عَنْ طَاعَتِكَ...

تَشْكُرُ يَسِيرَ مَا شُكِرْتَهُ وَتُثِيبُ عَلَى قَلِيلِ مَا تُطَاعُ فِيهِ، حَتَّى كَأَنَّ شُكْرَ عِبَادِكَ الَّذِيْ أَوْجَبْتَ عَلَيْهِ ثَوَابَهُمْ وَأَعْظَمْتَ عَنْهُ جَزَاءَهُمْ أَمْرٌ

مَلَكُوا اسْتِطَاعَةَ الامْتِنَاعِ مِنْهُ دُونَكَ، فَكَافَيْتَهُمْ أَوْ لَمْ يَكُنْ سَبَبُهُ بِيَدِكَ فَجَازَيْتَهُمْ؛

بَلْ مَلَكْتَ يَا إِلهِي أَمْرَهُمْ قَبْلَ أَنْ يَمْلِكُوا عِبَادَتَكَ، وَأَعْدَدْتَ ثَوَابَهُمْ قَبْلَ أَنْ يُفِيضُوا فِي طَاعَتِكَ؛

وَذَلِكَ أَنَّ سُنَّتَكَ الإِفْضَالُ، وَعَادَتَكَ الإِحْسَانُ...

تَشْكُرُ لِلْمُطِيعِ مَا أَنْتَ تَوَلَّيْتَهُ لَهُ...

وَلَوْ كَافَأْتَ الْمُطِيعَ عَلَى مَا أَنْتَ تَوَلَّيْتَهُ لأَوْشَكَ أَنْ يَفْقِدَ ثَوَابَكَ، وَأَنْ تَزُولَ عَنْهُ نِعْمَتُكَ، وَلكِنَّكَ بِكَرَمِكَ جَازَيْتَهُ عَلَى الْمُدَّةِ الْقَصِيرَةِ الفَانِيَةِ بِالْمُدَّةِ الطَّوِيلَةِ الْخَالِدَةِ...

وَلَمْ تَحْمِلْهُ عَلَى الْمُنَاقَشَاتِ فِي الآلاتِ الَّتِي تَسَبَّبَ بِاسْتِعْمَالِهَا إِلَى مَغْفِرَتِكَ، وَلَوْ فَعَلْتَ ذلِكَ بِهِ لَذَهَبَ بِجَمِيعِ مَا كَدَحَ لَهُ وَجُمْلَةِ مَا سَعَى فِيهِ، جَزَاءً لِلصُّغْرى مِنْ أَيادِيْكَ وَمِنَنِكَ، وَلَبَقِيَ رَهِينًا بَيْنَ يَدَيْكَ بِسَائِرِ نِعَمِكَ...»[1].

فنردد مع مولانا زين العابدين عليه السلام في مناجاة الشاكرين:

«لَكَ الْحَمْدُ عَلى حُسْنِ بَلائِكَ وَسُبُوغِ نَعْمآئِكَ، حَمْدًا يُوافِقُ رِضاكَ، وَيَمْتَرِي الْعَظِيمَ مِنْ بِرِّكَ وَنَداكَ، يا عَظِيمُ يا كَرِيمُ، بِرَحْمَتِكَ يا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ»[2].

(١) الصحيفة السجادية الدعاء ٣٧.

(٢) ملحق الصحيفة السجادية المناجاة السادسة.

الفَصْلُ الثَّانِي

الحديد

خبر علمي وتدبر لآية سورة الحديد

الحديد

خبر علمي وتدبر لآية سورة الحديد

فيما يلي خبر علمي من مجلة «نيو ساينتست» (العالِم الجديد) البريطانية الشهيرة في الأخبار والتحقيقات المتعلقة بمجالات العلوم الطبيعية والبحتة، والتي تصدر شهريًا، نشر في العدد ٣٠١١ الصادر بتاريخ ٧ آذار ٢٠١٥؛ بقلم أفيفا راتكن. أورد الخبر ثم أعلق عليه بما يتعلق بجوهر الخبر - معدن الحديد - وكيف ورد في سورة الحديد المباركة.

***

المطر الحديدي ترك المعادن الثقيلة على الأرض في أولها

إن النشرات الجوية الأولى لمناخ كوكب الأرض كان يمكنها التنبؤ بتوقع هطول أمطار من الحديد. فإن كوكبنا ربما هطلت عليه مثل هذه الأمطار في أول حياته، ما يساعد على تفسير تفوق وجود المعادن الثمينة في قشرة الأرض والطبقات الأعمق (الوشاح/ المانتل)

في يومنا هذا.

في سنوات تكونها، ربما ضربت الأرض بعدد من الأجسام الغنية بالحديد قادمة من الفضاء. في الماضي، كان العلماء يتصورون أن هذه انصهرت بالدرجة الأولى في لب/ قلب الأرض، ما عدا بعض الأجسام التي بأحجام كواكب صغيرة. تركت «ضربات الحظ» هذا الحديد، وبعض العناصر كالذهب والبلاتين التي تميل إلى الاتحاد مع الحديد، قرب السطح.

إلا أن هذا التصور كان مبنيًّا على تقدير ما يحدث للحديد عندما يرتطم بالأرض. أراد ريتشارد كراوس وزملاؤه من مختبر لورنس ليفرمور الوطني في كاليفورنيا القيام بقياس دقيق لكيفية تصرف المعادن تحت مثل هذه الظروف الشديدة.

إستخدم الفريق ماكنة زد في مختبر سانديا الوطني في نيومكسيكو لإطلاق صفائح الألومنيوم، المعجلة إلى سرعات عالية، على عينات من الحديد. التصادمات التي نتجت أرسلت موجات صادمة قوية خلال الحديد، لتحوله في النهاية إلى بخار.

واكتشف هؤلاء الباحثون أن الحديد احتاج كي يتبخر إلى ضغط أقل بحوالي ٤٠٪ مما كان يعتقد سابقًا.

إن هذا يرسم صورة جديدة عن الأرض في أوائل أيامها، حيث أن الذي حصل على الأغلب هو أن النيازك القادمة تبخرت عند الارتطام، ما أرسل كتلة من الحديد وغبار الصخور إلى الأعلى.

تحول هذا الخليط إلى مطر، نزل فاختلط، تمامًا وبسهولة، مع الجزء الأعمق من الأرض.

كما أن المطر الحديدي ربما كان وراء جلب العناصر كالذهب والبلاتين إلى أملاح السيليكا في القشرة الصخرية، ما يفسر سبب وجودها بشكل أكبر مما كان بعكسه سيتوقع.

(انتهى الخبر.)

الحديد والهدف من الرسالات

قال تعالى ﴿لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط، وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس، وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب، إن الله قوي عزيز﴾[(١)].

الآية المباركة من أربعة مقاطع

المقطع الأول

يبين لنا المولى عز وجل أمرين يتعلقان بالرسالات:

الأول: أن هدف الرسالات هو «إقامة القسط» أي يقومون بالعدل في ظاهر الأمور (لأن «العدل» أعم فهو ظاهر وباطن)؛ وهذا فيه

---

(١) الحديد: ٢٥.

إشارة لنا جميعًا إلى هذا الهدف العظيم كي نقوم بكل ما أوتينا من قوة بتحقيقه في حياتنا.

الثاني: لتحقيق هذا الهدف العظيم فقد أيد الله تعالى المرسلين بـ ٣ أمور.

البينات: المعجزات أو الآيات البينات في القرآن مثلًا.

الكتاب: القرآن وما سبقه.

الميزان: المعرفة بوضع الأمور في نصابها دون ظلم هنا أو هناك (وفي هذا نقطة جانبية تشير هي الأخرى إلى أن القول بالاكتفاء بالقرآن، كما يقول القرآنيون، أو على طريقة «حسبنا كتاب الله»، خطأ واضح، لأن الميزان غير الكتاب بعطفه عليه).

المقطع الثاني

إنزال الحديد، وفيه مسألتان:

الأولى، هل كلمة «أنزلنا» تشير إلى «حقيقة» أن الحديد نزل إلى الأرض بعد زمان من تكونها (ما يتعلق بالخبر أول المنشور أعلاه)، أم أنه بمعنى «الخلق» كما في آيات قرآنية أخرى ﴿وأنزلنا لكم من الأنعام ثمانية أزواج﴾[1]، على أساس أن «أنزلنا» هي تعبير مجازي للإنزال من الأعلى إلى الأسفل، من المنعم تعالى إلى الخلق؟

---

(١) الزمر: ٦.

الثانية، أن الحديد يوفر «القوة الكبيرة» إضافة إلى منافع أخرى، ما يؤيد المرسلين والقائمين بأمر الرسالات معهم وبعدهم في صراعهم مع الكافرين المعاندين المحاربين الذين يعملون لوقف نشر الرسالات.

المقطع الثالث

ربما يجمع بين المقطعين الأولين، «ليعلم الله» تعبير يستخدم في القرآن في مواضع عدة بمعنى ليثبت على الناس حقيقة تفاعلهم مع الرسالات من أفعالهم الحقيقية، وبدونه سيجادلون عند الحساب أنهم كانوا سينصرون الرسالات فيعترضون على حسابهم بمقتضى علم الله القديم بهم.

فها أنتم - جاءكم «المرسلون، ومعهم أسلحتهم من الكتاب والميزان والوسائل المادية من الحديد»، فهل تنصرونهم من خلال طاعتهم فيما جاءوا به من كتاب وميزان وفيما تصنعونه من السلاح المادي؟

المقطع الرابع

صفة «قوي» تناسب الحديد، كما تناسب القوة عمومًا مما جاء مع المرسلين من عناصرها في الكتاب والميزان من أحكام وهدى وأخلاق وغيرها.

وصفة «عزيز» تشير إلى المنعة من أن يتطرق إليه تعالى أي شيء يؤثر على خطته في الخلق ثم إرسال الرسالات لإرجاع الناس إلى فطرتهم كلما بعدوا وانحرفوا.

هل الآية من الإعجاز العلمي للقرآن الكريم؟

شخصيًا، لا أجد سببًا يدعو بعض المفسرين الكبار إلى نفي أن يكون التعبير «وأنزلنا» تعبيرًا حقيقيًّا عن حقيقة من حقائق الكون المكتشفة، وهي أن الحديد أنزل بعد زمان من خلق الأرض، وذلك:

١- التعبير «وأنزلنا» يحتمل الإنزال المادي الحقيقي.

٢- المعنى المجازي لهذا التعبير في آيات أخرى، كآية سورة الزمر، لا دليل على أنه المعنى الوحيد المقبول قرآنيًّا.

٣- آيات أخرى تتحدث عن أمور تنزل من أعلى إلى أسفل ماديًّا ﴿أنزلنا من السماء ماء فسالت أودية بقدرها﴾[(١)]؛ فإن قيل: إن هذا الماء، ماء المطر، من ضمن الأرض، أقول...

٤-... إن هناك غيرها تتحدث عن إنزال مادي ﴿وظللنا عليكم الغمام وأنزلنا عليكم المن والسلوى﴾[(٢)].

(١) الرعد:١٧.
(٢) البقرة:٥٧.

وعليه، فالتفسيران جائزان، والله العالم.

وعلى التفسير المادي، فإن الخبر أول المنشور يؤكد على أهمية الحديد «وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس» من خلال عناصر أخرى وليس فقط الحديد، ولكن العناصر الأخرى - كالذهب والبلاتين المذكورين في الخبر - والتي منها منافع للناس.

والحمد لله رب العالمين.

المحتويات

مقدمة المركز ٥

المقدمة.. ١١

الباب الأول: كيف نتدبر القرآن؟.......................... ١٧

الفصل الأول: كيف نتدبر القرآن؟ تقديم وأمثلة........... ١٨

الفصل الثاني: كيف نتدبر القرآن؟ تفصيل وأمثلة أخرى......... ٣٣

الفارق بين التدبر والتفسير والتأويل والبيان........... ٣٤

الباب الثاني/ الفصل الأول - أدوات تدبّر القرآن..................... ٤٦

أدوات التدبر.................................... ٤٩

١-اللغة.. ٤٩

قواعد اللغة.................................... ٥٠

البلاغة.. ٥٢

٢- مرجعية القرآن الكريم نفسه.......................... ٥٤

٣- مرجعية رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم............................ ٥٨

٤- مرجعية خلفاء الرسول صلى الله عليه وآله وسلم........................... ٦٣

٥ – مرجعية العلماء.. ٦٨

٦– مرجعية العقل.. ٧٠

٧– إطار المنهج الصحيح.. ٧٣

النظر وجمع المعلومات.. ٧٣

سؤال العلماء.. ٧٥

٨ – إطار التقوى.. ٧٨

الباب الثالث: تطبيقات في معارف ومواضيع مختلفة........................ ٨٠

تقديم.. ٨١

الفصل الأول: البلاغة وخطاب الله تعالى.. ٨٣

الفصل الثاني: المؤمنون بالله واليوم الآخر.. ٨٩

الفصل الثالث: القرآن الكريم.. ٩٧

الفصل الرابع: النبي صلى الله عليه وآله وسلم.. ١٠٣

الفصل الخامس: أهل البيت عليهم السلام.. ١١٧

الفصل السادس: أقسام الناس.. ١٣٢

ما المقصود بأقسام الناس؟.. ١٣٣

الفصل السابع: الخلافيات.. ١٣٩

الفصل الثامن: سنّة الابتلاء.. ١٥٦

الفصل التاسع: مفاهيم مهملة..١٦٨
الفصل العاشر: كلمة «قُلْ»..١٧٩
السبب في الاهتمام بهذه الكلمة «قُلْ» هو الآتي:........................١٨٠
بعض أمثلة «قُل» في القرآن المجيد....................................١٨١
الفصل الحادي عشر: كلمة «إِنَّما»....................................١٩٧
بعض أمثلة «إِنَّما» في القرآن المجيد.................................١٩٩
«قل» و«إنما» جميعًا...٢٠٦
الباب الرابع: تطبيقات في مفردات التنزيل.........................٢٠٨
الفصل الأول: القرآن والكتاب...٢٠٩
١- معنى «القرآن»..٢١٠
٢- معاني الكتاب..٢١١
الفصل الثاني: الوحي، الصحف، الآيات، الفرقان، الروح..........٢٤٦
ثانيًا: الوَحي...٢٤٧
ثالثًا: الصُّحُف..٢٥٠
رابعًا: الآيات...٢٥١
خامسًا: الفُرقان..٢٥٣
محتويات «الفرقان»...٢٥٨

قرينتان تشيران إلى المقصود بالفرقان:.............................. ٢٥٩
علاقة «الفرقان» بـ«القرآن»................................ ٢٦٠
سادسًا: الرُّوح.................................... ٢٦١
الفصل الثالث: الحكمة، الحكم................................ ٢٦٦
سابعًا: الحِكمَة.................................... ٢٦٧
مصدر الحكمة.................................... ٢٦٩
طرق إيتاء الحكمة.................................... ٢٧٠
مستويات الحكمة.................................... ٢٧١
من مصاديق الحكمة.................................... ٢٧٢
ثامنًا: الحُكم.................................... ٢٧٣
صفة من لا يحكم بما أنزل الله.................................... ٢٨٠
عروبة القرآن هي القدر المتيقن.................................... ٢٨٥
القول أن «الحكم» هو «النبوة».................................... ٢٨٧
الفصل الرابع: النور، الذكر.................................... ٢٩٤
سابعًا: النُّور.................................... ٢٩٥
«النور» بالاستخدام العام.................................... ٢٩٥
«النور» بمعنى «القرآن» و«ما يتعلق بالقرآن».............................. ٢٩٦

الخلاصة في «النور».. ٣٠٢
عاشرًا: الذِّكْر.. ٣٠٢
وظيفة القالب القرآني.. ٣٠٦
معان أخرى للذكر.. ٣٠٦
بيان الذكر.. ٣٠٨
استقراء مفردة «أهل» في القرآن.. ٣١٤
الفصل الخامس: خاتمة.. ٣١٦
الباب الخامس: تطبيقات في تفرّد التعبير القرآني..................... ٣٢٠
الفصل الأول: دقة التعبير القرآني.. ٣٢١
١- مناسبة الخطاب التنبيهي لكل من الحالَين.. ٣٢٢
٢- القتل والرمي يوم بدر.. ٣٢٤
٣- إعطاء معلومة بطريقة غير مباشرة.. ٣٢٧
٤- التفريق عن طريق التوكيد.. ٣٣١
٥- النحل والعسل.. ٣٣٤
الفصل الثاني: الحجة القرآنية «المختصر المفيد الحاسم»..................... ٣٣٩
١- القرآن المنزل من عند الله.. ٣٤٠
٢- الخلق والخالق - الحجة على الملحدين.. ٣٤١

الحجة الحاسمة:...٣٤٥

٣- عيسى عليه السلام - الحجة على المسيحيين.........................٣٤٦

٤- محمد صلى الله عليه وآله وسلم - الحجة على المسلمين.........................٣٤٩

الباب السادس: تطبيقات في الأمة المسلمة - من دعاء إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام إلى يوم الغدير.........................٣٥٣

تقديم...٣٥٤

الفصل الأول: الأمة المسلمة في دعاء إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام.........٣٥٦

الفصل الثاني: يوم الغدير - قراءة في آية البلاغ.........................٣٦٨

إضافة: حول كلمة «الغدير».........................٣٧٧

الوجه الآخر المفرح.........................٣٧٧

الباب السابع: تطبيقات عن «المهدي المنتظر في إطلالة قرآنية»......٣٧٩

الفصل الأول: المهدي المنتظر في إطلالة قرآنية - عقيدة المخلّص وإشكالات التطبيق على الإمام الثاني عشر عليه السلام- إشكالية الحكمة من ذلك.......٣٨٠

عقيدة المخلص الموعود المنتظر عند الأمم.........................٣٨١

العقيدة عند المسلمين.........................٣٨٢

المهدي المنتظر عند أهل السنة.........................٣٨٢

التشخيص...٣٨٣

أما من هو أو من أي العشائر أو البيوت؟.........................٣٨٣

المهدي المنتظر عند الشيعة.......................... ٣٨٤
عقيدة ولدت إشكالات.......................... ٣٨٥
بحث الإشكال الرابع.......................... ٣٨٦
الجمع بين المهمة والنتيجة للجواب على الإشكال الرابع.............. ٣٩٩
الفصل الثاني: المهدي المنتظر في إطلالة قرآنية - إشكالات المكان
وصغر السن عند بدء الإمامة.......................... ٤٠١
عقيدة ولّدت إشكالات.......................... ٤٠٢
المقابلات بين يحيى وعيسى عليهما السلام والجواد والمهدي عليهما السلام من القرآن... ٤٠٧
الفصل الثالث: المهدي المنتظر في إطلالة قرآنية - إشكال طول العمر.... ٤١٥
نقطة الخلاف الأهم في موضوع المهدي عليه السلام.......................... ٤٢٦
الحجج القرآنية في كلمة واحدة.......................... ٤٢٧
العقائد والعامل النفسي.......................... ٤٢٨
الباب الثامن: تطبيقات في مناقشة آيات الثناء على صحابة النبي صلى الله عليه وآله وسلم.... ٤٣١
تقديم.......................... ٤٣٢
الفصل الأول: آيات الثناء على صحابة النبي صلى الله عليه وآله وسلم.......................... ٤٣٧
مقدمة.......................... ٤٣٨
الصحابي في القرآن.......................... ٤٣٩
مصطلح «صديق» ٤٤٠

الفصل الثاني: مناقشة آيات الثناء على صحابة النبي ﷺ الآية الأولى........٤٤٣
الفصل الثالث: مناقشة آيات الثناء على صحابة النبي ﷺ الآية الثانية.....٤٥٠
الفصل الرابع: مناقشة آيات الثناء على صحابة النبي ﷺ الآية الثالثة......٤٥٦
الفصل الخامس: مناقشة آيات الثناء على صحابة النبي ﷺ الآية الرابعة...٤٦١
الفصل السادس: مناقشة آيات الثناء على صحابة النبي ﷺ الآية الخامسة..٤٦٩
الفصل السابع: مناقشة آيات الثناء على صحابة النبي ﷺ الآية السادسة....٤٧٦
الفصل الثامن: مناقشة آيات الثناء على صحابة النبي ﷺ الآية السابعة.....٤٨٦
الفصل التاسع: مناقشة آيات الثناء على صحابة النبي ﷺ الآية الثامنة.......٤٩٣
الفصل العاشر: مناقشة آيات الثناء على صحابة النبي ﷺ الآية التاسعة.....٥٠٧
الفصل الحادي عشر: مناقشة آيات الثناء على صحابة النبي ﷺ الآية العاشرة..٥١٣
الفصل الثاني عشر: مناقشة آيات الثناء على صحابة النبي ﷺ خاتمة: عقدة الصحابة - إفراط وتفريط.....................................٥١٩
نكتة قرآنية رقم ١.....................................٥٢٤
نكتة قرآنية رقم ٢.....................................٥٢٤
آية الانقلاب على الأعقاب.................................٥٢٩
السيرة تخبرنا:...٥٣١

الباب التاسع: تطبيقات – من نعم الله تعالى........................٥٣٨
تقديم...٥٣٩
الفصل الأول: نعمتا الذِّكر والشُّكر ٥٤٠
آفاق الذكر منا ومنه تعالى...٥٤٢
الأولياء العظام عندما يقومون بالذكر..................................٥٤٥
«وَاشْكُرُواْ لِي» ٥٤٦
مراتب الشكر..٥٤٧
«وَلاَتَكْفُرُونِ»...٥٤٩
كفران النعمة..٥٤٩
الجمع بين «الذكر» و«الشكر»...٥٥٠
عائدة الشكر ونتيجة الكفران...٥٥١
عندما يقوم الأولياء العظام بالشكر....................................٥٥٣
الفصل الثاني: الحديد: خبر علمي وتدبر لآية سورة الحديد..............٥٥٥
المطر الحديدي ترك المعادن الثقيلة على الأرض في أولها..................٥٥٦
الحديد والهدف من الرسالات...٥٥٨
الآية المباركة من أربعة مقاطع...٥٥٨
هل الآية من الإعجاز العلمي للقرآن الكريم؟............................٥٦١